موسوعة الحروب الصليبية

دولة المغول والتتار

بين الانتشار والانكسار

د. علي محمد الصلابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

دولة المغول والتتار

بين

الانتشار والانكسار

موسوعة الحروب الصليبية (٥)

دولة المغول والتتار

بين الانتشار والانكسار

١ـ جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية

٢ـ سقوط بغداد (٦٥٦هـ)

٣ـ المماليك ومعركة عين جالوت (٦٥٨هـ)

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار المعرفة

بيروت ـ لبنان

ISBN 9953-85-201-4

الطبعة الأولى
1430هـ - 2009م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهـداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]

د.علي محمد محمد الصَّلاَّبي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران، الآية: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء، الآية: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب، الآية: 70، 71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى فللّه تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله الحمد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية وموسوعة الحروب الصليبية، وهو حلقة مهمة جاءت بعد صدور السلاجقة، والزنكيين وصلاح الدين والحملات الصليبية «الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة».

وهذا الكتاب يتحدث عن المشروع المغولي وعوامل الانتشار وتداعيات الانكسار، ففي الفصل الأول يتكلم عن غزو المغول لبلاد المسلمين، تحدث المبحث الأول عن

أهمية دراسة تاريخهم والتعريف بهم وموطنهم الأصلي والقبائل التي يتكون منها مجتمعهم، وعن حياتهم الاجتماعية، ودينهم، وتداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان، والفوضى فيه ومحاولات توحيد القبائل المغولية، وأحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي، كالخلافة العباسية، والأيوبيين في مصر والشام، وانتشار الموبقات، كالخمر، والجواري، والغناء والطرب.

وفي المبحث الثاني، كان الحديث عن ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث وعن نشأته وتربيته، وكفاح والدته وزواجه واختياره خاناً على المغول، وعن حروبه وبداية توحيد القبائل تحت زعامته وبناء الإمبراطورية المغولية، وكانت هناك وقفات مهمة عن مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، كشخصيته وأهم صفاته، كالشجاعة والسخاء والكرم والغيرة، والقسوة والإخلاص لأصدقائه ومعرفته للرجال وقيادته للقادة، ودستور الدولة (الياسا)، ونصوصه التاريخية وموقف الشريعة الإسلامية من الياسا، وأهمية كتابة أقوال ملوك المغول، وتنظيم واجبات خدمة الخان، والجيش المغولي.

وأشار الكتاب إلى مجموعة من وصايا جنكيز خان لجيشه، وإلى طريقة التسلح والتجهيز لدى المغول، وأساليب القتال والاتصالات في الجيش وفقه القيادة، ومنهجهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين والاهتمام بالخبرات، والاستفادة من الحكماء وأصحاب الرأي وعقدهم للمجلس العام (الكوريلتاي) كل سنة وحضور أهل الحل والعقد من المغول فيه، وتقليب الآراء وممارسة حق الحوار والنقاش والوصول إلى أهداف ثم الاتفاق على التنفيذ، والتحرك من خلال إستراتيجية واضحة لدى قادة المغول، كما بين الكتاب عادات وتقاليد المغول الاجتماعية والخرافات التي انتشرت بينهم.

وفي المبحث الثالث: فصل الكتاب الحديث عن إزالة المغول للدولة الخوارزمية، فلخص تراجم سلاطين خوارزم وبيّن طبيعة الصدام بين الخوارزميين والخلافة العباسية، وأسباب الغزو المغولي للخوارزميين، وتتبع الكتاب خط سير غزو المغول من بلاد ما وراء النهر واستيلاءهم على مدينة أترار وجند وبنكت وخجنده وبخارى، وسمرقند، واجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزمشاه وتولي جلال الدين منكبرتي قيادة الجيوش الخوارزمية وحصار مدينة خوارزم واحتلالها، وذكر المؤلف وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم، وتحدث عن اجتياح خراسان والاستيلاء على بلخ واحتلال نسا والقضاء على أهلها ومذبحة مدينة مرو، والانتقام من أهالي مدينة

نيسابور، وخضوع مدينة هراة، واحتلال إقليم غزنة ونهاية جلال الدين منكبرتي، ومقتله ووقفت على أسباب زوال الدولة الخوارزمية والتي من أهمها:

1 ـ فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري.

2 ـ كره الشعب لنظام الحكام وعدم ولائه له.

3 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية.

4 ـ ضعف النظام الحربي الخوارزمي.

5 ـ حب الدنيا وكراهية الموت.

6 ـ ترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد.

7 ـ أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية.

8 ـ شخصية جلال الدين منكبرتي.

9 ـ قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي.

10 ـ غياب العلماء.

11 ـ المشروع المغولي.

كما أشرت إلى وفاة جنكيز خان.

وفي الفصل الثاني: كان الحديث عن سقوط بغداد. وفي المبحث الأول: تكلمت عن خلفاء جنكيز خان، وتقسيم ممالكه وانتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول وعن مواصلة المغول زحفهم على البلاد الإسلامية، وفتحهم لأقاليم الصين الشمالية وغزوهم لأوروبا ووفاة أوكتاي قاآن وعن النظم والإصلاحات التي تمت في عهده، ومعاملته لرعاياه من المسلمين وعن تولي كيوك خان زعامة المغول وسياسته مع المسيحيين وعن وفاته واختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي وإصلاحاته الداخلية وتسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية، وحرصه على تكوين تحالف بين المغول والمسيحيين، بشرط أن يكون الخان المغولي سيد العالم الوحيد وأصدقاؤه يعتبرون أتباعاً له. أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم، وبينت جهود هولاكو في القضاء على الإسماعيلية واقتلاع جذورهم وتحرك جيوشه نحو بغداد وحصارها واستباحتها ومقتل الخليفة المستعصم بالله، والخراب الحضاري الذي لحق ببغداد وما فعل التتار مع مكتبتها الهائلة ،وبينت حكومة هولاكو (الحكومة الأيلخانية بالعراق) وإدارتها في عهد الجويني ووفود الملوك والأمراء على هولاكو، وتأملت في أسباب سقوط الدولة العباسية ووقفت مع كل سبب والتي كان من أهمها:

1 ـ غياب القيادة الحكيمة.

2 ـ إهمال العباسيين لفريضة الجهاد.

3 ـ انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي.

4 ـ ضعف الجيش العباسي.

5 ـ ضعف عصبية الدولة.

6 ـ ضعف قيمة العهود.

7 ـ ضعف همم ملوك الأطراف.

8 ـ تنازلات سياسية دلت على الوهن العباسي.

9 ـ تعدد مراكز القوى.

10 ـ احتلال خطوط الدفاع الأولى.

11 ـ دور النصارى في سقوط الدولة العباسية.

12 ـ دور الحكام المسلمين في إسقاط الدولة العباسية.

13 ـ إبعاد الكفاءات النادرة.

14 ـ مناقشة العلويين.

15 ـ الترف وأثره في زوال الدولة العباسية.

16 ـ الوصول إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور.

17 ـ تدهور الأوضاع الاقتصادية.

18 ـ الصراع الداخلي في بغداد.

19 ـ خيانات الشيعة «الوزير ابن العلقمي».

20 ـ تمرس فرسان التتار وقوة الإمبراطورية المغولية.

وأشرت إلى نتائج سقوط بغداد، والتي منها:

1 ـ زوال النفوذ الأدبي والروحي.

2 ـ بغداد مدينة ثانوية.

3 ـ تدهور العلوم ومكانة اللغة العربية.

4 ـ البهجة والفرح لدى النصارى.

5 ـ القاهرة عاصمة الخلافة.

6 ـ انتشار الشيعة.

7 ـ تفجر طاقات الأمة (قانون التحدي).

وكان لهذا الحدث الجلل، تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً وكان أشد وقعاً وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم، فنظموا المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون، وكان من تلك المراثي مثل قول الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ حيث قال:

عندي لأجل فراقكم آلام ... فإلام أعذَل فيكم وألام

إلى أن قال:

إن كنت مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادهم ... يا دار ما صنعت بك الأيام

وقال:

والله ما اخترت الفراق وإنما ... حكمت عليَّ بذلك الأيام

وفي الفصل الثالث: تكلمت عن دولة المماليك وعن أصولهم ونشأتهم وعن نظام التدريب والتربية والتعليم، والمراحل التي يمرّون بها وعن نظام التخرج وإنهاء الدراسة ولغتهم ورابطة الأستاذية والزمالة بينهم وجهودهم في دحر الحملة الصليبية السابعة وصور من شجاعتهم وعن أسباب هزيمتهم ونتائجها والتي كان من أهمها:

1 ـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك.

2 ـ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها.

وعن مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية وكيفية مقتل تورانشاه؟ وأسباب سقوط الدولة الأيوبية والتي من أهمها:

1 ـ توقف منهج التجديد والإصلاح.

2 ـ الظلم.

3 ـ الترف والانغماس في الشهوات.

4 ـ تعطيل الخيار الشوري.

5 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية.

6 ـ موالاة النصارى.

7 ـ فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري.

8 ـ ضعف الحكومة المركزية.

9 ـ ضعف النظام الاستخباراتي.

10 ـ غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي.

11 ـ وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه.

وكان حديثي عن شجرة الدر هل هي أيوبية أم مملوكية؟ وكيف تولت سلطنة مصر؟ وموقف الخليفة العباسي والعلماء وعامة الناس من توليها الحكم، وكيف خلعت نفسها ورشحت عز الدين أيبك لتولي السلطنة وتزوجته بعد ذلك، وبينت حكم الشريعة الإسلامية في تولي المرأة للولاية العامة، وأشرت للمخاطر التي تعرض لها عز الدين أيبك في حكمه، كالخطر الأيوبي والصليبي، ومحاولة لويس التاسع استغلال فرصة النزاع بين المسلمين، وتردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع، ومساعي الخليفة العباسي في الصلح بين المماليك والأيوبيين، وموقف المماليك من تمرد القبائل العربية في مصر، وتصدي عز الدين أيبك لخطر زملائه المماليك ومقتل الفارس أقطاي، ومقتل السلطان أيبك وشجرة الدر بعد ذلك.

وتحدثت عن سلطنة علي ابن المعز ثم تولي سيف الدين قطز، وترتيبه للأمور الداخلية.

وفي الفصل الرابع: كان الحديث عن معركة عين جالوت الخالدة وانكسار المغول، وتتبعت تحرك المغول بعد سقوط بغداد، وبينت كيف تم احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة، ووضحت مشروع الكامل الأيوبي لمواجهة التتار وكيف استشهد عند دفاعه البطولي عن ميّافارقين، فقد صمدت المدينة الباسلة وظهرت فيها مقاومة ضارية بقيادته، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات حتى

هلك أكثر سكان المدينة، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب الحصار الطويل وفي عام (658هـ/ 1260م) سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل التتار ميّافارقين فوجدوا جميع سكانها موتى، ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء وقبضوا على الكامل الأيوبي فعنفه هولاكو وأمر بتقطيعه وأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد وذلك سنة (657هـ/ 1259م) إلى أن وصل دمشق، فعلّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه.

وكان السلطان الناصر الأيوبي سلطان بلاد الشام متردد بين المقاومة والاستسلام، وكان متخوفاً من المغول، الذين هددوه بالرسائل وذكروه بما حدث لبغداد وخليفتها وجاء في رسائلهم للسلطان الناصر:... واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تـــمَّ أمـــرٌ دنـــا نـــقـــصـــه ... تـــوقّ زوالاً إذا قـــيـــل تـــم
إذا كـــنـــت فـــي نـــعـــمـــة فـــارْعـــهـــا ... فـــإن الـــمـــعـــاصـــي تُـــزيـــل الـــنـــعـــم
وكـــم مـــن فـــتـــى بـــات فـــي نـــعـــمـــة ... فـــلـــم يـــدر بـــالـــمـــوت حـــتـــى هـــجـــم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض، ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم، الآيات: 39 ـ 41]. ولا تعوق رسلنا عندك، كما عوقت رسلنا من قبل ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة، الآية: 220]. وقد بلغنا تجار الشام وغيرهم انهزموا إلى كروان سراي[1]، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

هذه طرق من الحرب النفسية التي كان المغول يشنونها ضد أعدائهم. واستمر المغول في هجومهم على ديار المسلمين وسقطت حلب وسلمت دمشق وسيطر المغول على بلاد الشام وكانوا شديدي الوطأة على المسلمين، فبادروا إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماة وبعلبك

(1) كان هذا اسم مصر عند التتار.

وبانياس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري. وأصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً ليس له رأي ووقع أخيراً في أسر هولاكو الذي قام بقتله فيما بعد عند سماعه لهزيمة المغول في عين جالوت.

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم أن عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وكانت القيادة الإسلامية بمصر تستقبل فلول المسلمين من العراق والشام وتجهز نفسها لمعركة فاصلة مع المغول، وكان السلطان سيف الدين قطز على رأس السلطة في مصر وكان يدرك أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتيازه ذلك الامتحان الكبير المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره، وأن يثبت أنه بحق أهل للثقة التي أولاها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد إجماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتنصيبه على دولة المماليك، وأخذ سيف الدين في إعداد الجبهة الداخلية، وحرص على رص الصفوف والتصالح مع المخالفين، وحكّم الشريعة الإسلامية في دولته واستجاب لتعاليم وترشيد الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ورد على رسالة هولاكو بإعلان الحرب على المغول والقبض على رسلهم وضرب أعناقهم أمام أبواب القاهرة وعلق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مماليكه وكانت تلك الرؤوس أول ما علق في مصر من المغول، وشرع في إعداد العدة للمعركة الفاصلة واستطاع المسلمون بقيادة سيف الدين قطز تحقيق نصر ساحق على المغول وتمّ تطهير بلاد الشام من السيطرة المغولية، ورتّب سيف الدين قطز أمور الولايات الشامية، وبعد ذلك قصد البلاد المصرية، وفي طريق عودته تمّ اغتياله على يد ركن الدين قطز ومجموعة من فرسان المماليك لأسباب تمّ بيانها وتفصيلها في هذا الكتاب، وذكرت أهم العوامل التي ساهمت في تحقيق النصر في معركة عين جالوت والتي منها:

1 ـ القيادة الحكيمة.

2 ـ توسيد الأمر إلى أهله.

3 ـ الجيش القوي.

4 ـ إحياء روح الجهاد.

5 ـ الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب.

6 ـ عبقرية التخطيط.

7 ـ بعد نظر سيف الدين قطز وقيادته الحكيمة.

8 ـ توفر صفات الطائفة المنصورة.

9 ـ سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم.

10 ـ الاستعانة بالعلماء واستشارتهم.

11 ـ الزهد في الدنيا.

12 ـ صراعات داخل بيت الحكم المغولي.

13 ـ سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة.

وبينت أن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، وما ذكرنا من الأسباب ليس على سبيل الحصر وإنما هذا ما أمكن الوصول إليه، ومع البحث والتنقيب في صفحات التاريخ، يمكن للباحثين والمهتمين أن يصلوا إلى المزيد، لكي نستخرج الدروس والعبر والسنن والقوانين المهمة في قيام الدول وسقوطها وانتصار الشعوب وهزيمتها، ومعرفة صفات قادة التمكين، وفقهاء النهوض، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف، الآية: 111].

ولخصت أهم النتائج والآثار المترتبة على انتصار المسلمين في عين جالوت فذكرت منها:

1 ـ تحرير بلاد الشام من المغول.

2 ـ تحقق الوحدة بين الشام ومصر.

3 ـ خمود القوى المناوئة للمماليك.

4 ـ انتصار الإسلام على الوثنية.

5 ـ حدث حاسم في تاريخ البشرية.

6 ـ روح جديدة في الأمة.

7 ـ انحسار المد المغولي.

8 ـ فشل التحالف بين الصليبيين والتتار.

9 ـ إضعاف الوجود الصليبي.

10 ـ مدينة القاهرة عاصمة المماليك.

11 ـ ميلاد دولة المماليك الفتية.

12 ـ الدور الرمزي للخلافة العباسية.

13 ـ تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته.

لقد تعرفت من خلال دراستي في هذا الكتاب على طبيعة المشروع المغولي ونقاط ضعفه وقوته، وكيف استباح العالم الإسلامي وتهاوت مدن المسلمين، كبخارى وسمرقند وكابل وبغداد وغيرها أمام جيوش المغول، فاستباحت الديار وهتكت الأعراض، وصودرت الممتلكات وغابت أسباب النصر، وتعقمت عوامل الهزيمة في الأمة أمام المشروع الغازي ومضت السنن والقوانين الإلهية وعملت عملها ولم تجامل أحداً، وما تغيرت ولا تبدلت والناس في همّ وغمّ وذل وضعف وخور وصغار، حتى استوعبت القيادة الإسلامية في مصر فقه المقاومة وإدارة الصراع وعرفت كيف تدفع أقدار الله بأقداره من خلال سنن النهوض، وأسباب النصر، فكانت النتيجة المذهلة في معركة عين جالوت. لقد تحرك سيف الدين قطز من خلال مشروع إسلامي ملك مقومات الصمود والتحدي وحقق الانتصار، فكانت الرؤية واضحة والهوية صافية، والبعد العقائدي حاضر، والفقه السياسي ناضج، والقوة العسكرية متفوقة في مجاليها المعنوي والمادي، وعرف سيف الدين قطز مكانة العلماء في الأمة وقوة تأثيرهم ونفوذهم الروحي على الشعب فقربهم واحترمهم وفتح لهم أبواب التعليم والوعظ والإرشاد فقاموا بدور كبير في تعبئة الأمة ودفعها لكي تلتف حول المشروع الإسلامي الذي قاده سيف الدين قطز.

إن تاريخ الأمة ثروة فكرية لا تفنى، وكنوز علمية لا تنفد، تمنحنا الأصالة وعز الإيمان وشرف الانتماء فيعيننا هذا المخزون الحضاري في تشكيل الحاضر واستشراف المستقبل واستئناف الحياة الكريمة في ظل مجتمع إسلامي تسوده العقائد الصحيحة، وتزكيه العبادات السليمة، وتحركه مشاعر رفيعة، وتحكمه تعاليم الإسلام، وتوجه

اقتصاده وفنونه وسياسته، على أننا إذا تلفّتنا إلى الماضي فلا نلتفت إليه لنرجع القهقرى ونمشي إلى الوراء، بل لنستمد منه القوة على السير سعياً إلى الأمام لنربط بين الماضي المجيد والمستقبل المشرق، لنصل مجدنا الجديد بمجدنا التليد. إننا نعلم أن الاستغراق في الماضي وحده نوم أو جمود والاستغراق في المستقبل وحده هوس وجنون، والاستغراق في الحاضر وحده عجز وقعود، ونحن نريد أن نستمد من الماضي دافعاً وحافزاً، ومن المستقبل موجّهاً ومرشداً ومن الحاضر عماداً وسناداً.

ونحن نعلم أن هذا المجد لا يعود بالأحاديث والخطب ونعلم أن السجين المصفّد بالأغلال لا يطلقه تذكر الحرية والتغني بلذاتها، وأن الجائع لا يشبعه تذكر موائد الماضي واستعراض ألوانها، وأن الفقير لا يغنيه تذكر زمان غناه والزهو بما ضاع فيه، وأن الذلة لا تُدفَع عن الذليل بنظم قصائد الفخر بعزة جده، ولكننا نعلم أيضاً أن السجين الذي ينسى أيام الحرية يستريح إلى القيد ولا يجد حافزاً إلى الانطلاق، وأن الفقير الذي ينسى زمان الغنى يطمئن إلى الفقر ولا يجد دافعاً إلى الاستغناء، وأن الذليل الذي ينسى عزة أبيه يألف الذل ولا يجد قوة على دفعه، فإذا اطمئننّا إلى جلال ماضينا وحسبنا أن خطبة بتمجيده ومقالة بالإشادة به تغنينا وتكفينا فلن يعود لنا هذا الجلال أبداً، وإن نسينا أننا أبناء سادة الأرض وأساتذة الدنيا لم يحرك أعصابنا شيء إلى استعادة هذا المجد، فلنأخذ من الماضي بقَدْر، نأخذ منه ما يدفع ويرفع وينفع، وندع منه ما يثبط ويُقعد وينيم. إننا لا نريد أن نعود إلى الزمان الماضي، فالزمان يمشي أبداً لا يقف ولا يعود، ولا نعود إلى مثل معيشة الزمان الماضي، ونترك ثمرات الحاضر، ولكن نعود إلى المُثُل العليا، وإلى الفضائل التي لا تفقد قيمتها بمرور الزمن، فكما أن الذهب والألماس لا يغيّره القِدَم ولا يصدأ كما يصدأ الحديد، فإن في المعاني ما هو كالألماس والذهب في المعادن[1].

نحن نريد أن نعود إلى حياة الإيمان، والتقوى، والإحسان والعدل، والعبودية الخالصة لله عز وجل والشريعة الحاكمة على الأفراد والشعوب والأمة والدول ونتحرر من أنواع الشرك ما ظهر منه وما بطن، ونعمل لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

(1) فصول في الدعوة والإصلاح، ص: 14.

ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور، الآية: 55، 56].

إن أمر النهوض بهذه الأمة والتصدي للمشاريع الغازية يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة؛ وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه للوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[1].

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال، الآية: 60] وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة، فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد ويقابلوا الريح بالإعصار ويقاتلوا الغزاة بكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد واستعداد حربي لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون[2].

إن قادة المماليك قدموا للأمة أعمالاً جليلة في الفداء والبطولة، فقد استطاعوا أن يقاوموا طوال فترة حكمهم عدوين غاشمين، كانت لهم أطماع في البلاد الإسلامية دينية وسياسية واقتصادية هما المغول والصليبيون، غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا تحقيق رغباتهم ولا الوصول إلى أهدافهم، إذ كان المماليك يقفون سداً منيعاً حماية للبلاد الإسلامية ودفاعاً عن الدين والأخلاق، فكان جهادهم في هذا المضمار من أعظم الأعمال التي قاموا بها وكانت وقائعهم مع أعداء الإسلام صفحات مضيئة ومشرقة يستفيد منها ويقتدي بها المسلمون كلما أرادوا العزة والكرامة، لقد استطاع المماليك أن يثبتوا كفاءتهم وشجاعتهم في الميادين العسكرية والسياسية، فنظر إليهم حكام الدول الإسلامية وشعوبها نظرة إكبار وإجلال، في حين نظرت إليهم القوى الدولية الأخرى نظرة خوف واحترام، فحرصت على ملاطفتهم ومسالمتهم أو مهادنتهم اتقاء بطشهم

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 123.
(2) المصدر نفسه، ص: 224.

وانتقامهم وبذلك تكون دولة المماليك قد فرضت احترامها على الأعداء والأصدقاء وتسابق الجميع في كسب مودتها وإقامة العلاقات معها، وشهدت القاهرة نشاطاً سياسياً ضخماً في تلك الحقبة من تاريخ المماليك[1].

وقد وصف عصر المماليك بأوصاف واتهامات جائرة، فوصف بأنه عصر تدهور واضمحلال، وعصر تخلف وجمود وعصر اجترت فيه العلوم اجتراراً، إلى غير ذلك من الأحكام التي انطلقت من أفواه المستشرقين خاصة، فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك إلا أن المستشرق الفرنسي جاستون فييت يعده إنتاجاً من الدرجة الثانية، ويقول عن ذلك: ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد وقرطبة، وكانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ـ الثامن والتاسع الهجريين ـ مركزاً للسياسة والإدارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية، ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية[2]، ويصف بروكلمان هذا الإنتاج بأنه إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية[3]، وثم إننا نجد أن عدداً من الباحثين العرب والمسلمين قد انساقوا وراء آراء المستشرقين، فأصيبوا بداء الإعجاب بهم، فانطلقت أكثر أحكامهم من حدود آراء المستشرقين، ولم تنطلق من دراسة علمية متخصصة وموضوعية، وهؤلاء الباحثون الذين ساروا على نهج المستشرقين، كفيليب حتي، ابتعدت أحكامهم عن الموضوعية وجاءت مطلقة، كما ورد في رأي بروكلمان الذي جعل العصر المملوكي بطوله وعرضه خالياً من الإنتاج الأصيل المبدع بالكلية وقاصرة، كما جاء في رأي جاستون فييت الذي وصل إلى رأي لا أظن أن أحداً من الباحثين يسمح له فيه عندما قصر الحياة الفكرية على مقدمة ابن خلدون وحدها في عصر امتد قرابة قرون ثلاثة، وخلَّف العشرات من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان ويعرفهم الصغير والكبير، لقد حاول غالبية المستشرقين أن يصفوا عصر المماليك بعصر انحطاط وتخلف وجمود بدافع من الجهل أو الحقد أو كليهما، ثم تابعهم كالعادة بعض المؤرخين والعلماء المحسوبين على ثقافتنا وحضارتنا ورددوا هذه الأقاويل حتى وسموا عصر المماليك كله بالتخلف والانحطاط والهجين والفوضى، والانحلال،

---

(1) الحسبة في العصر المملوكي، ص: 267.

(2) القاهرة مدينة الفن والتجارة، مصطفى العبادي، ص: 106 ـ 107.

(3) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 371.

والواقع أن هذا الرأي الذي يؤيده غالبية المستشرقين ـ كما تتشدق به غالبية المستغربين من أهل المشرق ـ ينطلق من حقد الغربيين الدفين على المماليك الذين دمروا الصليبيين وأجلوهم عن الشام، كما دمروا حلفاءهم المغول، وحفظوا لبلاد الشام والأماكن المقدسة فيها والحجاز استقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية[1].

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحثين المنصفين، بأن عصر المماليك لم يكن بحال من الأحوال عصر انحطاط، بل هو الذي ظهرت فيه حضارة عظيمة في مختلف نواحي الحياة، لقد كان عصر المماليك هو العصر الذهبي في العمارة الإسلامية، وهذا يبدو اليوم بوضوح تام في القاهرة التي سميت بمدينة الألف مئذنة والتي تنتشر فيها الآثار المملوكية الهائلة بدءاً من البيمارستان المنصوري إلى جامع السلطان حسن، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ومسجد الأمير أيبك ومسجد الغوري وغير ذلك[2]، وأما الذين لم يزوروا القاهرة، فبإمكانهم مشاهدة الآثار المملوكية في دمشق مثل المدرسة الظاهرية، والجقمقية التي بجوارها، وبين هذه وتلك يمكنهم مشاهدة نموذج رائع من نماذج العمارة المملوكية وهو المئذنة الغربية من مآذن الجامع الأموي التي أمر ببنائها السلطان قايتباي بعد حريق الجامع الأموي (884هـ) وتم ذلك في بضعة شهور[3].

وفي ميدان الفكر قد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات الكبرى في الأدب والتاريخ والتفسير والفقه والحديث وغيرها، ففي علوم الدين والفقه والحديث نجد الموسوعات الضخمة للإمام النووي وابن تيمية وابن رجب والبدر العيني وابن حجر، وفي التاريخ نجد اليونيني والبرزالي وابن كثير وابن خلدون وابن تغري بردي والنويري، وفي الموسوعات العلمية نجد مسالك الأبصار، وصبح الأعشى، وخطط المقريزي وغيرها، وهؤلاء وأمثالهم حفظوا لنا التراث الإسلامي بالدرجة الأولى ثم زادوا عليه حتى أصبحنا اليوم نعرف أدق التفاصيل عن القاهرة في عصر المماليك، وهناك جانب آخر من الحضارة المملوكية لم يلتفت إليه الكثيرون ونعني به الجانب العسكري، ذلك أن الانتصارات المذهلة التي حققها المماليك على برابرة الشرق والغرب أي على المغول والصليبيين في غضون أربعة وأربعين عاماً فقط من سنة (658هـ ـ 702هـ) فقد تحققت بسبب الشجاعة والعقيدة ونتيجة ازدهار ما يسمى بلغة اليوم

(1) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية، ص: 13.

(2) المصدر نفسه، ص: 13.

(3) المصدر نفسه، ص: 13.

بالصناعات الهندسية والعسكرية، التي مكنت المسلمين من تحرير قلعة عكا في فلسطين، وهو الفتح المبين الذي لم يقل في أهميته عن فتح القسطنطينية فيما بعد بشهادة الغربيين أنفسهم. لقد كانت دولة المماليك من حيث طبيعتها امتداداً طبيعياً للأيوبيين ولمن سبقهم من الملوك والسلاطين، فهي دولة عريقة الحضارة، أعجمية الحكام، تقود الجهاد الإسلامي في وجه الخطر الذي كان يتهدد المسلمين[1]، ومن الأوهام التي تأثر بها كثير من الباحثين هو أن تدمير المغول لبغداد عام (656هـ ـ 1258م) كان نهاية الحضارة الإسلامية، ولذلك لا يتطرقون إلى ذكر شيء من إبداعات عصر المماليك وإنجازاته، وهذه فكرة خاطئة ووهم يتطلب الوقوف عنده كثيراً[2]، وسنجيب عنها بإذن الله تعالى في كتبنا القادمة ونبين الحياة العلمية والفكرية وأشهر الأعلام في عهد المماليك.

إن هذه الأمة تنبض بالحياة، وقادرة على تجاوز المحن العظيمة، وأثبت التاريخ بشواهده ووقائعه بأن طاقاتها الكامنة تتفجر عندما تتعرض للمخاطر والشدائد وحينئذ تستجمع قواها وتستثير كوامنها وتظهر ذخائرها وتتصدى للمشاريع الغازية والمصائب القاسية، بإيمان عظيم وصبر جميل حتى يجعل الله من ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ونهاراً مضيئاً، قد رأينا الصحابة الكرام، وفتوحاتهم الربانية، وسار على هديهم التابعون بإحسان، ولما جاءت جحافل الصليبيين والمغول تصدى لهم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك، وكان الإسلام هو المحرك لقادة الجهاد الإسلامي من أمثال عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، ومن سار على نهجهم، ولسان حال المسلمين في الماضي وفي الحاضر والمستقبل قول الشاعر:

أنــا مــسـلـمُ أنــا مــسـلـمُ	هــذا نـشـيـدي الـمُـلـهَـم
مــن أعــمــق الأعــمــاق	أبــعــث لـحـنـه يـتـرنـم
رُوحــي تُـرددُه وقـلـبـي	والــجــوارح والــدَّم
شــوقــاً وتـحـنـانـاً	لأمـجـاد لـنـا تـتـكـلـم
أنــا مــسـلـمُ أنــا مــسـلـمُ	بــالـرغـم مـمـن يـحـقـدون

(1) العصر المفترى عليه عصر المماليك البحرية،ص: 14.

(2) المصدر نفسه،ص: 15.

أنـا هـاهـنـا بـشـريـعـتـي ... فـي مـوكـب الـحـق الـمـبـيـن[1]

وبقول الشاعر:

أظننت دعوتنا تموت بضربة ... خابت ظنونك فهي شر ظنون

بليت سياطُكَ والعزائمُ لم تزل ... منا كحد الصارم المسلول

تالله ما الطغيان يهزم دعوة ... يوماً وفي التاريخ برٌّ بميني

ضع في يديَّ القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي على السكين

لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيماني ونور يقيني

فالنور في قلبي وقلبي في يدي ... ربي وربي ناصري ومعيني

سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسماً ليحيا ديني[2]

إن الذين استطاعوا التصدي للمشاريع الغازية، وانتزاع المدن والقلاع والحصون من المغول والصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم، إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرق مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعي بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل، ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه وتنشر مبادئه بين الناس. وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الحوار والجدال والصراع والممانعة والمطالبة بالحقوق، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد

(1) صلاح الأمة في علو الهمّة (6/ 516).

(2) صلاح الأمة (6/ 528).

السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب، إن موسوعة الحروب الصليبية، والتي صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين الأيوبي، والحملات الصليبية الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة وهذا الكتاب، قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية والإقليمية والعالمية، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة، والإيمان الصادق، والالتزام المسؤول، والذكاء الواعي واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب «المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار» يوم الأحد بعد صلاة العشاء الساعة الثامنة وعشرة دقائق من تاريخ 28 المحرم 1430هـ/ الموافق 25/ 1/ 2009م، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر، الآية: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللّهم بصّرني بما يرضيك واشرح له صدري وجنبي اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ولعبادك نافعاً وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير، إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل، آية: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر، آية: 10].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك).

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه ، علي محمد محمد الصلابي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

الفصل الأول:

المشروع المغولي وغزوهم لبلاد المسلمين

المبحث الأول:
الجذور التاريخية للمغول:

أولاً: أهمية دراسة تاريخ المغول:

يصادف المؤرخ عقبات عسيرة عند محاولته دراسة تاريخ المغول، إذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو كأنها لن تتسق أو تنتظم، فإن أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب، ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل بأسرها، فالأحداث الداخلية والحروب التي نشبت دائماً بين القبائل والتي لا بد للمؤرخ من تتبعها حتى يقف على ما يجري بين هذه القبائل من محالفات، كانت من العوامل التي تضلل المؤرخ وتعطله على المضي في دراسته، يضاف إلى ذلك ما أحاط بالتاريخ المبكر للمغول من الغموض والاختلاط بالأساطير، فضلاً عن الافتقار إلى السجلات والوثائق التي يصح الركون إليها[1]، ومن المتاعب التي يصادفها الباحث أيضاً امتداد واتساع الأراضي التي كانت تنزل فيها الشعوب المغولية، فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية، فقد زالت الحواجز التي تحد من استقرارهم، وما اتصف به المغول من بسالة خارقة حملهم على أن يتغلبوا على أخطار الصحاري المترامية الأطراف وأن يجتازوا الجبال، وأن يعبروا البحار والأنهار وأن يقهروا قسوة المناخ، وأن يصبروا على ما تعرضوا له من الأوبئة والمجاعات، فلا يخشون المخاطر، ولا تصدهم المعاقل ولا يحركهم كل توسل للرحمة والرأفة، وأينما سرح خيالهم سارت جموعهم، فكم من المدن الزاهرة اندثرت في

---

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 21.

ليلة واحدة، ولم يبق لها من الأثر سوى الخرائب والتلال التي أقامتها جثث الضحايا. وما كان يعقب الغزوات المغولية من هدوء لم يكن في الواقع هو الهدوء الذي يسيطر على عالم سئم القتال والتقاتل، وحرص على أن ينعم من جديد بثمار المدنية، بل كانت الأنفاس الأخيرة التي تلتقطها الأمم قبل أن تتوارى وتختفي نهائياً[1].

ومن بواعث الاهتمام بدراسة تاريخ المغول، ما كان لهم من تاريخ بالغ الشدة، أو المساحات الشاسعة التي كانت مسرحاً لأعمالهم، فكل محاولة لتقدير طبيعة الدراسة وما نجم عنها من نتائج، سوف تكون شيقة ومثمرة، والمعروف أن المغول قاموا بغزو روسيا والمجر وسيليزيا، وما أوجدوه من تغييرات على مستوى الساحة الأوروبية، وهذا التغيير يعكس أيضاً ما نشب من الحروب الصليبية بين المسلمين، والمسيحيين، وما كان من عداء بين البابوية والإمبراطورية، وما تعذر على أوروبا والشام من تدمير قوة الحشيشية، كان أمراً بالغ السهولة عند المغول الذين دمروا معاقلهم ومواطنهم سنة (1256م) والواقع أن اسم المغولي كان مصدراً للرعب والخوف عند الأوروبيين، فأضحوا عاجزين عن مقاومتهم، ولو لم ينهض السلطان المملوكي قطز سنة (1260م)، لرد الغزاة في لحظة حاسمة، فليس ثمة أدنى شك في أن جانباً كبيراً من أوروبا خضع لهم، على أن ما تعرضت له أوروبا من خطر المغول، لم يبلغ من الشدة ما بلغه هذا الخطر في آسيا، فما حدث من تدمير بغداد وزوال الخلافة العباسية سنة (1258م) واستئصال شأفة أسرة كين، سنة (1234م) وهي الأسرة التي كانت تحكم شمال الصين فضلاً عن غزو جنوب الصين وخوارزم وفارس وسائر الأقاليم المجاورة، وإقامة حكم المغول في الهند، وهذا ليس إلا طائفة من الأحداث التي يكفي الواحد منها للدلالة على أهمية دراسة تاريخ المغول.

ومن الظواهر الجديرة بالاهتمام، أنه كلما سقطت حضارة أو مدنية عقبها حركة إحياء ضخمة، تنبعث من بين أنقاض وآثار الحضارة التي دمرتها الغارات المتتالية، فمثلاً بعد استيلاء الرومان على بلاد اليونان، حدثت حركة إحياء في مجال الفنون والآداب وحدث بعد استيلاء العثمانيين على أملاك الدولة البيزنطية بأن ازداد الإقبال على دراسة كنوز المعرفة، وبعد دخول المسلمين لإسبانيا وفتحها، وصل إلى أوروبا في العصور الوسطى شعاع العلم والطب والفلسفة والشعر، وهذه النماذج تنطبق على المغول، إذ أن سقوط بغداد في أيامهم أدى إلى انتقال مركز الدراسات الإنسانية إلى

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 24.

مصر، وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامي، فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التي حلوا بها[1]، يضاف إلى ذلك أن انتقال مركز الجاذبية من بغداد إلى القاهرة، هيأ للعالم الغربي أن يحصل على ثقافة الشرق[2] وعلومه، بالإضافة إلى الاحتكاك في زمن الحروب الصليبية.

ومن ناحية أخرى، يعتبر ظهور المغول بالغ الأهمية لما حدث في آسيا من تطورات أخرى وأول هذه التطورات وأجدرها بالصدارة، ما جرى من توحيد آسيا، غير أنه لا يصح تفسير هذا بالمعنى المعروف لنا الآن عن الوحدة السياسية أو التجانس فالحكومة المغولية كفلت السلام والأمن في إمبراطورية مترامية الأطراف، فالطرق سابلة مفتوحة، يطمئن المسافر إلى اجتيازها، ما لم يصادف أثناء سيره موكب جنازة لأحد الخانات وعندئذ يكون مصيره الموت المحقق[3]، ومن خصائص المغول أيضاً ما اشتهروا به من التسامح الديني، على أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح، بأنه يرجع إلى ما اشتهر به المغول من عدم الاكتراث بالدين، يعتبر حكماً لا يستند إلى أساس متين، والراجح أن هذا التسامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما اختلفت دياناتهم[4].

ثانياً: التعريف بالمغول:

ظهر المغول على مسرح أحداث التاريخ العالمي في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ثم برزوا كقوة عالمية ذات شهرة دولية واسعة النطاق خارج نطاق موطنهم الأصلي ـ منغوليا ـ في خلال العقدين الأول والثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في أقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال ثلاثة عقود، وامتدت من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوروبية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً، ولقد عرَّفهم مؤرخونا، العرب منهم على وجه الخصوص والذين عاصروا أحداث ظهور المغول وغزواتهم للعالم

---

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 26.

(2) المغول للعريني، ص: 26.

(3) المصدر نفسه، ص: 26.

(4) المصدر نفسه، ص: 26.

الإسلامي بأنهم هم التتر أو التتار، وقد نهج منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين، بل وحتى الأغلبية من مؤرخي المغول في عصرنا الحاضر، على أن هذه التسمية الخاطئة لم تقتصر فقط على المؤرخين المسلمين من العرب، بل وسار على ذلك التعريف الخاطئ المؤرخون والرحالة الأوروبيون الأقدمون منهم على وجه التخصيص، إلا أن المؤرخين الأوروبيين المستشرقين الكبار، أمثال بريتسكنيدر وبارثولد الروسيين، وسيولر الألماني وبويل الإنجليزي وغيرهم، عرفوا الفرق بين التتار والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم رشيد الدين الوزير، وخاصة ما كتبه في كتابه المشهور «جامع التواريخ»، ثم ما كتبه الصينيون، والتي ترجمت كتبهم إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة، كالروسية، الألمانية والفرنسية، والإنجليزية، كما عرف المستشرقون ذلك أيضاً مما كتب باللغة المغولية، ويتمثل ذلك بصورة رئيسة بالكتاب المعروف بـ «التاريخ السري للمغول أو تاريخ المغول السري» بناء على هذا، نجد أن المغول شيء والتتار شيء آخر، ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين ـ المغول والتتار ـ فنقول بكلمات مقتصرة: أن التتار مغول وليس المغول تتراً، فالتتار شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرعاً من التتار، فالأصل هنا هم المغول، وليس الأصل التتار، وعلى الرغم من أن التتار تفرعوا أصلاً من المغول، وأصبح لهم دولة مستقلة، سيطرت على المغول حقبة من الزمن، إلا أنه في الفترة التي نتكلم عنها الآن ـ وكما سيأتي بإذن الله ـ جاء المغول تحت زعامة جنكيز خان، فهزم التتار، فقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم واسترقوا أطفالهم، ولهذا نجد أن التتار قد تلاشوا على يد الزعيم المغولي العظيم، وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة، فأسسوا إمبراطورية لهم عرفت في التاريخ بالمغول وليست بالتتار[1].

ثالثاً: موطن المغول الأصلي:

عاشت القبائل المغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري «سيحون وجيحون» من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا[2]، وتوسع البعض في حدودها حتى امتد بها إلى البحر الأدرياتيكي ويمكن هضبة منغوليا وسلاسل جبال «تيان شان» وجبال «التاي» وما بينهما

(1) سقوط الدولة العباسية، د. سعد الغامدي، ص: 54.
(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي، ص: 19.

من سهول وصحراء جنوبي وحول بحيرة «بايكال» وضفاف الأنهار الموجودة في تلك المنطقة[1]، الموطن الرئيس لهذه القبائل، التي كانت تستقر في السهول الواقعة بين سلاسل الجبال ومناطقها الدافئة شتاءً حيث تتوفر المراعي لحيواناتهم، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي.

إن بعد هذه المناطق الشديد عن البحار فضلاً عن ارتفاعها، أسهم في أن يخصها بمناخ «قاري» ـ إذ تتراوح درجة الحرارة في معظم أجزائها ما بين 38 فوق الصفر و42 تحت الصفر ـ مما يؤدي إلى تجمد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من أشهر السنة، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجنوبية في سيبيريا الواقعة شمالاً[2]، وتنعكس هذه الحالة في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالرمال[3] وفي هذه البيئة القاسية، كانت هذه القبائل التي تعيش على الصيد والرعي تجري وراء المياه القليلة في «صحراء جوبي» ـ التي يعني اسمها الجدب والفقر[4] ـ وفي السهول بين الجبال وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى، وكلما زحف الجفاف أو قلت الأعشاب انتقلوا إلى أرض مجاورة يدفعهم إلى ذلك تزايد عدد القطعان والماشية، وهذا الارتحال والتنقل هو القاعدة الطبيعية لحياتهم، وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته ـ وهي مصدر رزقه ـ ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر[5]، وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام، إلا أنهم كانوا ينقسمون إلى قبائل عديدة تتزايد أعدادها يوماً بعد يوماً بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعض حاملة أسماء جديدة، تفرعت إليها وعرفت بها[6].

---

(1) المغول للعريني، ص: 5 . 8، العالم الإسلامي والغزو المغولي، للخالدي،ص: 19.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي،ص: 19.

(3) المصدر نفسه،ص: 20.

(4) المصدر نفسه،ص: 20.

(5) المغول للعريني،ص: 13، العالم الإسلامي والغزو المغولي،ص: 20.

(6) الحياة السياسية في العراق، للدكتور القزاز،ص: 5.

رابعاً: القبائل التي تكوّن منها المجتمع المغولي:

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي «السادس الهجري» كان ينزل شمال منشوريا، ومنغوليا، وتركستان، قبائل بدوية متأخرة تتخذ من الرعي والصيد مهنة لها، تنتقل وراء العشب من مكان إلى آخر وتنتمي هذه القبائل من الناحية اللغوية إلى مجموعات: مجموعات تركية، ومجموعات منغولية، ومجموعات تنفوذية، ويصعب على المؤرخ أن يفصل بشكل قاطع بين هذه المجموعات، وذلك لأن صلات معينة قامت بينهم جعلت ألقابهم، وعاداتهم وكلامهم متقاربة، ومن هذه المجموعات:

أ ـ القبائل التركية:

- قبيلة توركش: وهذه القبيلة من أشهر القبائل التركية في الغرب، وكان رؤساؤها يلقبون بلقب «خان» وبقيت هذه القبيلة محافظة على استقلالها إلى أن قضى عليها العرب المسلمون بقيادة «نصر بن سيار»، ومن ولاة الدولة الأموية في عهد «هشام ابن عبد الملك» عام (121هـ ـ 739م).
- قبيلة القرغيز: وهم من الترك الذين كانوا ينزلون في أعالي نهر «ينسي»، وكان أميرهم يلقب بـ «خاقان» اشتهروا سياسياً حوالي سنة (250هـ ـ 840م)، حينما تغلبوا على «الأويغور» من منغوليا ولكن «الخطا» هزموهم وطردوهم من منغوليا في أوائل القرن الرابع الهجري، ثم احترفوا الزراعة، وبعد ذلك خضعوا للمغول زمن «جنكيز خان» سنة (1218م).
- قبيلة الأغوز «الغُز في اللغة العربية»: وهم من القبائل التركية وذكرتهم نقوش «أرخون» في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» باسم «التغزغز» ـ أي القبائل العشرة ـ لأنهم كانوا يتألفون من عشر قبائل. دخل «الغز» إلى البلاد الإسلامية في نهاية القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» وينتمي السلاجقة إلى قبيلة «الغز»، وقد أقاموا إمبراطورية امتدت من تركستان حتى حدود مصر[1].
- قبيلة القارلوق: أصبحت لهم أهمية سنة 149هـ «766م» حينما احتلوا وادي نهر «جو» بعد سقوط إمبراطورية «خاقان» الترك الغربيين/ لم يتخذ أمراؤهم لقب «خاقان» وإنما اكتفوا باتخاذ لقب «يبغوا»، وكانوا كفاراً حتى القرن الرابع

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 24.

الهجري «العاشر الميلادي» ويقول «ابن حوقل» إن بلادهم كانت تمتد من «فرغانة»[1] مسافة يجتازها المسافر في ثلاثين يوماً، ولقربهم من البلاد الإسلامية، تأثروا بالحضارة الفارسية، ولم يلبثوا أن اشتغلوا بالزراعة، وجرت الإشارة إليهم لآخر مرة في القرن الثالث عشر الميلادي «الرابع الهجري»[2].

ب ـ القبائل غير التركية:

الخطا (أو قرة خيتاوي) أو خيتاوي وكلها أسماء لشعب خيتاي:

الراجح أنهم من القبائل التونغوزية «ويرى البعض أنهم مغول» كانوا أعداءً للترك الذين ينزلون أقصى الشرق في المنطقة التي بلغها «الأتراك» في حملاتهم وفي بداية القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي» قام «الخيتاي» بحملات حربية من أجل التوسع، فاستولوا على شمال الصين، كما أخضعوا شمال منشوريا ووطدوا نفوذهم في جنوب الصين، بعد ذلك امتدت مملكتهم من بلاد القرقيز ـ على نهر ينسي ـ شمالاً حتى بلغ جنوباً، ومن خوارزم غرباً إلى بلاد الأويغور شرقاً وكانت «بالاساغن» عاصمتهم وكانت لقب ملكهم «الكورخان» ـ أي: خان الخانات ـ ولما تحطمت مملكتهم وحلت مملكة الأمير «كجلك» النايماني في جانب من أملاكهم، اتخذ آخر ملوك «قره خيتاي» العادات والملابس الإسلامية، وبقي إقليم ما وراء النهر في أيديهم، إلى أن انتزعه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة (612هـ)، وتداعت مملكتهم بفضل نشاط الأمراء المسلمين في الغرب، وطغيان المغول في الشرق[3].

ـ **التتار**: وكان التتار في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يسكنون جنوب غربي بحيرة «بايكال» حتى نهر «كيرولين»، وهم ثلاث أقسام:

* **التتار البيض**: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

* **التتار السود**: وكانوا ينزلون شمال صحراء «جوبي»، وكانوا بدواً رحلاً.

---

(1) فرغانة: بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 25.

(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 25.

* **تتار الغابة:** وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري «أونون» و«كيرولين»، ومارسوا حياة الصيد.

وعلى الرغم من أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري «الثالث الميلادي» كانوا يعرفون باسم «التتار» في كل مكان وكان يسحب هذا الاسم على أسلاف «جنكيز خان» وعلى النايمان، فقد كان «التتار» قبائل مستقلة عن المغول، بينما صار اسم «مغول» يطلق على جميع الشعوب التي خضعت لجنكيز خان بعد قهرها، ولم تلبث لفظة «تتار» أن تغلبت عليها/ خاصة في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، وهنا ينبغي أن نوضح حقيقة هامة هو أن لفظي «المغول» و«التتار» اسمان لقبيلتين كانتا تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين، على أنهار أولدزا وكيرولين، وأرخون، وأونون وسائر روافد نهر عامور[1].

- **قبيلة الكرايت:** أقاموا لهم مملكة احتلت المنطقة الممتدة من نهر أرخون وجبال كنتاري حتى سور الصين، وقد تغلبت على جميع العناصر المغولية، وتحولوا إلى النسطورية بين (عامي 400 ـ 402 هـ) (1007 ـ 1009م) على يد أسقف نسطوري مقيم في «مرو» ومنذ ذلك الحين صاروا يدينون «بالنسطورية» وفي القرن السادس الهجري «الثاني عشر الميلادي» اتخذ زعماؤهم أسماء مسيحية، وكان طغرل من أشهر ملوكهم استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش، وذلك بمساعدة رئيس مغولي هو «يوسحاي» والد «جانكيز خان» الذي ظل من أتباعه ـ واستطاع طغرل أن يهزم «التتار» وبذلك صار أقوى ملك في منغوليا ومنحه الإمبراطور «كين» لقب «وانج» واشتهر بـ «وانج خان»[2].

- **قبيلة النايمان:** يبدو من اسمهم أنهم مغول «نايمان» ـ معناها ثمانية ـ ولكن ألقابهم كانت تركية ولذا يصح اعتبارهم(تركاً ـ مغول) كان النايمان يسكنون غرب منازل «الكرايت» وامتدت منازلهم حتى نهر «أرتيش». كانت ديانتهم «الشامانية» إلا أن النسطورية نفذت إليهم[3].

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي،ص: 26.

(2) المصدر نفسه،ص: 27.

(3) المصدر نفسه،ص: 27.

ـ **قبيلة برجقين المغولية:** كانت تسكن عند أنهار «تولا، أرنون، وكيرولين»، وإلى هذه القبيلة ينسب «جانكيز خان»، توالى نزول القبائل المغولية على ضفاف هذه الأنهار بالقرب من هذه القبيلة ابتداء من «كيرولين» شرقاً حتى بحيرة «بيكال» غرباً(1).

كان المغول الأصليون ـ أجداد جانكيز خان ـ يشتغلون بالرعي ويعيشون على الصيد، وذلك لأن منازلهم كانت تقع بين السهول والغابات ويفصل نهر سرداريا «سيحون» بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي ولهذا السبب ظل المغول الترك محافظين على تقاليد عنصرهم بأن بقوا وثنيين، أو بوذيين، أو نساطرة، وكانت الحضارة الصينية أشد الحضارات تأثيراً عليهم(2).

خامساً: حياة المغول الاجتماعية:

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاث طبقات: طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب «بهادر» أي الباسل «وتوبان» ـ أي النبيل ـ «وستسن» ـ أي الحكيم، والطبقة الثانية هي طبقة الـ «نوكور» ـ أي الأحرار ـ وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن «جنكيز خان» وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة، هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً «خان ، قان» أو زعيماً «باكي أو بكي» وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال «أويرات، ومركيت»(3). وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحياناً إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان،وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها كما حدث لقبيلة «الجلائر» في علاقاتها مع أجداد «جنكيز خان»، وما جرى أيضاً لقبيلتي «القنقران، والأويرات» حينما خضعتا لجنكيز خان، لقد أثرت البيئة التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة، فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة «بايكال» ونهر عامور، عيشة المتبربرين ، ويعيشون على صيد الحيوانات في

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 28.
(2) المصدر نفسه،ص: 28.
(3) المصدر نفسه.

الغابات، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة، وأما الذين كانوا يعيشون في الأستبس فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام،يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه، وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة وكثيراً ما كانت تحركاتهم نحو المراعي سبباً في المنازعات والغارات والسلب والنهب وما كان يمارسه الرعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل والسعي لاكتشاف المراعي والمياه، واستخدام الأسلحة، وما يتصفون به من قوة الاحتمال، ومعاناة الجهد والتعب، والشجاعة، والميل إلى الحركة، وحب المخاطر، واتساع الأفق، وحب التسلط، كل ذلك جعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيش جاهز في كل لحظة، وعندما جاء «جنكيز خان» واستطاع توحيد هذه القبائل تحت حكمه، نظم لهم نوعاً من الحياة الاجتماعية مستفيداً من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها، وما قام به من حروب وغزوات، وكتب ما نظمه فيما يعرف بـ «الياسا»[1] ذلك لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل الخاضعة له، وعلى كبح جماحها، وإلزامها بالنزول على حكمه، فاشتمل هذا القانون على عقوبات بالغة الصرامة، حتى يقضي على أسباب الفوضى، ويعيد الأمن إلى نصابه.

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وقد نجح جنكيز خان في هذا الغرض واستطاع أن يحول جموع المغول إلى جيوش منظمة، تسير وفقاً لخطط حربية مرسومة وكان المغول يتخذون من لحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران غذاء، فمصادر غذائهم قليل وخاصة في الشتاء إذ تقسو عليهم الطبيعة، ولهم طريقة في حفظ اللحوم، وهي أنه إذا مات عندهم حيوان قطعوا لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة. وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكان من عادة المغول أنهم لا يغيرون ملابسهم طول فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة واحدة كل شهر، ومن عادتهم ألا يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تبلى، وكان

(1) الياسا: هي أحكام أو دستور «جنكيز خان» دوّنها له الأويغور بخطهم، وهي مزيج من القوانين موضوعة على إرادة الخان المغولي تسجل العادات القبلية. كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد للعرش وفي حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

من عادتهم أن يطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة[1].

سادساً: دين المغول:

وأما عن ديانتهم فإن دارس تاريخ هؤلاء الأقوام يجد صعوبة في التعرف على المبادئ الصحيحة، فبعض المراجع تذكر نتفاً قليلة لا تشفى غليلاً وبعضهم لا يذكر شيئاً، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم: وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات[2]، ويحتوي "الياسا» كما ذكر ابن كثير نقلاً عن الجويني بعض المبادئ التي منها: .. أنه من زنى قتل محصناً أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيراً أو رمى إلى أحد شيئاً من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكل منه أولاً ولو كان المطعوم أميراً لا أسيراً، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيواناً ذبح مثله، بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولاً[3].

وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو «منكو خان» (1251م ـ 1260م) في لقائه مع الرحالة «روبركي» قال: «... نحن المغول نعتقد بأن هناك إلٰهاً واحداً له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة كذلك أعطى الناس طرقاً مختلفة، فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه، وقد أعطانا «الشماناس» ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام[4].

وذكر الجويني: ... أن «جنكيز خان» لم يكن متحمساً لدين معيّن، وأن أولاده مالوا مع رغباتهم فمنهم من مال إلى الإسلام ومنهم من مال إلى المسيحية، وآخرون إلى عبادة الأصنام، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد[5]، وأما ابن فضل الله العمري فيقول: ... الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله وأنه خلق السمٰوات والأرض[6].

وفي تعريف الديانة الشمانية يقول الدكتور القزاز: كانت الديانة الرسمية للمغول

---

(1) المغول في التاريخ، للدكتور العباد، ص: 330 إلى ص: 334.

(2) البداية والنهاية لابن كثير، نقلاً عن: العالم الإسلام للخالدي، ص: 32.

(3) البداية والنهاية (17 / 161 ـ 165).

(4) الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، د.القزاز، ص: 20 ـ 21.

(5) المصدر نفسه، ص: 19، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 33.

(6) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 33.

تسمى «بالشامانزم» وتتمثل بعبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها، كما يدل على ذلك حديث «منكوخان» إلى الرحالة «رويركي» الذي مر ذكره، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الأخرى التي احتك بها المغول، الأمر الذي أدى إلى ذوبانها وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين، والإسلام في البلاد الإسلامية، والمسيحية في روسيا[1].
وأما أرنولد فقد كتب: كانت «الشامانية» الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من «الآلهة» المنحطة وبخاصة تلك «الآلهة» الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم.

كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجأون إلى القسيسين، وهم «الشامان» والسحرة أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم كثيراً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة، للمعلمين الدينيين، ومن ثم تأثر المغول بديانات تلك الشعوب[2]، فهذه عقيدة المغول المنحرفة والفاسدة[3]، ويرى الباحث إسماعيل عبد العزيز الخالدي، بأن عقيدة المغول المشوهة والتي أشار إليها المؤرخون هنا وهناك ما هي إلا بقايا عقيدة صحيحة كانت صيحة جاءت عن طريق بعض الرسل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر، الآية: 24] ولكن الانحرافات البشرية المتمثلة في تدخل بعض الناس حكاماً أو زعماء، أو علماء ـ في العقيدة ـ بالإضافة أو الحذف اتباعاً للشيطان والهوى أو وصولاً إلى شهوة، أو رغبة في انتقام أو إظهاراً لمكانة. . أو. . كل ذلك جعل هذه العقيدة تصل إلينا بشكل مشوه، ولكن الذي يتفحص هذه النتف القليلة يرجع أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلتنا مشوهة، وهم يعترفون بوجود إله واحد وأنه خلق السماوات

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 34.
(2) الدعوة إلى الإسلام، أرنولد، ص: 251.
(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 34.

والأرض ولكنهم يشركون معه بعض المخلوقات مثل «الشمس» «والأرواح» وغيرها، وهم يستنكرون القتل والزنا واللواط، والكذب، والسحر، والتجسس، وكلها من صميم النواهي والمحرمات التي حرمها الله ﷻ على عباده بواسطة الرسل الكرام، وإذا وجدنا العقاب قاسياً على بعض هذه الجرائم، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الإنسان الظالمة ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصاً أو يستفيدون من تجربة، وخلاصة القول إن الأستاذ إسماعيل الخالدي رجح بأنه كان لهذه الأمة عقيدة صحيحة تشوهت مع مرور الزمن ثم ترك كثير من أوامرها إلى أن جاء «جنكيز خان» فأمر بكتابتها بالخط «الأويغوري» وكتبت بعد أن أضاف إليها ما يعتقد أنه ينفع أمته ويقوي ملكه[1].

هذا وقد امتدت اليد الإنسانية إلى العقائد السماوية، بالتبديل والتحريف والتشويه، ابتداء من العقيدة التي أنزلت على آدم ﷺ ومروراً بعقيدة إبراهيم وإسماعيل التي شوهت في الجزيرة العربية، وعقيدة موسى التي شوهت على أيدي اليهود، وانتهاء بعقيدة عيسى التي شوهت على أيدي «النصارى»[2]، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع وكفى به قولاً وفصلاً وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء، الآية: 171] وقال تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ...﴾ [المائدة، الآية: 13].

سابعاً: تداعي المجتمع المغولي قبيل جنكيز خان:

1 ـ **الفوضى في منغوليا**: الواقع أنه باستثناء الترك الأويغور والخطا اللذين استقرا في جنوب منطقة الأستبس، وباستثناء منغوليا الأصلية، هوت بقية منغوليا إلى حالة بالغة من الشدة والاضطراب والهمجية، فلم يكن بين التتار والمغول والكرايت، والنايمان ما كان معروفاً باسم مدن البلاط، فليست مدن الأويغور سوى معسكرات مدورة تقوم حول مخيم الزعيم، والواضح أن هذا المعسكر ينقض إذا ارتحل الزعيم أو الخان ـ على أنه حدث عند ولادة جنكيز خان، أنه لم يكن بالأستبس المغولي أو ما

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 35.

(2) المصدر نفسه، ص: 35.

يليها من الغابات شيء من هذه المعسكرات، ففي منغوليا، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لا نكاد نلتقي إلا بالدساكر الصغيرة التي ينزلها جماعات قليلة من الأسرات التي تمتهن الرعي وفي كثير من الأحيان لا نصادف إلا دسكرة واحدة، وهذا مثال إنما نلمسه في نوع الحياة السائدة، أثناء حداثة جنكيز خان وإخوته، حينما تخلى عنهم أعمامهم، وأضحوا مضطرين إلى ممارسة الصيد، وحياة الكفاف[1]، والواقع أن الروابط السياسية والاجتماعية تمزقت في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بسبب الفوضى التي استمرت زمناً طويلاً، فلم يكن للمغول التايجيوت ولا غيرهم خانات، فعاشوا في فوضى شاملة، لما حدث من التنازع بين التايجوت وجنكيز خان، ولما وقع من الخصومة بين جنكيز خان وجاموكا، يضاف إلى ذلك ما نشب من التشاحن بين القبائل والعشائر المغولية على مواطن الرعي، ومواقع المعسكرات، ومن الدليل على ذلك ما كان من محاولات جنكيز خان، بعد وفاة أبيه، تجميع شتات العشائر، وما درج عليه المغول من الزواج من خارج قبيلتهم إما عن طريق التراضي والمفاوضات وإما عن طريق الاختطاف، مثلما حدث في زواج جنكيز خان، ووالده، كل ذلك أدى في ظروف كثيرة إلى الحروب[2].

2 ـ **محاولات توحيد القبائل المغولية:** جرت محاولات عديدة قبل ظهور جنكيز خان، لتوحيد القبائل المغولية، غير أن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح، وقد تحدث المؤرخون عن جد المغول، بدانتسار، الذي اشتهر بالمكر والخديعة واستطاع أن يفوز بالزعامة على قبيلة تعيش في الجهات المجاورة لمنازله على الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال، ولم تلبث أسرات عديدة أن التمست حماية ابنه قيدو، فتزايد عدد رعاياه ولم يلبث أن اتخذ لقب خان، هذه كانت النواة الأولى لمملكة المغول وكان لقيدو ثلاثة أبناء، كان أكبرهم جداً لأسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيز خان، بينما كان الثاني جداً لأسرة التايجيوت وشهد جنكيز خان في حداثته ما وقع بين الأسرتين من تنافس وتنازع وبلغت الملكية الأولى للمغول ذروتها زمن كابل حفيد قيدو، بعد أن توطدت العلاقة بين المغول وأسرة كين التي كانت تحكم بشمال الصين، نظراً لما تتعرض له من تهديد من جانب منغوليا، غير أنه وقع من المشاحنات بين خان المغول «كابل» وملك الصين «تاي سونج» ما أدى إلى نشوب الحرب بينهما

(1) المغول، د. السيد الباز العريني، ص: 38.
(2) المصدر نفسه، ص: 39.

(سنة 1135م)، وحلت الهزيمة بجيش الصين (سنة 1139م) ويعتبر هذا التاريخ بداية لنهوض المغول وعلى الرغم من سيادة أسرة كين على منشوريا، وشمال الصين، فإنها أضحت تحس بخطر المغول بعد أن امتد سلطانهم نحو الشمال الغربي لمنغوليا، وبعد أن أخضعوا التتار النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين، ولم يسع إمبراطور الصين الشمالية «التان خان» من أسرة كين إلا أن يثير العداء بين المغول والتتار، فنشبت معارك عديدة اشترك فيها «يسوكاي» من سلالة كايل والد جنكيز خان، والذي صرع أحد زعماء التتار واسمه «تيموجين» ولتخليد هذا الانتصار أطلق «يسوكاي» على ابنه عند ولادته اسم «تيموجين»، وهو الذي صار يعرف فيما بعد باسم «جنكيز خان»، وتلى ذلك فترة أضحى فيها للتتار النفوذ والسلطان بفضل مساندة أسرة كين بما بذلته لهم من الإمدادات الحربية، وبما لجأت إليه من أساليب السياسة والدهاء والمكر، فضلاً عن جيوش التتار، كل ذلك أدى إلى تداعي مملكة المغول الناشئة، وسيطرة التتار على شرق صحراء جوبي، بعد أن كان في حوزة المغول، وصار التتار مصدر خطر على أسرة كين ذاتها، فلم تلبث هذه الأسرة الملكية بالصين الشمالية أن انقلبت عليهم، فهيأت الفرصة لأن ينتصر جنكيز خان عليهم، وعلى الرغم من أن يسوكاي لم يكن إلا رئيس أسرة بورجقين، من عشرة قبات، فقد اشتهر يسوكاي بأنه كان محارباً شجاعاً وقائداً بارعاً، وسبق الإشارة إلى ما أحرزه من انتصار على أحد زعماء التتار، واسمه تيموجين، ثم نهض إلى مساعدة طغرل زعيم الكرايت في الغرب لاسترداد عرشه، وتحالف الاثنان على أن يكونا يداً واحدة، وأفاد جنكيز خان فيما بعد من هذا التحالف[1]، وقد تزوج يوسكاي بهادور «الباسل» من هوئيلون «يولون» من قبيلة المركيت وأنجب منها أربع أبناء أكبرهم تموجين، ثم جوش قسار وقاتشيون، وتيموجي فضلاً عن ابنة. وكان له من زوجتين أخريين بكتر ويلجوتاي[2].

ثامناً: أحوال العالم الإسلامي قبيل الغزو المغولي.

كان العالم الإسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول منقسماً إلى مجموعة من الممالك والدويلات الصغيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما تميزت هذه الممالك والدويلات بالتنازع مع بعضها

---

(1) المغول، للعريني، ص: 42.

(2) المصدر نفسه، ص: 42.

البعض من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى[1]، وكان الحكام المتنازعون يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح المسلمين العليا متناسين قول الله تعالى: ﴿... وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال، الآية: 47] وكانوا في سلوكهم الخاص ومعاملاتهم لشعوبهم أو لبعضهم بعضاً قد تخلوا عن قواعد الإسلام ومبادئه وانحرفوا عنه انحرافاً شديداً وانتشرت بينهم الموبقات، من معاقرة للخمر، وقتل الوقت بحضور حفلات الرقص الماجن وارتكاب الفواحش، واللهو الخليع، وقد تبعهم في ذلك كبار قادتهم، وكثير ممن يلوذ بهم من الناس، ولمَ لا؟ والناس على دين ملوكهم، وكان من نتيجة تخليهم عن أخلاق الإسلام فقدان روح التضحية وحب الاستشهاد مما أضعف الروح المعنوية في حروبهم مع المغول وذلك هو «الوهن» الذي حذر منه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال: **«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها»**، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«بل أنتم يومئذ كثر ولكنهم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن»** .قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت[2]»**، وكانت الأمة قد تفرقت وتمزقت، ففي كل ناحية سلطان وفي كل قبيلة أمير، ورحم الله القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس ... ألقاب معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وانتهوا إلى بلاء شامل قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم، الآية 28] لقد غلبت عندهم المعيشة، ورخص الإنسان وعمرت المراقص والحانات، وخربت دور العبادة، وقل عدد الملتزمين من الحكام وخاصتهم بالفضائل، وأطلقوا العنان لشهواتهم وأكرموا أهل النفاق والكفر فكانوا كما قال الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل، الآية: 112] وما يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منه، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فلقد كان هناك أيضاً الصراعات الداخلية بالإضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد، والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي امتدت

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، محمود عمران، ص: 15.

(2) سنن أبي داود، عن ثوبان بإسناد صحيح، كتاب الملاحم.

حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً، وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين، أو الاستنفار للجهاد[1]، أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي، ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد استولت على برج مدينة دمياط (عام 1218م)، مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوبي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل (615 ـ 636هـ / 1218 ـ 1238م)، ودمشق على رأسها الملك المعظم عيسى (615 ـ 624هـ / 1218 ـ 1227م). وكان هناك دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام ثم العالم الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة، (عام 1204م)[2].

1 ـ طائفة الإسماعيلية الباطنية: يعتبر الحسن الصباح المؤسس الحقيقي للطائفة الإسماعيلية في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في «قوهستان» وكانت أهمها قلعة «الموت» التي استولى عليها (سنة 483هـ ـ 1090م) ـ فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم، ولم يقف أمر «الصباح» عند هذا الحد، بل استطاع بمعاونة أتباعه ـ أن يستولي على المنطقة جنوبي بحر قزوين بأكملها[3]، وقد اشتهرت الطائفة الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء، بثوا الرعب في النفوس، وعاثوا في الأرض فساداً، وقاوموا سلاطين السلاجقة واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة، فلا غرو إن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين، كان لهم جهاز رهيب، وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان، الممتلئين قوة وحماسة وتضحية وتفانياً في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيون يجيدون فن التخفي، وساعدهم على ذلك طبيعة الدعوة الإسماعيلية الباطنية التي كانت تجري في

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 16.
(2) فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي، ص: 114 وما بعدها.
(3) المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، ص: 77 ـ 78.

سرية تامة، بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح، وأساليب القتال، وطرق الاغتيال وسفك الدماء[1]، وكانت القاعدة عندهم أنه إذا ظهر حاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه، وكان هدفهم الأول من وراء ذلك هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع ونشر الاضطرابات والفتن وإشاعة الفوضى في صفوف المعادين لمذهبهم، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية حتى جردوها من قوتها الفعالة وعقولها المدبرة، مما أدى بها إلى نهايتها المؤسفة، فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق وأكبر عقلية مفكرة في دولتهم، ألا وهو الخواجة «نظام الملك»، وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً (سنة 485هـ ـ 1092م) ـ فكان أول شخصية كبيرة فقدها العالم الإسلامي بسبب هذه الطائفة الدموية[2].

وقد قام الولاة والحكام المسلمون بتسليط بعض أفراد هذه الطائفة ضد بعضهم بعضاً، ومن أمثلة ذلك عندما قام الصراع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، اتهم السلطان «مسعود» بأنه هو الذي أوعز إلى جماعة من الفدائيين بالتخلص من الخليفة «المسترشد» فقتلوه (سنة 529هـ ـ 1134م) ـ ومثلوا به أشنع تمثيل، إذا أنهم قطعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً[3]، كذلك قتل ابنه «الراشد» بمدينة «أصفهان» (سنة 532هـ ـ 1137م) ـ لأن محاربة الخلفاء العباسيين هدف يتفق مع مبادئهم، كما سبق أن قامت هذه الطائفة باغتيال «أغلمش» نائب الخوارزميين في العراق العجمي، بإيعاز من الخليفة «الناصر»، وقد قام صراع بين الإسماعيلية والدولة الخوارزمية سبَّب للطرفين خسائر فادحة[4]، كما قامت هذه الطائفة بأعمال إجرامية ضد الطوائف الإسلامية التي تخالفهم في العقيدة، فأشاعوا الرعب والإرهاب، وظلموا وجاروا حتى لقد تمنى المسلمون زوال حكمهم، بل لقد شجعوا المغول وحثوهم على محاربتهم والقضاء عليهم، فقد ذكر «ابن طباطبا»: حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري قال: أذكر ونحن بقزوين

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 53.
(2) المصدر نفسه، ص: 53.
(3) المصدر نفسه، ص: 54.
(4) المصدر نفسه، ص: 54 نقلاً عن: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 55.

إذ جاء الليل وجعلنا جميع مالنا من أثاث وقماش ورحل في سراديق لنا في دورنا غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات «الملاحدة» فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل «القزاونة» للسكاكين وكثر حملهم للسلاح، وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر «شمس الدين» قاضي قزوين وتوجهه إلى «قا آن» وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ـ ما كان[1]. ويذكر «الجوزجاني» أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً كبيراً، ذهب مرة إلى «منكوخان» وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة، ويخلص الناس من فسادهم، وفي أثناء حديثه وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جافة أغضبت «منكوخان»، وكان لها أثر عميق في نفسه، إذ نسب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف ديانات النصارى والمسلمين والمغول، وما ذاك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا «منكوخان» بالمال بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع لينقضوا على البقية من المسلمين ويعفوا آثارهم، وخلاصة القول إن الطائفة الإسماعيلية كانت من أهم العوامل التي أسهمت في إضعاف المسلمين والدعوة الإسلامية ودعاة الإسلام وزيادة الفرقة بينهم وتدهورهم تدهوراً كاملاً سهل على المغول مهمة القضاء عليهم في الوقت المناسب[2].

2 ـ **الخلافة العباسية**: كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب والفرس وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر، هي العرب والفرس والأتراك، وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بني بويه ـ الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين وكان بوسعهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص: 25 ـ 26.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 55.

هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السني، لأن دولة بني بويه كانت من طائفة الشيعة، وكان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين وبدأ حكام الولايات في الاستقلال، بولاياتهم، والاكتفاء بالولاء الأسمى للخلافة العباسية، ومن هنا تمزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الانفصالية بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراد بالسلطة وتعرضت الخلافة العباسية، لسيطرة الأتراك السلاجقة ـ بعد أن أزالوا النفوذ البويهي من بغداد ـ وهم مسلمون من السنة، وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب سلطان وعرف حكامهم الأوائل باسم السلاطين العظام، وبقي الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة، وتصرف هؤلاء السلاطين في الأراضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن، وعندما انهار سلطان السلاجقة العظام كانت أعالي الفرات وشمال الشام ثم جنوبه دويلات لا تتعدى المدينة وما حولها، عمل الزنكيون على توحيدها ودخلت في صراع مع الدولة الفاطمية بمصر، وانفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكرياً عن مواجهة أي غزو عسكري ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي[1]، هذه هي أوضاع الخلافة قبل الحروب التي شنها المغول على البلاد الإسلامية، ولا يمنع هذا من ظهور خليفة قوي تساعده بعض الظروف على القيام ببعض الإصلاحات، ولكنها صحوات تشبه صحوات الذي يعاني سكرات الموت[2]، ولم يكن بوسع الخليفة المستعصم (640 ـ 656هـ 1242 ـ 1258م) آخر خلفاء بني العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف[3].

3 ـ الأيوبيون في مصر والشام: بعد أن توفي صلاح الدين (سنة 589هـ/ 1193م) تفككت أملاكه، ووزعت بين أبناء البيت الأيوبي ذلك لأنهم اعتبروا مملكته تركة خاصة وقد قسمت إلى خمسة عشر قسماً، تزيد وتنقص حسب نتيجة المعارك التي كانوا يخوضونها ضد بعضهم بعضاً، أو ضد أعدائهم، إذ ما لبثت عوامل الانقسام والشقاق أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم وانتهز الملك العادل تلك الفرصة، ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، ص: 18.

(2) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 57.

(3) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 18.

جانب أملاكه في الشام، وهكذا لم يمض على وفاة «صلاح الدين» سوى سبع سنوات حتى طوى «العادل» معظم أولئك الأبناء فقد قال: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب[1]، ورغم كل ذلك فإن «العادل» لم يستطع أن يسيطر على كل ما تركه صلاح الدين، بل ظلت الدولة مقسمة إلى سبعة أقسام وكثيراً ما استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر، وخضع لها البعض الآخر خضوعاً اسمياً، وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم على الآخر، بعدو ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أقاربهم من الأيوبيين[2]، وعلى هذا فإن بلاد الشام أيضاً كانت في حالة من الانقسام والحزازات والتباغض والشحناء أشد مما كانت عليه إيران، وخراسان والعراق، أضف إلى ذلك أن هذه البلاد كانت قد وصلت إلى حالة شديدة من الضعف نتيجة للحروب الصليبية التي خاضتها لمدة قرن من الزمان، لصد تلك الحملات، فلما شن «المغول» غاراتهم المدمرة على البلاد الإسلامية كان من الطبيعي أن يقف حكام تلك المناطق في حالة عجز تام عن مد يد العون لإخوانهم في الشرق، وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين ما سيحل به[3]، كما أن سلاجقة الروم المسلمين كانوا في نزاع دائم مع الدولة البيزنطية ثم مع الصليبيين، فهم أول من تصدى للحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية، كما أن حكام هذه الدولة كانوا في نزاع مستمر مع غيرهم من السلاطين المسلمين، ومن هذا العرض السريع يمكننا أن نتوقع النتيجة الحتمية للمعركة القادمة التي ستنشب بين المسلمين من ناحية وبين القبائل المغولية من ناحية أخرى[4]، ومن أراد التوسع فليراجع كتبي عن دولة السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، وصلاح الدين، والحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

4 ـ انتشار الموبقات في العالم الإسلامي: قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء، الآية: 16] ومن الموبقات التي انتشرت في العالم الإسلامي في ذلك العهد:

---

(1) السلوك لمعرفة السلوك (1 ـ 155).

(2) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 61.

(3) المصدر نفسه، ص: 61.

(4) المصدر نفسه، ص: 62.

أ ـ الخمر: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١] قالوا: انتهينا يا رب، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر، وسكبها فجرت في سكك المدينة[1]. وقد انتشر شرب الخمر بين الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، وبعض عامة الناس في تلك الفترة، وكان الذين يشتغلون في الحانات ـ رجالاً ونساءً ـ من غير المسلمين بل المشرفون عليها كانوا من اليهود والنصارى، وكانوا حريصين جداً على نشر هذه الآفات في المجتمع الإسلامي، ونشر الشعر الذي يدعو إلى الخلاعة وتلحينه وغنائه، ونشر الشراب ودفع الشباب إلى التفتيش عن المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يعلمون أن هذه هي أقصر الطرق إلى تسهيل القضاء على المسلمين وذلك بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل وذلك بدفع الشباب المسلم إلى إشباع البطن والفرج وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات، وغالباً ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، والشباب والشعراء يأتون إليهن، وكن يعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء، بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، ويستكثرن من العشاق بطرق غير مستقيمة، فكن سبباً في كثير من الفجور والمجون وكل شيء حولهن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم[2].

وفي سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية وتحطيم الإسلام في نفوس المسلمين حوّل بعض النصارى أديرتهم إلى دور للعبث واللهو الماجن، وساعدهم على ذلك ما كانت تحويه تلك الأديرة من خمور معتقة تقدمها لروادها، وكانت هذه الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء وفي طول البلاد الإسلامية وفي عرضها، فأكثر الشعراء والشباب من الاختلاف إليها طلباً للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات، حتى لقد أُلفت الكتب في ذلك مثل كتاب «الديارات» «للشباشتي» وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره، وكان لكل دير عيد تقريباً يخرج فيه الناس

(1) تفسير ابن كثير، لسورة المائدة الآيتان 90 ـ 91.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 69.

للهو والمجون، وكان هذه الأديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد «عيد الميلاد» الذي كان يكثرون فيه إيقاد الشموع والنيران ومنها عيد «الشعانين» أو عيد «الزيتونة»، وكان يقام في «أكتوبر» عيد للقديسة «أشموني» في «قُطرَبُّلْ» وهي قرية في شمال بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب براً، والسفن في دجلة بحراً متنافسين فيما يظهرونه هناك من زيهم، وزينتهم، ومباهين بما يعدونه لقصفهم، وكان يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط، وتعزف عليهم القيال، وهم يحتسون كؤوس الخمر، وبالمثل كانوا يسمعون في عيد «الزندورد» بالجانب الشرقي لبغداد[1]. بالإضافة إلى أعياد النصرانية التي كانت تقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة أحيا الفرس أعيادهم القديمة، وأخذوا يحتفلون بها ويقدمون من الخمور والمأكولات ما لا يتصوره عقل[2]، ومنها «عيد النيروز» في أول الربيع وهو للسنة الفارسية «وعيد المهرجان» في أول الشتاء، ولا شك في أن كل ما ذكرناه أعد لانتشار المجون والخلاعة في «بغداد» «وسامراء»، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر منتشرة انتشاراً كبيراً ومعها القيان المبتذلات وعمَّ تبعاً لذلك الشعر الصريح بل المفرط في الإباحية وفي التعبير عن الغرائز الجسدية التي تدفع الشباب إلى الجري إلى إشباع غرائزهم تاركاً واجبه نحو الدعوة الإسلامية، والثغرة التي هو عليها ليؤتى الإسلام من ناحيته، فإنا لله وإنا إليه راجعون[3].

ب - **الجواري والنساء**: عن أبي سعيد الخضري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**[4]». لقد انتشر الرقيق في المجتمع، فقد كان موجوداً في كل مكان، في القصور والأكواخ والمصانع والمزارع، وكان منهم الزنجي الأفريقي والحبشي والتركي والصقلي ومنهم الصيني، والخرساني والأرمني، والبربري، فكان المجتمع الإسلامي في تلك

---

(1) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 69.

(2) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي، ص: 95.

(3) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 70.

(4) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنزري (2/ 310).

الفترة يجمع كل الأجناس. وقلد المسلمون الشعوب الأخرى فشاركوهم في تجارة الرقيق وخرجوا بها عن حدودها الشرعية، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى «قيم الرقيق»[1]. وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي انتشاراً سريعاً مع أن الإسلام حرم الخصاء تحريماً قاطعاً، فكان العبيد يخصون خارج حدود الدولة الإسلامية ثم يجلبون ويباعون في أسواق الرقيق في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال الأرقاء، وكان كثير من الرجال يفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن وهم لا يعرفونهن، بخلاف الجواري اللائي كن معروضات لهم في الأسواق وبيوت النخاسين، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم، ومن أجل ذلك كان يندر تزوجهم بأكثر من واحدة من الحرائر، فقد كفاهم اتخاذ الإماء هذا التعدد، فأقبلوا عليه إقبالاً كبيراً متخذين من الخلفاء والأمراء قدوة لهم، بل كانت أمهات عدد من الخلفاء أمهات أولاد[2]، خاصة التركيات، والروميات، وكن يتدخلن في شؤون الحكم[3]، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري، وللنخاسين، وكان هذا يكلفهم كثيراً من الأموال وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار وكلفهن بهم، وحزنهن لفراقهم أو لتأخرهم في الزيارة، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها[4]، وكان النخاسون في سبيل الحصول على المال والهدايا ـ يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمتد أيديهم للعبث بأجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك[5].

ج ـ انتشار الغناء والطرب: وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والانحلال الخلقي بين الشباب، وكثير من الشيوخ،

---

(1) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص: 71.

(2) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 73.

(3) المصدر نفسه، ص: 73.

(4) المصدر نفسه، ص: 74.

(5) المصدر نفسه، ص: 74.

ومُجّات الشعراء، إذ أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب، والسعي وراء إشباع الغرائز، كما انتشر في العصر العباسي الثاني حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيش والسلاطين وقد قال أحدهم عن غلامه: ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي، بل أرض العراق كلها[1]، وكان أحدهم يقبل «المردان» من غير ريبة أو خجل[2]، وكانت تقام الحفلات والسهرات، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان أعطى عطاء لا يتصور[3]، وكان للزانيات والفساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة وكان يردها عدد كبير من الناس يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم غير مبالين بدين ولا هيابين من سلطة، ولم لا؟ والناس على دين ملوكهم[4]. ولم يقتصر الفساد على الجواري والغلمان بل تعداه في أوقات كثيرة إلى الحرائر، ولا شك في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم» وكاد زمان آخر الخلفاء العباسيين ينقضي أكثره في سماع الأغاني ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب وفي نفس الوقت وصل رسول «هولاكو» إلى صاحب الموصل نفسه يطلب منه منجنيقات، وآلات حصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله[5].

ولا يعني هذا أن المجتمع الإسلامي كله انقلب إلى مجتمع فاسد بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً وكانت طبقة العامة فيه ـ التي تمثل الأغلبية ـ حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه، وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجّان والمنحلين. وكان المؤمنون يعمرون مساجد الله، وكان الدعاة إلى الله لا يزالون يُذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون

(1) البداية والنهاية (11/ 291)، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75.
(2) البداية والنهاية (11/ 291)، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75.
(3) المصدر نفسه، ص: 75.
(4) العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص: 75، نقلاً عن: البداية والنهاية.
(5) الفخري في الآداب السلطانية، ص: 290، العالم الإسلامي للخالدي، ص: 76.

يوم الحساب، فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم. ونشأت في تلك الفترة طبقة من الزهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، ولا يخلو الفساد في عامة الناس ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة وتمسك بزمامها فقادتها إلى محاربة الفضيلة ونشر الرذيلة، تحقيقاً لرغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم. ثم سيطرت طبقة (العسكر) على أمور الناس فقادوهم إلى محاربة بعضهم بعضاً وصولاً إلى الحكم، ولتوسيع رقعة الأرض التي تحت أيديهم، فأضعفت هذه التصرفات الغبية الأمة الإسلامية وجعلتها هشة ضعيفة خائرة مثل بيت العنكبوت، فانهارت تحت ضربات أعدائها المتربصين بها من كل جانب[1]، كما سنبين بإذن الله في الصفحات القادمة.

المبحث الثاني:
ظهور جنكيز خان على مسرح الأحداث

أولاً: نشاته وتربيته:

ولد جنكيز خان على نهر «أوتون» (سنة 1155م)، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وهناك من يرى أنه ولد عام 1167م، وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، إذ كان يقاتل التتار، وقد صرع زعيم لهم اسمه تيموجين، وعاد يسوكاي مظفراً إلى منزله، فلقي مفاجأة سعيدة بأن زوجته، يولون، أنجبت له ابناً، وحينما فحص الطفل، لحظ بأن بداخل قبضة يده قطعة من الدم المتجمد، كأنها حجر أحمر، فتراءى للزعيم المغولي الذي يؤمن بالأساطير أن هذا الحدث يشير إلى ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار، ولذا أطلق على ابنه اسم هذا الزعيم تخليداً لانتصاره، ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره صحبه أبوه يسوكاي لزيارة أخواله فالتقى أثناء الرحلة بأحد زعماء المغول القنقراد، فتنبأ لتيموجين بمستقبل باهر، وحرص على أن يزوجه من ابنته، بورتة، التي لم تتجاوز وقت ذاك العاشرة من عمرها، ولم يلبث يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، وترددت الشائعات أن التتار دسوا له السم فمات (سنة 1176م)[2].

1 ـ كفاح والدة جنكيز خان: ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، فالمعروف أن يسوكاي استطاع أواخر أيامه أن يجمع تحت سلطانه عدداً من القبائل

(1) العالم الإسلامي والغزو الصليبي، ص: 76.

(2) المغول، للعريني، ص: 44.

الموالية، فضلاً عن قبيلة قيات التي يتولى زعامتها، ولم تلبث أحقاد خصومه بسبب ما أحرزه من انتصارات أن انطلقت بعد وفاته، وكان من أشد القبائل عداوة وضراوة قبيلة التايجوت، التي أنكرت على تيموجين الزعامة، ولما احتج عليهم، أجاب العصاة المتمردون: إن أشد الآبار عمقاً قد يصيبها الجفاف، وإن أشد الحجارة صلابة قد تنكسر، فلماذا نتعلق بك؟

لذلك كان لزاماً على زوجة يسوكاي أن تبذل كل ما تستطيع من جهد لتحصل على الزاد الضروري لأفراد أسرتها، فصارت تلتقط لهم الثمار، وما ينبت بالأرض من ثمار، ولم يطرق اليأس إلى قلوب أفراد هذه الأسرة، وأكبرهم لا زال حدثاً صغير السن، ومع ذلك فإن هذه الجماعة احتفظت بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب، فأخذ الصبيان يصيدون من نهر أنون ما يلزم لإعاشتهم، وحرصت يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة، فلما وقع الخصام بين أبناء يسوكاي الأشقاء وغير الأشقاء، وأسفر هذا الشقاق عن مصرع بكتار، ابن يسوكاي من زوجة أخرى، انفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار، اللذين تسببا في هذا الحادث وقالت لهما: أيها القتلة، فحينما ولدت يا تيموجين كنت تقبض على قطعة دمٍ متجمدة، لستم إلا نمرة تنقض على فريستها، ولستم إلا كالأسد الغاضبة، ولستم إلا كالبزاة تحلق في الجوزاء فوق ظلالها، وكالإبل تقضم في أثناء غضبها أبنائها، وكالذئاب التي تنقض على فريستها في غمرة العاصفة، فليس لدينا، فيما عدا ظلالنا، رفاق، وما تعرضنا له من الشرور على أيدي التايجوت، بلغ من العنف ما لا نستطيع تحمله، فلا بد من الانتقام منهم.

وتعرض تيموجين وإخوته وأمه لغارات التايجوت، الذين حرصوا على إذلالهم، فلم يسع تيموجين وأسرته إلا أن ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبال بروقان كالدون، ثمّ إلى جبل كنتاي، الذي كان له من القداسة عندهم، ما حمل تيموجين على الاعتقاد بأنه هو الذي حماه وعصمه من الأعداء[1]، ولم يتخل البؤس عن تيموجين وإخوته، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس، وقع منها ثمانٍ في أيدي المغيرين دفعة واحدة[2].

2 ـ **تيموجين يطارد اللصوص:** أصر تيموجين على أن يطارد اللصوص، حتى التقى بعد أربعة أيام بغلام تبدو عليه سمات النبل، اسمه بورتشو، أحس بالميل والعاطفة نحو تيموجين، فاشترك معه في البحث عن الأفراس، حتى عثرا عليها فساقاها

---

(1) المغول، للعريني، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 46.

بعد أن أظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه وإجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به، وكان من أثر هذه المغامرة أن توطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو، وكانت بداية طيبة لأمجاد بورتشو المقبلة، ونستطيع أن نستخلص من هذه الأفعال ما كان لتيموجين من الطباع والصفات، فما يبهرنا فعلاً، ما كان له من شخصية بلغت من القوة أنها فرضت نفسها على كل من تلتقي به، فمنذ هذه اللحظة انجذب إليه بورتشو، وربط مصيره بمصير تيموجين، وسوف نلحظ ما يشبه ذلك، حينما انحازت إلى تيموجين القبائل الواحدة بعد الأخرى، وقد جذبتها مواهبه في القيادة وإحساسه بالعدالة وإخلاصه لأصدقائه واعترافه بما يؤدي له من خدمات، أضحت محبته لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال، ومن طباع سكان الخيام، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم[1]. ومن الدروس والعبر:

إن الزعماء يمرون بظروف قاسية تظهر حقيقة معدنهم ويتعلمون من أحداث الزمان ويتربون على تحمل المشاق، ومن أهم صفات قادة الأمم والشعوب والدول: الشجاعة والإقدام وإجادة المهارات اللازمة، مع شخصية كارزمية متفوقة على من حولها، مع الترفع عن المصالح الذاتية من أجل الصالح العام، ولا يخلو الزعيم من أخلاق يأسر بها الأتباع مع طموح كبير وإصرار لتحقيق الهدف.

3 ـ زواج تيموجين وبذله يمين الولاء لزعيم الكرايت: أنجز تيموجين من الأعمال، ما جعله يفكر بعدها في الزواج، ولا سيما أن أباه عقد له خطبة على بورتة ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة، ولم يلبث أن انتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أسرته إلى منبع نهر كيرولين، وارتفع شأن تيموجين، بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي الذي تنشده سائر القبائل، فصار في مقدوره أن يشترك في الأحوال السياسية، وأن يكون من البارزين من رجال المغول الذين يتنازعون السيطرة على شرق منغوليا وما اشتهر به تيموجين من روح عملية، أثارت فيه الميل إلى السلطان، وحملته على أن يفكر في الإفادة من مركز قوي، بأن يعقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته، وإذ أسهم أبوه يسوكاي في توطيد مركز زعيم الكرايت، حتى صار من أقوى ملوك الأستبس.

---

(1) المغول، للعريني، ص: 46.

حرص تيموجين على أن يسير على نهج أبيه، فتوجه إلى حيث ينزل طغرل على نهر تولا، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه وخاطبه: سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين أبي، فأنت الآن في مقام أبي.

وارتاح طغرل لهذه التبعية، ووعد بأن يساعده بأن يجتمع تحت زعامة تيموجين، من جديد، سائر رجال العشيرة الذين هجروا منزله أثناء حداثة سنه. والواقع أن أحوال تيموجين أخذت تستقر، وذاع أمره، وسعى الناس من القبائل المختلفة لكسب صداقته، فصار جيلمي، الذي تقدم به أبوه لأن يكون خادماً له، من أخلص الرفاق، شأنه في ذلك شأن بورتشو، وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت، والذي دان له تيموجين بالتبعية، انحاز إليه زعيم مغولي آخر، اسمه جاموكا، رئيس قبيلة جاجيرات، فقام بهما من المحبة والود ما جعل منهما أخوين، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهما، فانفرط عقد التحالف، وانحاز إلى كل منهما جماعة من الموالين له، وإذ جرى التنبؤ بأن زعامة القوم سوف تؤول إلى تيموجين، ازداد انحياز القبائل والعشائر إلى جانبه، ومن الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول يجري في عروقهم الدم الملكي بعد أن انفصلوا عن جاموكا[1].

ثانياً: اختيار تيموجين خاناً على المغول: اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، والمعروف أن تيموجين ينتمي إلى هذه الأسرة، غير أنه لم يكن له من الحقوق في ولاية الحكم، ما يفوق حقوق ألتاي الذي كان ابن قوتولا، آخر خاقان للمغول. ومع ذلك فإن ما كان من ولاء وإخلاص بين تيموجين وبين هؤلاء الأمراء تمثل فيما جرت به الرواية من أنهم خاطبوه: لقد قررنا بأن ننادي بك خاناً، وسوف نكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء، فما نسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع من أيدينا من الجياد الأصيلة، سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد، سوف نجعله لك فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين.

وقد التزموا هذا القرار، واختاروا تيموجين خاناً وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان، والواقع أن ما حدث من اختيار جنكيز خان ليتولى الحكم، وهو الانتخاب الذي اشترك

---

(1) المغول، للعريني، ص: 46.

فيه ألتاي ابن قوتولة، والأمراء الذين يمثلون الأسر الملكية السابقة ولم يكن له غرض منه سوى وقف ما حدث من تشتت العشائر، والقبائل المغولية وإعادة السيادة إلى أسرة قيات، وترقب الفرصة المواتية للانتقام من التتار، فاختار أقاربه وبنو عمومته، لما لمسوه فيه من أنه زعيم في الحرب والصيد، وما اشتهر به الخان الجديد من العبقرية في التنظيم والشدة في التزام النظام يعتبر من أهم صفاته[1]، وكانت الأخلاق القيادية بارزة في جنكيز خان، كالمكر، والدهاء وسعة الحيلة، والكرم والوفاء لأصدقائه المخلصين، وممارسة الشورى مع من حوله من القادة المعاونين.

1 ـ حروب جنكيز خان وبداية توحيد القبائل تحت زعامته: حرص جنكيز خان على أن يوزع بين أنصاره الموالين له الوظائف الأساسية الحربية والمدنية، فجعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخص آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي) ولم ينس أمور بورتشو وجيلمي، فمن المأثور عن جنكيز خان أنه قال: إنني لا أنسى أنكما كنتما رفيقي حينما لم يكن لي رفاق، ولذا جعلت لكما الرياسة على جميع هؤلاء، ثم وجه الخطاب إلى رعاياه، إنكم جميعاً تخليتم عن جاموكا، وحرصتم على الانحياز إلى جانبي، فأنتم جميعاً يا أصدقائي القدامى، خير رفاق لي في المستقبل[2].

وقام جنكيز خان بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قبلت به وكان أول من راسلهم طغرل[3] خان صديق والده بالأُخوة و«جاموكا» صديقه بالأخوة، كان جواب الأول الموافقة والتأييد، وجواب الثاني الاستهزاء والغضب، حسداً لجنكيز خان وغيرة منه بعد أن أصبح جنكيز خان أميراً.

وزادت قوته، وأخذ خصومه ينصبون له العداء حسداً له، فلم ينتقل «جنكيز خان» إلا بأسلوب القتال، فعندما ينتقل بعشيرته من مراعيها الصيفية إلى مراعيها الشتوية يتخذ

---

(1) المغول، للعريني، ص: 49.

(2) المغول، للعريني، ص: 39.

(3) كان من عادة أشراف المغول أن ينتخب أحدهم صديقاً له يؤاخيه وكانوا يطلقون على هذا الأخ اسم «آندا» ومعنى هذه الأخوة أن يصبح الاثنان كشخص واحد ويضحي أحدهما بحياته في سبيل الآخر.

تشكيل القتال، فيقسم قوته إلى أقسام أربعة: المقدمة، المجنبة، والمؤخرة، وفي وسطهم تسير الماشية وعربات العائلات[1].

أ ـ معركة العجلات: في إحدى المرات، وبعد مسيرة طويلة بالطريقة الآنفة الذكر، أخبرت الكشافة التي أمام المقدمة بوجود غبار كثيف في الأفق ينحدر بسرعة وإذا بقبيلة «تيدجون» المؤلفة من ثلاثين ألف يقودهم «تارجو تاي» قرر «جنكيز خان» القتال فوراً وكانت قوات «جنكيز خان» المحاربة تتألف من الخيالة فقط، وهي على نوعين:

ـ **الخيالة الثقيلة:** يرتدي رجالها الدروع الحديدية والخوذ الفولاذية وخيولهم مكسية بوشاح من الجلد المدبوغ السميك، وكان سلاحهم الرماح وترساً صغيرة، يتقون بها ضربات الأعداء.

ـ **الخيالة الخفيفة:** يكسو رجالها وخيولها دروع من الجلد المدبوغ فقط، وكانت خيول هذا الصنف من الضامرات خيول السباق، وكان سلاحهم القسي والنبال. وكان تسليح العدو وتجهيزاته شبيهة بما لدى جنكيز خان.

قسم جنكيز خان رجاله إلى سرايا، وكل سرية من ألف محارب، منظمين بعشرة صفوف، في كل صف مائة محارب، أما (تارجو تاي) فقد تقدم بسراياه وكل سرية تتألف من خمسمائة محارب منظمين بخمسة صفوف، في كل صف مائة محارب، وكان الصفان الأولان من الخيالة الثقيلة، والصفوف الثلاثة الأخيرة من الخيالة الخفيفة[2].

أسند «جنكيز خان» جناحه الأيمن إلى غابة كثيفة كانت في ميدان القتال، وجمع جميع العجلات التي تركبها نساؤهم وتحمل أمتعتهم، وشكل منهم مربعاً كبيراً، أسند إليه في جناحه الأيسر ووضع النساء والأطفال في العجلات، تاركاً أمر حراستهم لصبيان القبيلة، بعد أن سلحهم بالقسي والنبال، ووضع الخيالة الخفيفة في الأمام، عكس عدوه وجعل الخيالة الثقيلة في الخلف[3].

هجمت خيالة «تارجو تاي» الثقيلة على خيالة «جنكيز خان» الخفيفة فاستقبلتها هذه برشقات هائلة من سهامها، وأوقعت فيها الهلاك والدمار ولم تنجح هذه الخيالة في اختراق صفوف «جنكيز خان» لأن عمقها كان عشرة صفوف، ففشل هجومها وحاولت

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين، ص: 39.

(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 40.

(3) المصدر نفسه، ص: 41.

الخيالة الخفيفة إصلاح هذا الفشل، فتغلغلت بين صفوف الخيالة الثقيلة المعادية المتقدمة المكدسة أشلاؤها على الأرض، عندئذ أطلق «جنكيز خان» خيالته الثقيلة لمقابلتها، ففعل الرمح والسهم فعله في هذه الصفوف وكانت هزيمة الأعداء، لقد سميت هذه المعركة بمعركة العجلات[1]. وكانت هذه المعركة قاسية، دامت طيلة النهار، حتى حلول الظلام، انتصر فيها «جنكيز خان» وكان هذا الانتصار الأول له، وأصاب عدوه (5 ـ 6) آلاف قتيل، واقتيد إليه (70) رئيساً بسلاسل سيوفهم، وألقوا عند قدميه، وسيوفهم وكنانهم معلقة في رقابهم، ويذكر أن «جنكيز خان» أمر بقتل هؤلاء الـ 70 قتلة غريبة، وذلك بغليهم في القدور أحياء[2]. فافتتح بذلك إثارة الخوف والرعب في نفوس الخصوم، وصار ذلك من لوازم حكومته وترتب على هذا الصدام أن انصاعت لأوامر جنكيز خان القبائل التي تحالفت عليه[3].

ب ـ **صراع التحالفات:** اقتضت مصلحة «جنكيز خان» أن يتحالف مع طغرل خان وذلك للقضاء على التتار أعداء الاثنين، فنجح الاثنان في حربهما مع التتار وقضيا عليهم ولا سيما قبيلة المركيت، وجانب من قبائل النايمان والمعروف أن النايمان أضعفهم ما وقع من نزاع بين ملكهم «تايانك خان» وأخيه «بويوروف» الذي تعرض لهجوم جنكيز خان وطغرل وساعد على ذلك ما وقع من أحداث في منغوليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، أثارتها سياسة الحكومة الصينية فضلاً عن عوامل محلية، إذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية السياسة التي درجت عليها أسرات صينية عديدة وهي سياسة الإيقاع بين القبائل وبين الزعماء، وحرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له، وفي (سنة 1194م) تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء، وعلى سبيل المكافأة حظي ملك الكرايت بلقب «وانج»، وظفر ابنه بترقية في سلك الجيش، بأن صار «سنجون»، وحاز جنكيز خان أيضاً لقباً من ألقاب التشريف، غير أنه لم يضارع في الرفعة الألقاب الأخرى، على أن القبائل التي أحست بالتهديد من جانب جنكيز خان، ألفت حلفاً، دخل فيه قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيوت والقنقرات والتتار، ومن ملوكهم «توكتا» ملك المركيت و«جاموكا» ملك الجاسيرات، واتفق هؤلاء الحلفاء على أن يختاروا جاموكا كروخان إمبراطور على القبائل التركية

(1) سميت بذلك لأن جنكيز خان استخدم العجلات لحماية جناحه الأيسر المكشوف.
(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 41.
(3) المغول، للعريني، ص: 50.

المغولية وذلك سنة 1201م، ولم يلبث الجيش الذي حشده جاموكا أن انهزم وتبدد سنة 1201 ـ 1202م، غير أن جاموكا نجح فيما بعد في اكتساب ثقة سنجون ووالده طغرل خان، وفي تحولهما عن حليفهما السابق جنكيز خان[1].

جـ ـ حرب جنكيز خان مع ملك كرايت: في (سنة 599هـ/ 1203م) كان المسيطر على قبائل الترك المشارقة (وانج خان) من قبيلة كرايت أو كريت أو القاريات التي تدين بالنصرانية، وكان جنكيز خان من غير قبيلته، ولكنه مؤيد له وملازم له منذ الطفولة، لم يرق انتصار جنكيز خان في عيون رؤساء قبائل الكرايت حلفائه فأضمروا له الشر سراً ووشوا عنه إلى وانج خان حتى اتهمه الأخير بالخيانة، وهم باعتقاله، وأرادوا قتله بزعامة «توكتابك بن طغرل بك»، و(جاموكا) عدو جنكيز خان اللدود. وفي مساء أحد الأيام، بينما كان جنكيز خان مع ستة آلاف من محاربيه تصحبهم العائلات معسكراً في أحد المناطق، أخبرته دورياته بأن قبائل الكرايت تتجمع، وتقترب من معسكرهم دلالة على عزمهم الهجوم ليلاً على المعسكر، وقرر جنكيز خان التملص من عدوه لأنه ضعيف تجاه خصمه من ناحيتي القوة والسرعة، لأن العائلات برفقته، تركب العجلات التي تسحبها الثيران، والعجلات التي تجرها الجمال، في هذا الوقت، انضم إلى جنكيز خان غلامان من خدم وانج خان، فأعلماه بالقضية وأن وانج خان يريد القبض عليه[2].

وضع جنكيز خان خُطَّته وطلب من قادته تنفيذها حرفياً بكلِّ دقة وهُدُوء وانتظام وكانت خطته:

أ ـ سحب الماشية والعائلات على أن تركب عجلات الجرِّ الخفيفة التي تجرُّها الجمال، وتسير إلى موضع مستور إلى خلف منطقة المعسكر بـ 12 كم.

ب ـ ترك الخيام منصوبة، والنار مضرمة فيها، والعجلات بثيرانها، كما لو كان المعسكر آهلاً.

ج ـ قيام «جنكيز خان» وجماعة بستر انسحاب الماشية والعائلات في صباح اليوم التَّالي، انحدرت قبائل الكرايت إلى معسكر جنكيز خان ولما رأوا المعسكر خالياً وأدواته فيه، اعتقدوا بأن جنكيز خان قد فرَّ برجاله وعائلاته خوفاً وفزعاً، ما جعلهم يتباطؤون في تعقبهم، كان جنكيز خان مُتخفياً مع رجاله وراء أرض مرتفعة، يفصلها عن أعدائه، نهر صغير، تاركاً أمر مراقبة الجبهة للخفراء، ولمَّا تقدَّمت خيَّالة «الكرايت»

---

(1) المغول، للعريني، ص: 51.

(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 42.

الخفيفة منها تسبق الثقيلة، انقض «جنكيز خان» وجماعته ـ فجأة ـ عليهم وقتلوا جميع مقدّمة العدوّ، وأبادوهم دون أن يكون للقسم الأكبر علم بذلك. وبعد مدة ظهر وانج خان وقادته يقودون القسم الأكبر من قوّاته وهكذا فقد دنت ساعة المعركة الحاسمة فوضع جنكيز خان خطّته كالآتي:

أ ـ الهجوم على أعدائه قبل مهاجمتهم له.

ب ـ عدم القيام بهجوم جبهوي، لأنَّ أعداءه أقوى منه.

ج ـ الاستفادة من الأرض جهد الإمكان، لتلافي نقص العدد في هذه الأثناء. هجمت خيّالة العدوّ وأربكت «جنكيز خان» حيث استدعى أشجع قادته، وحامل لواء القبيلة(جلدار)، وكلّفه بإحاطة جناح العدوّ الأيسر واحتلال تلّ«جويتا» الكائن خلف هذا الجناح، ونجح جلدار بحركته، مما أجبر قوّة الكرايت على الانسحاب قليلاً، بينما كانوا في أوج هجومهم واستمر القتال حتى حلول الظلام، حيث قام جنكيز خان بهجوم عنيف ستر به انسحاب جلدار تحت جنح الظلام وانسحب «جنكيز خان» برجاله شرقاً، لعلمه بأنه لا يستطيع منازلة أعدائه صباح اليوم التّالي وهو بقوته هذه وبعد انسحاب جنكيز خان انقسمت جُوبي إلى معسكرين متنافسين:

أ ـ معسكر «وانج خان» ومن انضمّ إليه بعد انتصاره على جنكيز خان.

ب ـ معسكر جنكيز خان ومن توافد إليه لإسناده. وقرّر جنكيز خان إبادة خصمه، فجهّز حملة قوية، وتقدّم نحو معسكر وانج خان دون سابق إنذار، ولكي يتأكد من عدوّه استخدم «الرّتل الخامس» فأرسل أحد قادته المشهورين بصفة لاجئ، حاملاً معه أحد أعلام «جنكيز خان» لكي يتظاهر بأنه جاء لاجئاً، هَرَباً من سوء معاملة جنكيز خان له ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر وانج خان لم يقتنع الأخير بادّعاء الرّسول، فأراد التأكد من صحة المعلومات فأرسل معه عدداً من رجال خيالته لاستطلاع المنطقة من على قمم مشرفة بالقرب من معسكر وانج خان وعلى تل مشرف بجواره، أراد رسول جنكيز خان أن يعطي إشارة لسيده تدله على معسكر الأعداء ولما لم يتمكن من ذلك، ابتكر حيلة وطبقها بسرعة وهي: ركز علم جنكيز خان الذي استصحبه معه على قمة التل، ثم ترجل عن جواده، ماسكاً حافر حصانه بيده، ولما سئل عما يفعل، أجاب: أنه وجد حجراً في حافر حصانه، وقبل أن ينتهي هذا الرسول من رفع الحجر الموهوم من حافر حصانه كانت مقدمة جنكيز خان قد أطبقت على رجال وانج خان وأسرتهم،

ولم يعد رسل وانج خان[1] بنتيجة استطلاعه، بل جاءت خيول جنكيز خان على حين غرة، فأعملت السيوف في رقاب رجاله[2].

جرح وانج خان وابنه توكتا بك، وفرا هاربين، ونهبت العشيرة وسبي النساء ووقع جاموكا بيد جنكيز خان، فأمر بخنقه بخيوط من الحرير[3]، وقطعت أوصاله وأعضاء جسمه[4]، كما قتل وانج خان وابنه بعد فرارهما من قبل أتباعهما وأرسل رأس الأب بصفيحة من فضة هدية إلى جنكيز خان[5]، وبذلك انقرضت قبيلة القاربات، وأخذت القبائل الضعيفة منها والقوية على اختلاف أديانها تعرض الطاعة والإخلاص لسيد آسيا الجديد، جالبة معها كل ما لديها من آثار المدينة وخلاصة العلوم، وبعد هذا أنعم جنكيز خان على الغلامين اللذين أعلماه بهجوم وانج خان وذريتهم، فجعلهم (ترخانية) - أي أحرار - لا يكلفون بشيء من الحقوق السلطانية، وما يغنمونه من الغزوات تكون لهم بالكامل، ولا يأخذ منهما أي شيء للملك، كما أعطاهم الحق لدخولهم إلى الملوك بدون إذن، وعدم معاقبتهم على أي ذنب إلى تسعة ذنوب[6].

ومن الذين وقعوا في أسر جنكيز خان تاتأنجو، وهو من الأويغوريين وكان يعمل كاتباً لملك النايمان، فأدخله جنكيز خان في خدمته، وقرر استخدام الأويغورية، وتولى هذا الرجل تعليم هذه اللغة وكتابتها لأبناء جنكيز خان وأبناء الطبقة الراقية من المغول، وكان لهم نفوذ قوي على أكوتاي بن جنكيز خان وخليفته في الحكم[7].

ثالثاً: مملكتا النيمان وخضوعهما تحت سيطرة جنكيز خان:

كان النيمانيون يمثلون إحدى القوى الكبرى التي جابهت المغول في ظهورهم وبروزهم كقوة عالمية ذات إمبراطورية شملت معظم أراضي قارة آسيا وأجزاء كبيرة من أوروبا، والنيمان يرجعون في أصلهم إلى العنصر التركي، وقد كانت أراضي (النيمان)

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45.
(2) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45
(3) المغول، للعريني، ص: 52.
(4) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 45.
(5) المصدر نفسه، ص: 45.
(6) المصدر نفسه، ص: 45.
(7) المغول، للعريني، ص: 53.

قديماً تعد ضمن الحدود التقريبية التالية، حيث يحدها من الشمال أراضي قبائل (القرقيز)، كما تحدها من الجنوب ممتلكات قبائل (الأويغوريين)، أما حدودها من الشرق ملاصقة لأراضي قبائل (كرايت) و(المركيت)، أما من الناحية الغربية، فيحدها (القراخطائيون)، وكان ملوكهم أو خاناتهم يسمون (كوتشلوك خان)، وهي كلمة تعني العظيم، الجبار، القوي... إلخ، كما يخبرنا بذلك رشيد الدين، وأما طريقة حياتهم ونظام مجتمعهم، وعاداتهم وتقاليدهم فقد كانت شبيهة من المجتمعات المجاورة لها، كالمغول وغيرهم من القبائل البدوية الرعوية الأخرى[1].

وقد كانت دولة (النيمان) من أكبر الدول في وسط آسيا وذا سلطان واسع ويحكمها ملك واحد، إلا أنه في الوقت الذي ظهر فيه جنكيز خان، على رأس قبائل المغول، نجد أن المملكة النيمانية مقسمة إلى قسمين، شرقي وغربي، ويحكمها أخوين كل واحد مستقل عن الثاني، فكان (بويرون خان) يحكم مملكتهم الغربية، و(بييوقاتايانك) يحكم المملكة الشرقية، ونظراً لمتاخمة الحدود الشرقية لمملكة (النيمان) الشرقي لحدود (كرايت) و(المركيت)، فقد كان من نتائج كارثة معركة (وركو) وقتل (أونك خان) أن أصبحت الأراضي (النيمانية) مفتوحة على مصراعيها أمام اللاجئين من قبيلة كرايت الهاربة من سيف جنكيز خان، فنتج عن ذلك تجدد الصراع بين جنكيز خان من ناحية وملكي (النيمان) الأخوين من ناحية أخرى، فقد انتهى ذلك الصراع الدامي المرير بزوال الدولتين (النيمانيتين) والقضاء بصورة نهائية على استقلالهما كقوتين مستقلتين في وسط قارة آسيا، فقد قتل الأخوين على التوالي، وامتصت إمبراطورية جنكيز خان الشابة الناهضة المملكتين والتهمت أراضيهما لتصبح جزءاً لا يتجزأ من أراضي دولة المغول.

وفي (عام 602هـ) لشهر رجب، (سنة 1206م فبراير ـ مارس)، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً، واجتماعاً عمومياً، حيث تم تنصيبه كخان أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا وما جاورها في البلدان، وفي هذا الاجتماع، أعلن جنكيز خان عن خطة جديدة لفتوحاته وقرر الخروج خارج نطاق منغوليا، ونشر في هذا الاجتماع قوانينه المشهورة في التاريخ، المعروفة بالياسا[2].

---

(1) سقوط الدولة العباسية للقحطاني، ص: 73.

(2) سقوط الدولة العباسية للقحطاني، ص: 76.

رابعاً: بناء الإمبراطورية المغولية:

لم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك، فكان عليه لتحقيق مشروعه الطموح، أن يتحرك في جميع الاتجاهات، وأن يواجهه خصوصاً متعددي الجنسيات والثقافات، وتحرك جنكيز خان لتحقيق أهدافه وفق سير العمليات العسكرية المركزة والشديدة التعقيد، وذلك حسب ما يلي:

1 ـ الجبهة الصينية:

ـ العمليات العسكرية ضد بلاد الصين الشمالية:

أ ـ مملكة التانغوت:

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت، أو مملكة سي ـ هيا، في التبت وهي أضعف الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، فباستيلائه على هذه المملكة يستطيع أن يتحكم بطريق الصين إلى تركستان ويحاصر من جهة الغرب مملكة كين، العدو التقليدي للمغول.

قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت في السنوات (602هـ/ 1205م)، (604هـ/ 1207م)، (606هـ/ 1209م) فاكتسح جميع أراضيها ولكنه لم يفلح في دخول عاصمتها ننج ـ هسيا التي حاصرها طويلاً، ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن وافق عاهلها على القبول بالسيادة المغولية على أراضيه (عام 606هـ/ 1209م)، ودفع الجزية لجنكيز خان[1]، وبذلك أصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهوب أوردوس وألدشان التي كانت تعتبر منطقة حدودية مع الصين، فكان على القائد المغولي، إذا ما أراد أن يتخذ لنفسه موطئ قدم في أراضي الصين أن يهاجم مملكة كين التي كانت تتبع لها بعض طوائف الترك والمغول[2].

ب ـ مملكة كين «مملكة الذهب»:

واجهت جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، صعوبات لم يصادفها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وتتمثل تلك الصعوبات بالتحصينات المنيعة، وحروب

(1) جنكيز خان قاهر العالم، ص: 238، حروب المغول، د. حطيط، ص: 21.

(2) حروب المغول، د. حطيط، ص: 21.

الحصار التي لم يكن جيشه قد اعتاد عليها بعد، إضافة إلى وجود سور الصين العظيم، وحصونه الممتدة من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمراً لحماية مملكة الذهب، وتوجهت أنظار جنكيز خان أولاً إلى التحالف مع قبائل الأنغوت المقيمة شمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً،ونجح في إقامة حلف مع ملكها، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يعتبر، نظراً لموقع مملكته الإستراتيجي، والمعاهدات المعقودة بينه وبين ملك كين، حارساً للحدود الصينية، ومراقباً أميناً فيما وراء السور العظيم ولهذا، فعندما حالف جنكيز خان مملكة الأنغوت، بدا وكأنه فكك وسائل دفاع مملكة كين، دون أدنى جهد ممكن، وأوصل حدود إمبراطوريته إلى الخطوط الأمامية من مواقع الخصوم[1].

وكان جنكيز خان لديه بدائل متعددة لتحقيق أهدافه، فإذا عجز عن تحقيقها بالقوة فالحل بالسياسة والحيلة والرأي. وفي (عام 607هـ/ 1211م)، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، وبطبيعة الحال لم يجد جنكيز خان صعوبات تذكر في اختراق دفاعات الأتراك والأنغوت المتحالفة معه (كما أسلفنا)، ووصل جيشه إلى شمال الصين، وخرب البلاد التي اجتاحها، من دون أن ينجح في الاستيلاء على مدنها الرئيسة، فقد كان ينقصه المهارات الهندسية لذلك، كما وقف جيشه طويلاً وهو ينتظر أمام قلاع سور الصين ومضى عاما (608هـ/ 609هـ،/ 1211م / 1212م)، ولم يستول جنكيز خان سوى على مراكز قليلة الأهمية، لكون تلك البلاد صعبة التضاريس، وتتخللها سلاسل جبلية متداخلة، ويمر سور الصين خلالها، من خليج بتشيلي إلى النهر الأصفر، ثم إلى الشمال من بكين وتاتونج، عند شمال شان سي، فاكتفى القائد المغولي بإحراز بعض الانتصارات غير الحاسمة، كما حصل (عام 607هـ / شباط ـ آذار 1213م) في معركة جبل يي ـ هو الواقع بين بكين وكالجان. وتحين جنكيز خان الفرصة السانحة، في ربيع الأول (608هـ / 1212م) عندما ثار أحد أمراء الخطاي[2] الخاضعين لسيادة كين، وأعلن تأييده للفاتح المغولي، فأسرع الأخير إلى دعم الأمير الثائر وأرسل أحد أعوانه القائد «جيبي» إلى إقليم لياو ـ يانج جنوب منشوريا، لكن القوة المغولية انهزمت أمام أسوار مدينة لياو ـ يانج، فتراجع جيبي

(1) جنكيز خان قاهر العالم، ص: 240، حروب المغول، ص: 240.

(2) الخطاي: قبيلة من أصل مغولي، سيطرت على بكين مدة قرنين من الزمن قبل أن تخضع لملوك باكين، وقد تحينت هذه القبائل فرصة قدوم أنسابهم المغول للانتقام من ملوك كين.

إلى منطقة مجاورة ليعيد تنظيم قواته، ثم باغت المدينة واحتلها وأعلن يي ـ لو ـ ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية[1]. وفي عام (610هـ/ 1123م)، توجه جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان ـ بكين الإستراتيجي، فاستولى على هسوان ـ هوا، وهي أول مدينة حصينة على هذا الطريق وسقطت بيده، تباعاً، باور ـ آن، وهواي ـ لاي، ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان «نان ـ كو» المظلم، جنوب غربي هواي ـ لاي، الذي تتحكم فيه حصون منيعة تسيطر على المنطقة التي ينحدر منها السور العظيم نحو بكين، ثم وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان ـ كنج، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية، وفي المنطقة الشمالية الشرقية استولى على قلعة كويبي ـ كو التي تتحكم بالممر الرئيس ما بين جيهول «شانغ ـ تي» وبكين في الشمال الغربي للبلاد، استولت قواته على تا ـ تونغ المعقل الهام الذي يقع بين خطي سور الصين، ويسيطر على إقليم شان ـ سي. انتهز جنكيز خان حالة الفوضى الناتجة عن قيام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب وي ـ شاو، في ربيع الآخر (610هـ/آب/أيلول 1213م)، وقام بهجوم واسع على وسط مملكة كين من ثلاثة محاور.

ـ قاد بنفسه الجيش الأوسط ومعه ابنه تولوي «تولي» وزحف من السهل العظيم، سهل الصين الشرقي إلى وسط الصين، متجنباً الهجوم على بكين بعد أن وضع قوات قبالتها، ثم انعطف إلى الجنوب، فنهب المدن تباعاً، بدءاً من باو ـ تونج جنوباً حتى بكين شمالاً، ومن بكين قطع جنكيز خان مسافة جاوزت 300 ميل من الشمال إلى الجنوب ولم يتوقف إلا عند وصوله إلى هو ـ باي، على النهر الأصفر حيث لم تستطع خيوله عبور النهر لغزارة مياهه وسرعة جريانه وبعد ذلك توجه جنكيز خان إلى المنطقة الجنوبية الشرقية ووصل إلى سهل شانتونج الخصيب، واحتل مدينة تسي ـ تان ثم انتقل إلى مرتفعات تاي ـ شان وسار نحو الشرق وسيطر على مدينة لان ـ شان على الجانب الأقصى لحدود إقليم شانتونج، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى[2]، باستثناء بعض الحصون المنيعة التي عجز عن اقتحامها، ثم رجع عن سور الصين العظيم، بعد أن نهب سهل الصين الشرقي[3].

(1) حروب المغول، د. أحمد حطيط، ص: 36.

(2) المصدر نفسه، ص: 36.

(3) المصدر نفسه، ص: 26.

ـ أما الجناح الأيمن من الجيش، الذي قاده جوجي وجغتاي وأوكتاي، أولاد جنكيز خان، فسار إلى القطاع الغربي من هو ـ باي عن طريق بوا ـ تنبح وشانتو، واقترب من هواي ـ كنج في مقاطعة هانون، شمال النهر الأصفر، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي ـ هانج وصعد بعدها إلى إقليم شان ـ سي، ثم توجه عبر حوض نهر «فن» الذي يقسم الإقليم المذكور إلى قسمين في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتيه «فن» وفي جواره وهي مدن: باي ـ بانج، فن ـ تشي، وهسن ـ تشو، كما استولى على مدينة تاي ـ يوان، حاضرة إقليم شان سي، ثم رجع إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي تشو وتاتونج.

ـ أما الجيش الثالث الذي قاده قاسار أخو جنكيز خان فسار بمحاذاة بكين متبعاً الطريق الساحلية شمالاً وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول «شانغ تي» ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا، في إقليم نهري نوتي وسنجاري وصولاً إلى نهر آمور وفي عام (611هـ، 1214م) انتهز جنكيز خان فرصة مبادرة إمبراطور الصين إلى عرض الصلح على أن يضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين سواء كانت داخل سور الصين أم خارجه، فأعلن جنكيز خان موافقته على طلب الإمبراطور وما إن اجتاز القائد المغولي سور الصين، في طريق عودته إلى منغوليا، من ممر تشو ـ يونج ـ كوان، حتى عدل الإمبراطور عن فكرة الصلح وشرع في تحصين قلاعه وحصونه، ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة كاي فونج، في جنوبي البلاد، لتكون أقرب إلى ساحة القتال تاركاً بكين في عهدة ولده، فما كان من جنكيز خان إلا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعاً إلى الصين واشتبك مع الجيش الصيني في معركة فاصلة سقطت على أثرها بكين في أيدي المغول (عام 612هـ/ 1215م)[1].

خامساً: مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان:

كان جنكيز خان يتحرك من خلال مشروع يخدم أهداف المغول في التوسع والسيطرة والنفوذ والهيمنة على قيادة العالم آنذاك، وقد لاحظت في دراستي أهم مقومات المشروع المغولي والتي منها:

(1) حروب المغول، ص: 28.

* **شخصية جنكيز خان:** كانت شخصية جنكيز خان قيادية من الطراز الأول سمحت له بالتغلب العسكري على كل من وقف في وجهه من دول العالم وشعوبه في القرن الميلادي الثالث عشر، وقد أقام من نفسه حاكماً على نصف العالم المعروف في ذلك الزمن، وأثار لدى البشر خوفاً رهيباً استمر قائماً في أعماق النفوس أجيالاً عديدة، كان اسمه تيموجين، أي الرجل الفولاذي، ويعرفه التاريخ باسم جنكيز خان وكان هذا القائد المغولي نابغة في:

- التنظيم وبناء الجيش.
- الإستراتيجية.
- التكتيك.
- التخطيط.
- معرفة الرجال.
- اختيار الأعوان.
- اكتشاف نقاط الضعف لدى الآخرين وتسخيرها لصالحه.

وهذه المميزات كلها هامة للعسكريين والمدنيين على سواء، والعاقل من يسعى إلى المعرفة مهما يكن مصدرها، لأن المعرفة قوة، ولأنها نبراس يبدد ظلام الجهل والارتجال[1]، ويهدي إلى معرفة الحقائق وأسرار التاريخ، وقيام الدول، وتوسع الحضارات.

كان هذا الزعيم المغولي طويل القوام، متين البنية، قوي البدن أصلع الرأس باستثناء بعض الشعر الرمادي اللون، وعيناه كعيني الهر وكان لا يتكلم غير المغولية بالإضافة إلى عبارات صينية. وفي حياته الخاصة، كما في حياته العامة، فإنه نادراً ما كان يتطرف في تصرفاته الخاصة ولذلك احتفظ بنشاطه العقلي والبدني، حتى النهاية، ويذكر الباحثون بأنه لم ينغمس قط في التطرف الجنسي وكانت المتع المفضلة لدى جنكيز خان لعبة البولو ورحلات الصيد، وكان في كليهما مبدعاً ولم يكن غريباً عن ملذات الخمرة، ويشترك في هذه المتعة مع جميع بني قومه، ولكن على عكس ابنه وخليفته أوغوداي، فإنه لم يسمح للشراب بأن يكون متسلطاً عليه، وكان يعبر عن رأيه

(1) جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا، ص: 23.

في هذه العادة بقوله: إذا المرء لم يستطع الامتناع عن الخمرة، فليكتف بالشرب ثلاث مرات في الشهر، وإن هو فعل أكثر من ذلك فإنه يرتكب جريمة بحق نفسه، وإذا شرب مرتين في الشهر فذلك أفضل، وإذا شرب مرة واحدة في الشهر فذلك أعظم فضلاً، وإذا لم يشرب المرء خمراً بالمرة فذلك يكون عملاً عظيماً يستحق الثناء والتقدير[1].

1 ـ **شجاعته:** كان يتمتع بشجاعة فائقة ويقدر الشجاعة لدى الأصدقاء والأعداء على السواء، وقد شق طريقه إلى السلطة بالعمل ضد أناس كانوا على شجاعة خارقة، ومن الأمثلة على إعجابه بالشجاعة أنه في نهاية المعركة التي انتصر فيها على السلطان الخوارزمي جلال الدين، عند نهر السند عام (1221م): قد بلغ إعجابه بشجاعة خصمه الشاب، رغم ما اعتراه من أسف لفراره بالقفز مع جواده إلى النهر إلى حد حمله على أن يهتف قائلاً: كمثل هذا يجب أن تلد النساء. وقد اعتبر جلال الدين صنواً له في الشجاعة والإقدام[2]، وسأله (بالاخراجا) يوماً وكان قائداً أسيراً لديه قائلاً له: إنهم يدعونك بطلاً عظيم القدرة فما هو دليلك على ذلك؟ فأجاب جنكيز خان: في صباي، كنت يوماً أسير على جوادي وحيداً في الفلاة وقد اعترضني ستة رجال كانوا يكمنون لقتلي عند مخاضة وقد هاجمتهم بسيفي تحت وابل سهامهم، وقتلتهم جميعاً، وتابعت طريقي دون أن أصاب بأذى، وقد مررت بطريق عودتي، بالمكان الذي قتلت فيه أولئك الأعداء فوجدت خيولهم طليقة ومن لا يعتني بها، فاستوليت عليها. قص جنكيز خان هذه الحادثة كجواب على سؤال (بالاخراجا) وكدليل على شجاعته وبأسه، والأهم من ذلك أنه كان يؤكد بهذه القصة اعتقاده بأنه يتمتع بحماية سماوية: لقد قررت السماء ـ على حد قولهم ـ أنه لن يموت قتلاً وقد قتل جميع أعدائه واستولى على خيولهم[3].

2 ـ **السخاء والكرم:** كان سخياً في مكافأة ضباطه لكل عمل يظهرون فيه شجاعة فائقة، وكان معروفاً بالجود والكرم، ومما ذكره الجويني عنه في هذا الخلق، أنه قدم له بعض الفلاحين بالصين ثلاث بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحد من الخزاندرية فقال لزوجته «خاتون»: أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك، وكان فيهما

---

(1) جنكيز خان، ص: 26.
(2) المصدر نفسه، ص: 27.
(3) المصدر نفسه، ص: 27.

جوهرتان نفيستان جداً فشحت المرأة بهما وقالت: انظر إلى غيره، فإن هذا لا يدري ما هما، فقال: ادفعيهما إليه فإنهما لا يبيتان هذه الليلة إلا عندك، وهذا الرجل لا يمكننا أن ندعه يذهب عنا مقلقل الخاطر وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أن أحداً إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك. فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح، فطار عقله بهما، وذهب بهما فباعهما لبعض التجار بألف دينار، ولم يعرف قيمتها فحملها التاجر إلى الملك فردهما على زوجته[1].

واجتاز يوماً في سوق، فرأى عند بقال عناباً فأعجبه لونه، ومالت نفسه إليه فأمر الحاجب أن يشتري منه ببالس، فاشترى الحاجب منه بربع بالس، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ فقال: وبقي منه هذا وأشار إلى ما بقي معه من مال، فغضب وقال: متى يجد من يشتري منه مثلي، تمموا له عشرة بوالس[2]. وأهدى له إنسان رمانة فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، ثم أمر له بعدد حبها بوالس وأنشد الجويني عند ذكر هذه الحادثة:

فلذلك تزدحم الوفود ببابه مثل ازدحام الحب والرمان

3 ـ **غيرته:** كان مفرطاً في الغيرة على كل شيء يعتبره ملكاً له، فبعد احتلال مدينة جورخند، عام 1221م، تقاسم أولاده: جوشي، وجغطاي وأوغوداي، جميع الغنائم والأسلاب بينهم، دون أن يرفعوا منها شيئاً كحصة لأبيهم، وعند عودتهم إلى المقر الإمبراطوري وجدوا أباهم في حالة الغضب الشديد واستحال عليهم أن يقابلوه، وفي آخر الأمر رأى الأوخونات: موخالي، ويوركوجي، وشيكي أن عليهم أن يتدخلوا في الأمر، فذهبوا إلى مقابلة جنكيز خان يعاتبونه على موقفه قائلين: لقد غلبنا الخوارزميين، أولادك وكل ما في المدينة ملك يديك، وقد انتصرنا في هذه الحرب بمعونة السماء والأرض، ونحن ضباطك، مفعمون فرحاً واغتباطاً، لماذا أنت غاضب على هذه الصورة؟، لقد اعترف أولادك بخطئهم وهم خائفون، لقد أعطوا إنذاراً للمستقبل، اسمح لهم الآن أن يمثلوا في حضرتك. خف غضب جنكيز خان بعد هذه الكلمات، ووافق على استقبال أولاده، إلا أن غضبه عاوده للحال عند رؤيتهم، وأخذت أجساد الأمراء الثلاثة تتصبب عرقاً وعندئذ بادر ثلاثة أفراد من الحرس الخاص

(1) البداية والنهاية (17/ 167).
(2) المصدر نفسه (17/ 167).

بالتوسط بدورهم قائلين: أولادك هم كصقور ولم يتلقوا غير أول تدريبهم، إنهم يخوضون أول حروبهم، فإذا أنت ثابرت على معاملتهم على هذا النحو، فقد تتحول عواطفهم عنك في المستقبل، هناك أعداء من مشرق الشمس إلى مغربها، فأرسلنا ضدهم وسنقاتلهم كالكلاب التيبيتية، وإذا ساعدتنا السماء وانتصرنا، فسوف نأتيك بكل ما يملكون من ذهب وفضة وحرير، وفي الغرب هناك خليفة بغداد، فأرسلنا ضده، وكان أن زال غضب جنكيز خان وعفا عن الأمراء(1).

4 ـ **قسوته وفظاعته:** ارتكب جنكيز خان فظائع رهيبة ومذابح عديدة مريعة تقشعر لذكرها الأبدان، وهذه الأعمال الوحشية لم تكن غريبة على المجتمع المغولي في ذلك العصر وفي (البيليك) ـ أي الأقوال المأثورة عن جنكيز خان ـ ما يلقي الضوء على هذه الناحية من مسلكه، فقد جاء فيها عن لسانه: إن أعظم مسرة للمرء هي هزيمة أعدائه، طردهم أمامه، الاستيلاء على كل ما يملكون، رؤية أعزائهم يبكون، امتطاء خيولهم، ضم نسائهم وبناتهم بين ذراعيه. وكان جنكيز خان بمثل هذه الأحاسيس، يعبر عن مشاعر بني قومه وعادات عصره وبيئته(2).

5 ـ **إخلاصه لأصدقائه:** كان صديقاً مخلصاً لكل أولئك الذين كانوا يخلصون في خدمته، ولنا في معاملته لضباطه أحسن مثال على ذلك، وكان يمدهم بالنصائح القيمة، ومن الأمثلة على ذلك: وصيته لسوبوداي، عندما أرسله ضد المركيت عام 1216م والتي جاء فيها: سيكون عليك، لبلوغ هدفك، أن تسير عبر مضائق جبلية عالية وأنهار كثيرة، وكلما طالت الطريق كلما دعت الحاجة إلى مداراة خيالتك والاقتصاد في مؤونتك حتى لا ترهق خيلك قبل أن تدرك العدو، وعليك أن تنتبه دائماً لكي لا يتسبب اللجام أو الحزام تحت الذيل بجرح مطاياك، وإذا خالفك أحد فابعث به إلي إذا كنت أعرفه وإلا فعاقبه بنفسك.

ولما كان ولده البكر جوشي موجوداً مع الجيش بصفة قائد أسمى فربما يكون جنكيز خان قد استهدفه بهذه الكلمات وخاصة ما كان منها متعلقاً بالصيد، لأن جوشي كان مغرماً به بصورة مفرطة، ولم يكن هناك أدنى شك بأن القائد الفعلي للحملة كان سوبوداي، القائد العظيم والجنرال الخبير المجرب. وكان جنكيز خان يشجع على النجاحات التي يحققها القادة ويهتف بها، ففي (عام 1223م)، أثنى علناً على سوبوداي للنتائج المذهلة للحملة التي قادها مع زميله جيبة ـ توفي (عام 1222) ـ منذ صيف عام

(1) جنكيز خان، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 28.

1220 إلى شتاء عام 1222 في غرب إيران، وجورجيا، والقوقاز، وروسيا الجنوبية، وبلغاريا الكبرى، ومما قاله علناً بهذه المناسبة: لقد نام سوبوداي على ترسه، وفاز في معارك دموية عنيفة، وعرض حياته لأعظم الأخطار والمهالك في سبيل عائلتنا، وإنا لراضون عنه أشد الرضى.

وبعد سنين من ذلك التاريخ نوه بموخالي ـ وهو جنرال عظيم أيضاً ـ على نفس الصورة لإنجازاته المدهشة في الصين[1]، وكان يتصرف بوعي كبير عند حصول ما لم يكن يتوقعه، كأن يمنى أحد جنرالاته بالهزيمة مثلاً، ومن ذلك أنه بعد أن تفقد ميدان القتال في وادي بيروان في أفغانستان، حيث مني ابنه بالتبني شيكي كوتوكو بهزيمة على يد السلطان الخوارزمي جلال الدين، فإنه لم يعمد إلى لوم أو تعديد للهفوات والأخطاء وإنما اكتفى فقط بانتقاد اختيار القائد لميدان المعركة، ثم وجه كلامه إلى من كان حوله قائلاً: إن من عادة شيكي كوتوكو أن ينتصر دائماً، ولم يسبق له أن ذاق مرارة الهزيمة وقسوتها، والآن، وبعد أن عانى من ذلك، فإنه سيكون أكثر حذراً واحتراساً. وحتى مخالفات الضباط، وهي تعاقب عادة بصرامة، فإنه يعالجها أحياناً برفق وتساهل، ومن ذلك أنه في (عام 1220م) عندما أرسل سوبوداي وجيبة وتوكوشار إلى مطاردة سلطان خوارزم فقد أمرهم جميعاً أن يسيروا خلال ممتلكات عاهل هرات أمير الملك دون الإساءة إلى أحد من السكان، وقد تقيد سوبوداي وجيبة بهذا الأمر، لكن توكوشار سمح لجنوده بنهب جزء من الإقليم، ولما بلغ جنكيز خان ذلك مال في بادئ الأمر إلى إعدام الجنرال المخالف، لكنه عاد فعدل عن ذلك بعد تفكير، واكتفى فقط بتوجيه لوم عنيف إلى توكوشار، وبعث إليه بضابط يشاركه في القيادة[2].

وهكذا بالثقة، والإقرار بالفضل، والتحرر من الغيرة والحسد اللذين أضرا كثيراً بالعلاقات بين الإسكندر المقدوني ونابليون بونابرت مع جنرالاتهما، وباستطاعته السيطرة على الغضب، اكتسب جنكيز خان لنفسه وعائلته وفاء لا حدود له، وولاءً مطلقاً من كل أولئك الذين عملوا معه، وكان هؤلاء جميعاً يتقيدون بعزم وتصميم، بتنفيذ أوامره وتعليماته، ونادراً ما فشلوا في تذليل الصعوبات والتغلب على الموانع والمشاق[3].

6 ـ معرفته للرجال وقيادته للقادة: تميز جنكيز خان بمعرفته الفائقة للرجال

---

(1) جنكيز خان، ص: 30.
(2) المصدر نفسه، ص: 31.
(3) المصدر نفسه، ص: 31.

وقدرته على قيادة القادة، ولذلك نبغ في الإمبراطورية المغولية، قادة عظام خاضوا حروباً كبيرة بتخطيطهم وعلى مسؤوليتهم الكلية، وكان هؤلاء القادة عندما يكونون برفقة جنكيز خان، فإنهم كانوا يساهمون إلى حد كبير ولاشك، بوضع الخطط وتنفيذها تحت إشرافه المباشر، وكانت جميع العمليات الرئيسة التي جرت في حياته تصدر عن قراراته ولذلك يعود له الفضل الأول في جميع انتصارات المغول المدوية التي جعلته على مثل تلك الشهرة من القيادة المتفوقة.

إذا راجعنا حروب الإمبراطورية المغولية، فمنذ (عام 1221م) إلى خريف (عام 1222م) عندما كان أعظم جنرالاته بعيداً عنه، موخالي في الصين، وسوبوداي وجيبة في روسيا في أوروبا الشرقي، فإن جنكيز خان لم يحتل خوارزم وخراسان فحسب، بل سار بعد ذلك منتصراً خلال جبال أفغانستان المخيفة، دون أن يتعرض جيشه ولو مرة إلى خطر من أي نوع، وبعد موته، وحتى بقيادة أشهر الجنرالات وأولاده وأحفاده فإن المغول لم يحققوا إنجازات مثيلة لإنجازاتهم أثناء حياته وتحت قيادته، وقد استطاع جنكيز خان انتزاع الإعجاب والتفاني من الفريق القيادي الذي كان معه من أمثال وزيره الصيني الحكيم يلوي ـ تشو سي ـ.

ومن تلك الكوكبة الفريدة من القادة اللامعين الذين أحاطوا به، من المغول: بوكورجي، موخالي، سوبوداي، جيبة وساموخا وغيرهم كثير، مما يدل أن جنكيز خان لم يكن وحده شخصية كبيرة فذة فحسب، بل إن فراسته ومعرفته بالرجال، واختيارهم ما هي إلا العبقرية بعينها[1]، ومن الأدلة على معرفته بالرجال اختياره أثناء حياته خليفته، ودلَّ هذا الاختيار على حكمته واتساع أفقه وقوة فكره ونفاذ بصيرته، فلم يغتر بما اشتهر به تولوي من مواهب عسكرية أو بما اتصف به جغتاي من صرامة، يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادئ الأساسية التي ينطوي عليها نظام جنكيز خان، بل ركز اهتمامه في أوكتاي الذي تعلقت به القلوب، لما اشتهر به من طلاقة الوجه والسخاء، ونظراً لأن ما اشتهر به جنكيز خان من قوة الإرادة، التي لم يرثها أحد من أبنائه، كان لا بد أن يشترك جميع أفراد الأسرة بعد وفاته في إدارة البلاد، إذ أن وحدة الإمبراطورية لا يحفظها إلا رجل يتصف بقوة الإرادة، والتفكير السليم، ويتحلى بخلال خلقية تجعله مقبولاً عند الناس[2].

7 ـ **رجل دولة وسياسة:** لم يكن جنكيز خان رجل حرب متفوقاً فحسب، بل

(1) جنكيز خان، ص: 32.

(2) المغول، للعريني، ص: 155.

كان إلى جانب ذلك رجل سياسة ودولة، وكان من خصاله البارزة: العزم الذي لا ينثني والمقدرة على ألا يتعدى حدود إمكاناته الشخصية، وفي حين كان عظيم المطامع، فقد كان مع ذلك حريصاً على أن تكون مشاريعه أبداً في حدود إمكاناته، إنه لم يمن قط بأية هزيمة، ولا أصيب بكارثة، وقد ترك لأولاده إمبراطورية مترامية الأطراف شاسعة الأرجاء، وأقوى جيش في ذلك العصر، وإذا قارنا بين جنكيز خان وبعض القادة وتاريخ الإنسانية رأينا الفرق الكبير، فمثلاً نابليون بونابرت ألمع القادة الأوروبيون تراجع عاجزاً أمام مدينة صغيرة كـ «عكا» وتخلى عن جيش كامل في مصر، وارتكب حماقة في إسبانيا وخلف جيشاً كبيراً في ثلوج روسيا وانتهى أخيراً إلى الهزيمة الساحقة في ميدان واترلو، ومات سجيناً لدى ألد أعدائه في جزيرة نائية، وقد تحطمت إمبراطوريته تحت سمعه وبصره، ومزق دستوره وحرم ولده من الوراثة في حياته. وإذا تحولنا إلى الإسكندر الكبير، ذلك الفتى المنتصر، الذي فتح العالم في زمانه بعبقريته أخذ جنرالاته حالاً بعد موته يتقاتلون على وراثته ويضطرون ابنه الرضيع إلى الفرار ليقتل مع أمه وجدته لأبيه. وأما جنكيز خان، فقد جعل من نفسه سيداً مطلقاً على الأرض من كوريا حتى أرمينيا، ومن التبت سقف العالم حتى الفولغا وخلفه ولده دون أي احتجاج، وعاش حفيده، قيلاي خان، حاكماً على نصف العالم[1].

* **دستور الدولة (الياسا):**

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مدونة، لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، فلما جاء جنكيز خان، أعاد النظر في هذه العادات، ورد بعضها وقبل معظمها وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد وجعل لها صبغة رسمية، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري، كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط، وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول[2]، وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم (ياسا)، وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وتكتب بصورة مختلفة في الكتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق، وتطلق على الحكم الذي أصدره الملك أو الأمير، ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب،

(1) جنكيز خان، ص: 33 ، 35.

(2) المغول في التاريخ، ص: 338 ، تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 113.

صار أحد معاني هذه الكلمة (ياسا) القتل والموت[1]. وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة التي أقرها جنكيز خان فإنه يطلق عليها (كتاب الياسا الكبير)[2]، وكان جنكيز خان يعتقد بأن تعاليم الياسا صالحة لكل زمان ومكان، وفرضها على الجميع بدون استثناء، بما هو نفسه وأفراد سلالته[3].

يقول الراهب المؤرخ للإنوكاريبيني، في هذه الصدد، أنه جرى تطبيق الياسا بصرامة، وأن هذا التطبيق جعل من المغول أكثر شعوب العالم طاعة لرؤسائهم إلى حد يفوق طاعة الرهبان لأمراء الكنيسة، وكانت الياسا أول خطوة اتخذها جنكيز خان لإضعاف النزعات والميول الإقطاعية الضارة بالوحدة[4]، لقد رأى الخان الأعظم للمغول، أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه، ولابد أن تكون مواد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين في غير ما شفقة ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع إن تركوا وشأنهم يحيون حياتهم القديمة، فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي، ولكن، إذا كانت الياسا قد فضت النزاع والخصام بين المغول الذين كانوا يعيشون من قبل كقطعان الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط، فإنها من جهة أخرى قد حولتها إلى جيوش منظمة، تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر أو كأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورقة، فتلتهمها التهاماً وتأتي على كل ما فيها[5].

وقد تعود المغول أن يرجعوا إلى نصوص الياسا يستشيرونها، ويعملون وفق ما تشير به، وذلك في الأحوال الآتية:

* عندما يجلس خان جديد على عرش المغول.

* عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

---

(1) المغول في التاريخ، ص: 338، انظر: الدولة العربية الإسلامية، ص: 473.

(2) المصدر نفسه، ص: 39.

(3) جنكيز خان، ص: 104.

(4) المصدر نفسه، ص: 104.

(5) المغول، د. فؤاد عبد المعطي، ص: 339.

* في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال[1].

لقد أصدر جنكيز خان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الإستبس، لكي يربط أقاليمه معاً، في ظل حكم موحد، وهذه الياسا التي صدرت مجزأة طول حكم جنكيز خان حددت ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات، وقواعد نظام الضرائب فضلاً عن مبادئ القانون الجنائي والمدني والتجاري، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي:

* الخضوع لجنكيز خان.

* الاتحاد في قبيلة واحدة، أي اندماج خمسين قبيلة من قبائل المغول في مشروع واحد.

* العقاب الصارم لكل مخطئ[2].

أ ـ نصوص تاريخية عن الياسا: يحدثنا المقريزي عن الياسا فيقول: إن جنكيز خان القائم بدولة التتار في بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان، وصارت له الدولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تم وضعه، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إذا كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسا حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرج عن شيء من حكمه[3]. وقال: وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله أنه رأى نسخة من الياسه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد ومن جملة ما شرعه جنكيز خان في الياسه:

ـ أن من زنى قتل، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن.

---

(1) المغول، ص: 338.

(2) المصدر نفسه، ص: 339.

(3) الخطط للمقريزي، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص: 146 ـ 147.

ـ ومن لاط قتل، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على قتل الآخر قتل.

ـ ومن بال في الماء أو على الرماد قتل.

ـ ومن أعطي بضاعة فخسر فيها، فإنه يقتل بعد الثالثة.

ـ ومن أطعم أسيراً أو كساه بغير إذنهم قتل.

ـ ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل.

ـ وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمْرَس قلبه إلى أن يموت، ثم يؤكل لحمه، وأن من ذبح الحيوان كذبيحة المسلمين ذبح.

ـ ومن وقع حمله أو قوسه أو أي شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال، وكان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل، ولم يناوله قتل.

ـ وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب ﷺ مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة.

ـ وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

ـ وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير، وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله، وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ولا أحد ناراً ولا مائدة، ولا الطبق الذي يؤكل عليه، وأن من مرَّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل، ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه.

ـ وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى.

ـ ومنع من أن يقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس.

ـ وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه، ويدعى باسمه فقط.

ـ وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال، وأنه

يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر الإبرة والخيط، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه.

ـ وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلفة في مدة غيبتهم في القتال.

ـ وجعل للعساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقدمون بها إلى السلطان ويؤوونها إليه.

ـ وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده.

ـ ورتب لعساكره أمراء، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مائتين وأمراء عشروات.

ـ وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب، ويبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه، فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين الرسول، وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه.

ـ وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قتل، ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل.

ـ وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته.

ـ وجعل حكم الياسه لولده جغتاي بن جنكيز خان، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعه حكم الياسه، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه[1].

ب ـ ما كتبه المؤرخ الفارسي الجويني عن الياسا: قبل المقريزي (845هـ) بما يزيد عن قرن ونصف، كتب المؤرخ الفارسي عطا الملك الجويني (ت 681هـ) عن الياسه بتفصيل أكثر ولكن عبارة المقريزي تعتبر في الحقيقة خلاصة وافية لما جاء عند الجويني، على أن الأخير قد زاد في الحديث عن ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية هي مباريات الصيد[2]، التي كانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، إذ كانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم، ولكنهم كانوا

(1) المغول، د. الصياد، ص: 342.

(2) تاريخ جهانكشاي للجويني (1/ 19 ـ 21)، المغول، للصياد، ص: 342.

يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودعوا لحمل السلاح وخوض غمار المعارك، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يقفون في ميادين القتال تماماً ويأخذون منهم الآلات والأسلحة اللازمة للتدريب على استعمالها، وهم بالإضافة إلى هذا مكلفون بتسقط أخبار الأعداء والتجسس عليهم، يقول بارتولد: ومن الوسائل القيمة التي تعمل على حفظ النظام وتدريب الجند واختبارهم، حملات الصيد التي كانت تعد على نطاق واسع، وفيها تراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي بنفس الدقة التي تراعى بها إبان الحرب[1].

وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم الخوانين والسراري، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات، وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر وعلى الجنود المشتركين فيها أن يباشروا الصيد في تأن وحذر وأن ينظروا إلى الحيوانات كما ينظرون إلى أعدائهم، فلو فرض أن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف فإنه يعاقب على ذلك بالضرب بالعصا، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل، بل إنهم كانوا لا يترددون عن توقيع الجزاء على أي شخص ينسب إليه الإهمال والخطأ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً تافهاً، بعد ذلك توفد الرسل إلى الخان وهي تحمل إليه تقارير مفصلة عن كل ما دار في هذه المباريات التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة، وذلك للإبقاء على تدريب الجند، ومن حملات الصيد أيضاً يحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاد، وكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله، وذلك حتى يبعدوا عنهم شبح الجوع في الأيام العجاف التي تنتظرهم[2]، والمغول يعتبرون الصيد جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، ويحرصون على ممارسته منذ الصغر، ويروى أن جنكيز خان سقط ذات يوم من فوق جواده، وأصيب حين كان يصطاد خنزيراً برياً وشاء حسن حظه ألا يهاجمه الخنزير وهو ملقى على الأرض، إذ كان قد انتحى جانباً فقال له الكاهن: كان ذلك نذيراً لك،لقد فعلت شراً برغبتك في قتل روح حيّ ولولا رحمة السماء لنطحك الخنزير وقضى عليك. فرد جنكيز خان عليه قائلاً: لقد أدركت ذلك شخصياً، وأعلم أن

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج 7 العدد الرابع، ص: 137، مادة جنكيز خان، المغول، ص: 343.

(2) المغول، للصياد، ص: 343.

نصيحتك تستهدف الخير، ولكنا نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا أعمال الصيد وليس من السهل علينا أن نغير عاداتنا[1]. وكان للمغول نظم وقواعد يلتزمونها أثناء الصيد، ويقومون بتنفيذها بكل دقة[2].

جـ ـ من أخلاق المغول: نصَّ جنكيز خان في الياسا على أنه يمقت السرقة والفحش مقتاً خاصاً، وأن عقاب مرتكبيها الإعدام، وصرَّح بأنه يغضب إذا علم بولد لا يطيع أبويه، أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الأكبر، أو بافتقار الزوج إلى الاعتماد على زوجته أو بمخالفة المرأة لزوجها أو بتمنع الغني عن إعانة الفقير أو بعدم احترام المرؤوسين لرؤسائهم، ونهى أتباعه عن الإغراق في شرب الخمر فقال: إن الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه، يفقد عقله وكفاءته فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر والأفضل ألا تشربوا أبداً، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشراب مطلقاً[3]؟.

د ـ موقف الشريعة الإسلامية من الياسا: إن المتأمل في نصوص الياسا يلاحظ أن بعضها يوافق الشريعة الإسلامية الغراء، ولكن أكثرها مخالف لها، فالشريعة الإسلامية تقوم على احترام حقوق الفرد، وتمنع الطغيان والاستبداد وتدعو إلى السعي والكفاح لينتفع الناس بتجاربه، ويجد ثمرة عمله، أما الياسا، فإنها تقوم على أسس جائرة ظالمة، تلغي شخصية الفرد، وتحجر على حريته، وتكبله بقيود الذل والعبودية، وإذا كان المغول يعتبرون الكذب جريمة بنص القانون، فإنهم أحلوه لأنفسهم، لا سيما في وقت الحروب، وذلك على سبيل الخديعة والتفرقة بين المتحاربين من الأعداء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المغول تحللوا من المواثيق ونكثوا بالعهود لما ركب في نفوسهم من اللؤم والغدر والميل إلى الانتقام، فمثلاً كان الترك ـ من بين سائر القوميات ـ أقرب إلى المغول، بل كانت منهم كتائب بجيش جنكيز خان، وكانت التقاليد البدوية في آسيا الوسطى، تزيد الترك قرباً من المغول، ورغم هذا كله لم يحاول المغول الاتحاد مع الترك، وإشراكهم معهم في الفتح ولم تكن المحادثات التي يجرونها أحياناً مع الترك إلا ضرباً من الخدع الحربية المألوفة عندهم، فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر

---

(1) المغول، ص: 344.

(2) المصدر نفسه، ص: 344.

(3) المصدر نفسه.

الصداقة ـ أن يفرقوا أعداءهم ثم يجهزوا عليهم واحداً فواحداً، ونحن نعلم أن جنكيز خان أكد صداقته لأم السلطان محمد خوارزمشاه مستغلاً الجفوة التي كانت بينها وبين ابنها، وذلك لكي يحول بينها وبين التدخل في الحرب، إذ كان تحت إمرتها عدد من الكتائب ومع هذا فقد كان مصيرها الأسر والنفي، حيث ماتت في أرض الغربة ذليلة مهانة[1]. وفي غرب آسيا لعب حفيد جنكيز خان «هولاكو» نفس الدور، ففي وقت ما، كان يجري المحادثات مع الإسماعيلية ومع الخليفة العباسي، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن استأصل شأفتهم جميعاً.

هـ ـ تفاني الفرد في سبيل المجموع: وإذا كان المغول ينادون بالتعاون، فإنما يقصدون التعاون الذي يقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية، فنصت الياسا على ألا ينفرد أحد بكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشركه معه في أكله، ولا يجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، بل يقسم الطعام بالتساوي، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه، فمثل هذه النصوص الجائرة تكشف لنا عن روح هذا المجتمع التعاوني الشاذ الذي يحرم الإنسان نتيجة سعيه وكفاحه[2].

و ـ الإباحية: ودعت الياسا إلى الإباحية، إذ ألزمت التتار عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده، وفي هذا هدم لكيان الأسرة التي هي عماد الاستقرار[3].

ز ـ أكل المحرمات: والحقيقة أن كثيراً من عادات المغول وطباعهم كانت تدعو إلى الاشمئزاز، وتثير في نفوس المسلمين النفور، والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم، فكانوا على استعداد لأن يأكلوا كل ما حرمه الإسلام، بل إنهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحرموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تبلى ومن خالف هذه التعليمات اعتبر مجرماً خارجاً على القانون وعقوبته الإعدام، كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر أيضاً، فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التي

---

(1) المغول، للصياد، ص: 346.

(2) المصدر نفسه، ص: 346.

(3) العرب والتتار، ص: 32 ـ 33، المغول، للصياد، ص: 346.

أجازها الشرع واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة، فكانوا يشقون بطن الحيوان، ثم يمدون أيديهم إلى جوفه، فإذا وصلوا إلى قلبه أمسكوه ونزعوه من مكانه[1].

ح ـ **تأثر مسلمي المغول بالياسا**يقول القلقشندي: ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين، وجرى عليه أعقابه بعده، الجري على منهاج ياسه التي قررها، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك وسماها الياسه الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته. . .إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن، وربما دان به من تحلى بحلية الإسلام من ملوكهم[2]. إن ما صرح به القلقشندي من أنه ربما دان بالياسا من تحلى بحلية الإسلام، ليطابق الحقائق التاريخية تمام المطابقة، فقد اعتنق الإسلام «بركة» خان القبيلة الذهبية في القيجاق ولم يكن الخان وحده هو المسلم بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين، وكان لكل أمير عنده، ولكل خانون مؤذن وإمام، وكانت مدارس تحفيظ القرآن كثيرة، وعلى الرغم من هذا، فإن هؤلاء المغول المسلمين، كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات التتر وتقاليدهم المتبعة في منغوليا مما تضمنته الياسا، فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام، وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال، وقد نُبه على السفراء ـ الذين كان يرسلهم السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاط «بركة» لتوثيق الروابط بين الطرفين ـ بألا يغسلوا ملابسهم في الأوردو ولكنهم كانوا يغسلونها خفية، إذا ما اشتدت حاجتهم إلى ذلك[3].وأما المغول الذين قدموا إلى مصر وعاشوا فيها، فكانوا متأثرين بالمدنية الإسلامية قبل أي اعتبار آخر، ومع هذا كانوا لا يزالون في بعض شؤونهم (يتبعون نصوص الياسا[4]) وكانوا إنما رُبوا بدار الإسلام ولُقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلى الرديء[5]. والواقع أن نصوص الياسا كانت محترمة جداً لدى المغول

(1) تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية، ص: 561.
(2) صبح الأعشى (4/ 310 ـ 311)، المغول، للصياد، ص: 347.
(3) المغول، ص: 348.
(4) المغول، ص: 348.
(5) المصدر نفسه، ص: 349.

إلى درجة تبلغ التقديس، فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين بحيث أنه لا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها، أما إذا خرج عليها أي شخص آخر مهما كانت منزلته فإنه يكون عرضة للامتهان والعقاب[1].

ط ـ تيمور لنك يتمسك بالياسا: كذلك ظلت أحكام الياسا موضع عناية الأقوام التركية حتى بعد أن زالت دولة الأيلخانين في إيران، فقد سار عليها التيموريون، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة دفة السياسة وشؤون الحكم، وفي الولائم والحفلات، يقول ابن عربشاه: وكان تيمور معتقداً للقواعد الجنكز خانية. . .وكذلك كل الجغتاي وأهل الدست والخطا وتركستان وأولئك الطغام كلهم يمشون قواعد جنكيز خان ـ لعنه الله ـ على قواعد الإسلام، ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين البزازي ﷺ ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري ـ أبقاه الله ـ وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام بكفر تيمور، ويكفر من يقدم القواعد الجنكيز خانية على شريعة الإسلام، ومن جهات أخر أيضاً. وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية، وما أظن لذلك صحة، فإن ذلك عندهم صار كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة[2].

ي ـ تسجيل أقوال ملوك المغول: درج المغول على تسجيل أقوال ملوكهم وتعليقها بعد موتهم، لكنهم لم يكونوا أحراراً في كتابة كل ما قاله هؤلاء الملوك، فكانوا يدونون فقط ما يجيزه الخان، وهذا القسم من أحاديث المغول كان يقدره رعاياهم وينزلونه من أنفسهم منزلة التوقير والاحترام، وكانوا يطلقون عليه كلمة (بيليك) بمعنى (حكمة). وقد جمعت حكم جنكيز خان وصارت مرجعاً لجميع الطوائف المغولية، يستشهدون بها، يستشيرونها في مختلف شؤون حياتهم، كما يستشيرون أحكام الياسا من هذه الحكم التي وردت على لسان جنكيز خان.

ـ لا يؤذ بعضكم بعضاً في أمور الدنيا، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع لإزالته حالاً لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء.

ـ إن من يدبر بيته أحسن تدبير، يتمكن من إدارة المملكة.

ـ من تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم، يتيسر له سوق جيش عظيم.

---

(1) المصدر نفسه، ص: 49.

(2) المصدر نفسه، ص: 350.

ـ من تمكن من نظافة بيته، يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء[1].

* تنظيم واجبات خدمة الخان:

بعد أن نجح جنكيز خان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف، يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة تولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم، وكانت هذه الوظائف كما يلي:

أ ـ أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس.

ب ـ ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشرب.

ت ـ فرد واحد يتولى إعداد المراعي للأغنام والماشية وثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.

جـ ـ شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل[2].

ح ـ فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

د ـ أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.

ذ ـ اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

س ـ أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

ش ـ اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في اجتماعات المغول[3].

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، ويتم اختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وأخرى لليل، وقد بلغ حوالي عشرة آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس، ومن هؤلاء يتم اختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) ـ أي الشجاع المبارز ـ وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه، بالإضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم

---

(1) المغول، ص: 351، تاريخ العراق بين احتلالين (1/ 131 ـ 133).

(2) المغول والأوروبيون والصليبيون وقضية القدس، ص: 39.

(3) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 39.

حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه[1]، واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذ ما دعت الحاجة، ولذلك اعتبر المغولي راعياً للأغنام والماشية في السلم جندياً في أوقات الحرب، وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال، وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوادهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود في أعدائهم، ومن كانوا يحاربون يقتلونهم دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ، أو المريض ولذلك اتسمت حروبهم بالقسوة والتدمير والتخريب[2].

واستطاع جنكيز خان أن يكسب احترام جيشه، فقد كان يعتبرونه رئيسهم الأعلى، يقدسون أوامره، وينزلون على طاعته، كما رفعوه إلى مرتبة التأليه، ولم يكن أحدهم يستطيع مخالفة الخان الأعظم، ويعكس النظام العسكري الذي وضعه جنكيز خان مهارته وكفاءته ودهاءه[3].

أ ـ تنظيم الجيش المغولي: لقد نظَّم (جنكيز خان) جيشه على التدرج العسكري كالآتي:

* التوكان (تومان): يتكون من عشرة آلاف شخص (محارب) ويسمى قائدة (نُويان)، أو (نوين).

* الكوكبة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (يوزباشي).

* المقدِّمة: تتألف من خمسين شخصاً (مُحارب) ويُسمَّى آمره (أونباشي).

* الجماعة: تتألف من عشرة أشخاص (محاربين) وتعتبر هذه أصغر وحدة مقاتلة، قد يجوز تجزئتها، فتقاتل وتعيش وتموت سويّة[4].

كانت جميع الوحدات مزوَّدة بخيول من لون واحد وبمعدَّل خمسة خيول احتياطيَّة لكلِّ محارب؛ إذ إنَّ الجواد كان السلاح الرئيس في جيش المغول، فكانت جيوشهم

(1) المغول والأوروبيون والصليبيون، ص: 39.
(2) المصدر نفسه، ص: 39.
(3) قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية، النبراوي، ص: 72.
(4) الغزو المغولي لديار الإسلام، د. محمد فتحي، ص: 86.

تتألف من الخيالة فقط عدا المدفعية والهندسية التي كانت أدواتها تُحمل على عجلات، ولا يُوجد مُشاة بينها، كانت هذه الخيَّالة مقسَّمة إلى ثلاثة أنواع:

- السرايا الفدائيَّة، واجبها «فتح المعركة» وذلك بالشروع بالقتال والاشتباك مع العدو.

- سرايا الصاعقة وهي الخيَّالة الثقيلة، واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز.

- السَّرايا الخفيفة، وهي من الخيَّالة الخفيفة، واجبها المطاردة، وستر الجناحين في القتال.

كان سلاح خيَّالة الصَّاعقة(الثقيلة) السيف وقوسين للسِّهام وسهاماً كافية، وفأساً ثقيلة.

أما تجهيزاتهم؛ فكانت الدروع الجلديَّة لحمايتهم وحماية خيولهم وخوذ فولاذية ومظلَّة فولاذية - أيضاً - لحماية الرأس والرَّقبة وحقيبة للسهام واقية ضد الرطوبة، يحفظ فيها الجندي سهامه الاحتياطية مع مسَن لسنِّ السِّهام، وحَدِّها، وأوتاراً احتياطية للأقواس، بالإضافة إلى ذلك، كان المقاتل يحمل حبلاً طويلاً ذا أنشوطة يستخدمه في جرِّ أدوات الحصار، أو سحب العجلات الغاطسة في الأوحال، أو المنقلبة أو العاطلة عن السَّير. وكان يحمل المقاتل - أيضاً - إناء لغلي الحليب وحقيبة يضع فيها أرزاقه الاحتياطيّة من اللحم المجفَّف والخبز واللبن الخاثر، الذي يضعه في إنائه، ويضع فوقه الماء، ويغليه، ويستعمله كالحليب، وقربة صغيرة للماء، أما سلاح السَّرايا الفدائية، والخيَّالة الخفيفة، فكان الرمح مع القوس وكانت تجهيزاتهم تُشبه الخيَّالة الثقيلة عدا الفأس الثقيلة والحبل ذي الأنشوطة، إلا أن فرقة الحرس تمتاز عن بقيَّة الخيَّالة بالترس الذي كان يحمله الخيَّال ليتلافى به ضربات سُيوف الأعداء، وكان لكل فارس في الجيش أربعة أو خمسة خيول احتياطية عدا الذي يركبه، وكانوا يعتمدون في جميع عمليَّاتهم الحربية على خطَّة حركتهم الرَّائعة، وتحركاتهم الخاطفة، وكان لجنكيز خان احتياط عام كما كان له محاربون للمحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في الخلف، ومحاربون آخرون لإدارة المقاطعات المحتلة كما كان لديه هيئة خاصة للاستخبارات، وأنشأ (رتلاً خامساً) في الدول المجاورة - معتمداً - في ذلك على الهدايا والوعود والزواج، وأخيراً شكل جيشاً بقيادة معاونه (جيبي نويان) تحت تصرُّف إمبراطور الصِّين

(إمبراطور الكين) لمقاتله سُلالة السُّنج وهكذا، تمكن «جنكيز خان» من التَّعرف على إمبراطوريَّة الكين، وأساليبها، وخُططها وكشف سرّ قلاعها، وحصونها، ونقاطها الحيويَّة، ومواردها الاقتصادية[1].

ب ـ من وصايا جنكيز خان لجيشه:

ـ يُمنع اتِّصال قائد التُّومان «النُّيان» بآخر مثله وليس له أمر على الآخرين.

ـ عدم تقصير الفرد في تجهيزاته من الخيط والإبرة إلى ملابسه، وإلى كل ما يكون مسؤولاً عنه من تجهيزات، والمخالف يعاقب بأشد العقوبة.

ـ المعاقبة ـ بشدَّة ـ لكل من لم يسمع كلام أبيه من الأولاد، والأخ الأكبر من أخوته، والزوجة من زوجها.

ـ يجب مراعاة السّلسلة في تنفيذ وإصدار الأوامر، فالفرد لا يراجع إلا آمره، وهكذا إلى أعلى الرتب.

ـ المعاقبة ـ بشدة ـ لكل من يسرق ويقطع الطريق، أو يقوم بجريمة.

ـ يكلف بالقيادة من كان عاقلاً شجاعاً، ويجعل الأفراد من سائر الناس، وأما الضعفاء، والعجزة فيتخذهم رعاة، فيوزع الأعمال بهذه الصورة.

ـ على جميع القادة من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى مواجهة جنكيز خان في السنة مرة، ليتلقوا منه الأوامر، ويصغوا إلى نصحه،وقال إن من فعل ذلك تمكن من أن يصير قائداً لجيش عظيم[2].

ج ـ التسلح والتجهيز: كان الجواد في الجيش المغولي يعتبر السلاح الأساسي، ويُسلَّح المقاتل بسيف ورمح وقوسين، أحدهما للرَّمي أثناء رُكُوب الخيل، والثاني للرَّمي بدقة، كما كان يُجهَّز بثلاث جُعب مُعبَّأة بسهام مختلفة، وبأدوات حفر خفيفة وأرزاق احتياطية، وقُربة تُعلَّق بذيل الجواد، لوضع أجهزته فيها، وتساعده في اجتياز الأنهار والتُّرع والجداول المائية، وكان المقاتل يتدرَّع بدرع من الجلد[3]، وأمَّا القادة فبالإضافة إلى الأسلحة فكانوا يزودون بجلد رقيق مُستدير، تحيط حافته عُرى يربط فيها حبل،

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 86، 87.

(2) الغزو المغولي لديار المسلمين، ص: 87.

(3) الغزو المغولي لديار المسلمين، ص: 88.

بحيث يصبح جيباً مستديراً يُلقون فيه ملابسهم، وأسلحتهم وغيرها من الأمتعة، حتى يمتلئ تماماً، ويقفل، ثم يضعون وسط كل هذا أسرجتهم وأمتعتهم بالقارب إلى ذيل الجواد، ويكلَّف رجل بالساحة، ويجر الجواد خلفه، ويزودون ـ أحياناً ـ بمجاذيف تعينهم على العبور، ثم يدفعون الخيل الباقية لتتبع ذلك الجواد، وأما المقاتلون الآخرون، فكان يحمل كل منهم قربة متينة الحياكة يضع فيها كُلٌّ أمتعته، ثم تُعقد فوهتها، وتربط بذيل جواد لعبور النهر، كما تستخدم هذه القربة نفسها لخزْن الماء حين اجتياز الصَّحاري[1].

د ـ أساليب القتال: كان الجيش المغولي يتقدم بقيادة جنكيز خان على جبهة عريضة وبثلاثة أرتال: جناح أيمن، وجناح أيسر ووسط كان الجناحان الأيمن والأيسر يتقدمان على مستوى واحد تقريباً في حين كان وسط الجيش يتقدم متأخراً قليلاً عن الجناحين الأوَّلين، بحيث يسمح له بمساندة أي منهما، دون أن يعرض نفسه للصدمة المعادية، كما يسمح ـ في الوقت نفسه ـ للجناحين الآخرين بتطويق مؤخرة العدو إذا تعرض الوسط للمهاجمة، لقد اعتمد جنكيز خان في بناء جيشه على مبدأ الشعب المسلح، كما اعتمد خطط الحرب الخاطفة، وكانت مسافة الأرتال الثلاثة لا تتعدى مسيرة يوم واحد، وكان جنكيز خان يتقدم بجيشه ليلاً ونهاراً، فقد تمكن جيشه من قطع مسافة 1130 كم في خمسة عشر يوماً أثناء حملته على بولونيا ومسافة 450كم في مدة ثلاث أيام أثناء حملته على هنغاريا، وقبل وصوله إلى هدفه بأيام قليلة كان تقدمه ليلاً فقط، وفي منتهى الكتمان، ثم يعقب ذلك التسلل هجوم عنيف ومفاجئ فجراً، وكان يستخدم إشارات الميدان أثناء القتال، وكان يستعمل الأعلام نهاراً والمصابيح أو إضرام النار ليلاً، ولقد استخدم جنكيز خان في حروبه جميع خطط المخادعة والمباغتة، وكان يعقد المعاهدات مع خصومه لشلهم وبذل الشقاق في المملكة التي يريد دمارها قبل إعلان الحرب عليها، وكان يرسل عناصر من استخباراته لشن حرب نفسية على أعدائه قبل أية معركة، وكان يستخدم حرب الصاعقة لقهر جيوش أعدائه، وعلى الرغم من أن جنكيز خان سفاح ووثني، إلا أنه امتاز بالزعامة والقيادة وتمكن من تأليف أقوى جيش، وتأسيس أقوى إمبراطورية عرفها تاريخ القرون الوسطى[2].

هـ ـ الاتصالات في الجيش المغولي: لقد اهتم جنكيز خان كثيراً بالاتصالات،

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 88.

(2) المصدر نفسه، ص: 90.

لقد كانت الاتصالات في الجيش المغولي، كالآتي:

ـ الاتصالات بين التشكيلات، وكانت تقام بأسلوبين ـ الأول: بواسطة المخابرة البصرية، وتتم نهاراً لإعطاء الإشارة بالعلم الذي حمله حامل العلم المرافق لقائد التومان، وليلاً بواسطة فانوس أحمر، وكانت إشارة واحدة من العلم أو الفانوس كافية لتحريك السراية بالنظر إلى الحركة المطلوبة. الثاني: الاتصالات بين مقر الجيش في الجبهة ومجلس الحرب الأعلى في العاصمة (قرة قورم) وتتم هذه بواسطة آمر خط المواصلات، وكالآتي: كان الطريق بين الجبهة والعاصمة يقسم إلى قواطع، يكون مركز كل منها في أكبر مدينة في ذاك قاطع، كان (الداروجا) أو آمر خط المواصلات آمراً لمركز الاتصالات أو كما يسميه المغول (يام)، يوجد في هذا المركز آمر مركز الاتصالات، وكاتب لتسجيل وقت مرور السعاة ومغادرتهم المركز، والأشخاص الذين مروا بهم في ذهابهم إلى الجبهة أو إيابهم إليها، وعدد من الأشخاص لحراسة المركز، وعدد كبير من الخيول السريعة التي كان كثير منها مسرجاً متهيئاً للحركة، كانت واجبات الرجال المخصصين بواجبات المراسلة من أولئك الذين يستطيعون قطع (80 ـ 100كم) في اليوم الواحد، وكان قد تم تخصيص (300 ألف) جواد لإدامة هذه الاتصالات[1].

و ـ **القيادة:** كان جنكيز خان يعين قادته من بين حرسه الخاص، وبهذا الأسلوب، جعل قيادة القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الشاسعة بأيدي رجال يعرفهم جنكيز خان معرفة شخصية مباشرة، وقد جربهم بنفسه، وأن ما قام به أولئك القادة من أعمال مجيدة بالنسبة للمغول خير دليل على مقدرته على اختيار قادته[2]، وكان يقول: إن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة، وقال أيضاً: من تمكن من إدارة عشرة أفراد، وأحسن سوقهم تيسر له سوق جيش عظيم[3]، ولم يكن قادة المغول أكثر من منفذين ماهرين بإرادة إمبراطورهم[4]، وكان يقتطع الوحدات من جيشه ويجحفلها من جديد طبقاً لمتطلبات الأحوال والظروف، وكان يتخذ إجراءاته سريعاً، ويتحاشى نتائج الفشل الذي قد تتعرض له قواته أحياناً، ولقد أعطى لقب (النوين الأكبر) لأصغر أبناء جنكيز خان (تولوي) والذي كان اليد اليمنى لأبيه في الشؤون العسكرية، كما حمل لقب

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 91.

(2) المصدر نفسه، ص: 91.

(3) المصدر نفسه، ص: 91.

(4) المصدر نفسه، ص: 92.

(نوين) إخوة جنكيز خان الأصغران وهما (تموغا) و(بلغوطاي)، لم يتمتع أحد من صلب إخوة جنكيز خان بحقوق الإمارة، إلا سلالة (جوجي قسر) بينما دخل الباقون طبقة الأرستقراطية ـ النبلاء ـ وحمل أعضاء الأرستقراطية العسكرية لقب (طرخان)، ويتمتع حامل لقب طرخان بالامتيازات الآتية: الإعفاء من الضرائب، لهم الحق في الغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب والصيد، واستطاعتهم دخول البلاط في أي وقت يشاؤون، دون إذن خاص، غير مسؤولين عن جريمة يرتكبونها، إلا عند الجريمة التاسعة (الجرائم التي عقوبتها الإعدام)، يأخذون موضع الشرف في المآدب، ويقدم لكل منهم كأس من النبيذ، وكان في عهد جنكيز خان ثلاثة من قادة التومانات أحدهم (موقالي)، وكان يقود الميسرة أو الجبهة الشرقية، والثاني (بوكورجي) قائد الميمنة أو الجبهة الغربية، والثالث (أنايا) يقود قوة الوسط، وكان الأمراء ـ النويد ـ يكونون أعلى طبقة أرستقراطية في البلاد، أما الكتل الشعبية، فإنها لم تكن سوى أداة في أيدي مساعدي جنكيز خان[1].

* أساليبهم في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين:

قبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم، كانت تطرح الخطة الحربية ـ التي سوف يتبعونها ـ على بساط البحث في جلسة «القوريلتاي» حتى إذا ما استقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو، فيجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيش، ويختبرون حصون المدن، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم ويطلعون قادة الجيش عليها، وبعد ذلك يرسل الخان رسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن يدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقي الفزع في نفوس سكان البلاد التي يزمعون الإغارة عليها، وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد، «ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام، والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم»[2]، فإذا رفضوا التسليم وأصروا على المقاومة، تقدم المغول لمحاربتهم، حتى إذا ما شارفوا أبواب المدينة، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم، فإذا خرج عظمائهم وذوو الرأي فيهم، وحملوا إليهم الهدايا والتحف، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فإن المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم، يصدر الخان مرسوماً بذلك حتى

---

(1) الغزو المغولي لديار الإسلام، ص: 93.

(2) تاريخ جهانكشاي (1/ 18) للجويني، المغول، للصياد، ص: 364.

يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس، وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة[1]، وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة،أما إذا اتخذ السكان طريق العصيان، وسلكوا سبيل المقاومة خسر المغول خسارة قليلة أمام المدينة المحاصرة، فإنهم لا يعقدون مع أهلها صلحاً في حالة عجزهم على مواصلة القتال واضطرارهم إلى التسليم، بل يصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان، لا فرق عنده بين صغير وكبير، ولا بين رجل وامرأة، كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة وإباحة القتل العام، والطريقة المتبعة في ذلك، أن يدعو المغول الأهالي بالخروج إلى ظاهر المدينة، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف وبعد ذلك يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا، ويختارون من بين الأسرى من يصلح للقتال، فيكونون منهم قوات غير نظامية، يطلقون عليهم اسم (حشر) ثم يعملون سيوفهم في الباقين، فإذا أصر أهالي المدينة على المقاومة، رغم فرض الحصار عليها مدة طويلة فإن المغول يهاجمونها ويستولون عليها عنوة، أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم، وتكون النتيجة إما أن يستسلموا لهم، وإما أن يلوذوا بالفرار، وبعد المعركة يعطي الخان كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب، كما يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه[2].

وكانت طريقة القتال التي سلكها المغول وجميع البلاد المتحضرة (الصين وغرب آسيا ثم في روسيا فيما بعد) واحدة على الدوام، فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العزل أفواجاً لشد أزرهم في حصارهم للمدن الحصينة، واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يجعلوا هؤلاء السكان التعساء في المقدمة لكي يتلقوا هم السهام المنهالة عليهم، وليمهدوا الطريق للجيش الذي يتبعهم وكانت الأعلام في بعض الأحيان توزع عليهم لإيهام العدو بأن الجيش وافر العدد، ويقال إن عدد المغول عند حصار (خنجد) كان عشرين ألف فقط، بينما كان عدد الأسرى الذين أجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة[3]، كذلك كان هؤلاء الأسرى يكلفون بحفر الخنادق، ونصب أدوات الحصار وما يراه المغول ضرورياً من الأعمال الحربية العنيفة الشاقة والأسرى المغلوبون على أمرهم من جراء ذلك معرضون للأخطار الجسيمة، دون أن يجدوا سبيلاً للفرار، إذ أن أعين المغول من ورائهم ساهرة عليهم، حتى إذا ما أنهك

---

(1) المصدر نفسه، ص: 365. (2) المغول للصياد، ص: 365.

(3) المصدر نفسه، ص: 365، دائرة المعارف الإسلامية، ص: 137.

الأسرى قوى أعدائهم، يجيء دور المغول للإجهاز عليهم[1].

ووصف ابن الأثير المؤرخ المعروف ذلك وقال: وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة، قدموا معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقاتلون كرهاً، وهم المساكين، كما قيل كالأشقر، إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقل، وكان هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه[2]. وكذلك برع المغول في الالتجاء إلى وسائل الخداع والتمويه، فكانوا إذا حاصروا مدينة من المدن وطال حصارهم لها دون جدوى تظاهروا برفع الحصار عنها، والعودة من حيث أتوا، حتى إذا اطمأن أهالي المدينة إلى رحيل أعدائهم وألقوا سلاحهم، عاد إليهم المغول، وانقضوا عليهم فجأة قبل أن يستعدوا فتسقط المدينة في أيديهم على الفور[3].

* الاهتمام بالخبرات:

بالرغم مما اشتهر به جنكيز خان من الصلابة والعناد في سياسته فإنه لم يغفل الإفادة من تجارب المتحضرين، إذ تلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع فيما يتعلق بالشؤون الإدارية والمخابرات التي تساعده على القيام بأعماله الحربية، والمعروف أن تنظيم الإدارة المدنية عند جنكيز خان في مستهل حكمه كان أمراً بالغ الصعوبة، فلا شك أن المغول وقتذاك لم يبلغوا من المستوى الحضاري ما بلغته القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان، ولذا أضحت الحاجة ماسة إلى الإفادة من الشعوب الخاضعة الموالية له عقب توحيد منغوليا، وكان التجار المسلمون أول من ظهر في بلاد المغول من أصحاب الحضارات، بل إن ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصاً لتيموجين (جنكيز خان) في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة، وهؤلاء هم: جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب، وأفاد جنكيز من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزمشاه بما قاما به من مفاوضات باسم سيدهما مع السكان الأصليين، بل حدث حينما عزم جنكيز خان على مهاجمة الصين الشمالية، أن أنفذ إلى الملك التون خان، رسولاً اسمه جعفر، ولم يلبث أن نقل إلى

---

(1) المغول، ص: 367، للصياد.

(2) المصدر نفسه، ص: 367.

(3) المغول، ص: 367.

جنكيز خان أحوال البلاد ووصف الطريق الذي سلكه، فأفاد جنكيز خان من هذه المعلومات في حملته التي انتصر فيها على التون خان، واتخذ جنكيز خان له مستشارين من الموالين له على اختلاف عناصرهم، ومن هؤلاء: محمود يلواج من المسلمين، وتا ـ تا ـ تونجا من الأويغوريين، ولي ليو تشو تساي، من الصينيين وهو الذي خدم آخر ملوك النايمان وعلّم أبناء جنكيز خان الكتابة الأويغورية، والراجح أن محمود يلواج هو محمود الخوارزمي، أحد السفراء الثلاثة الذين وجههم جنكيز خان إلى محمد خوارزمشاه، (سنة 1218م) ومنذئذ ظل يعمل مستشاراً لجنكيز خان، فعينه حاكماً على إقليم ما وراء النهر بعد سقوطه في أيدي المغول فأحسن إدارته. وليو تشو تساي الخيتائي الصيني، فكان من أهالي الصين الشمالية وقد شغل أبوه منصب الوزارة لأسرة كين، واشتهر يي ليو تشو تساي بثقافته العالية ـ يأتي عنه الحديث منفصلاً ـ حيث استفاد جنكيز خان من خبرته وأفكاره في إدارة الدولة، فقد أقام جنكيز خان أصول الإدارة المغولية على أفكار وثقافات الآخرين التي استفادها من الخبراء والمستشارين من الشعوب والأمم الأخرى، كالحضارة الصينية والأويغوريين[1] وغيرها.

* حكيم من الصين:

وقع على يلوي شو تسي أن يلعب دوراً هاماً وصعباً أثناء قيام الإمبراطورية المغولية، فقد حظي بإعجاب جنكيز خان منذ أن وقعت عينه عليه وكان أول فيلسوف صيني يلتحق بالجيش المغولي ولم يجعل المغول الأمور ممهدة أمام هذا الطالب للفلسفة والطب والفلك، وحدث مرة أن سخر ضابط معروف بمهاراته في صنع الأقواس بالصيني العالي القامة والطويل اللحية، يقول له: ما هي الفائدة من وجود رجل كتب مع محاربين؟ فرد الصيني: إن صنع أقواس جيدة يحتاج إلى نجار، وأما عند ما يستدعي الأمر إدارة إمبراطورية، فالحاجة تدعو إلى صاحب حكمة، وصار حظياً لدى جنكيز خان وأثناء حروبه الكثيرة والطويلة، بينما كان المغول يجمعون الأسلاب والغنائم، كان هذا الحكيم يجمع الكتب والجداول الفلكية والأعشاب الطبية، وقد سجل جغرافية الحملات والمعارك والمواقع، وعندما اجتاحت الجيش موجة من الوباء، فقد تأمنت له الفرصة عندئذ للأخذ بثأره من الضباط الذين كانوا يهزأون به ويكتبه، لقد سقاهم من ماء أعشابه وجعل الله لهم فيه شفاء.

---

(1) المغول، للعريني، ص: 152.

كان جنكيز خان يقدره لعلمه ونزاهته، ولم يترك الحكيم الصيني فرصة تمر إلا حاول فيها إيقاف القتل الذي كان يفرش طريق الجيش المغولي، وتقول أسطورة إن جنكيز خان شاهد مرة في مضائق جبال هملايا السفلى، حيواناً، عجيباً بشكل أيل، لكن أخضر اللون وبقرن واحد لا غير، فاستدعى هذا الصيني ليسأله عن ذلك الحيوان، فأجاب هذا بصوت خفيف وقور: هذا هو كيو ـ توان. إنه مخلوق يعرف جميع اللغات الأرضية، ويحب الأحياء من بني الإنسان، ويشمئز كثيراً من أعمال التقتيل. إن ظهوره هو بلا شك تحذير لك أيها السيد الخان، ودعوة إلى الكف عن اتباع هذا السبيل[1].

وتعتبر كتابات الحكيم الصيني ـ ليو تشو تسي ـ من أدق المصادر وأوثقها، ويرجع إليه الفضل فيما كان للمدنية الصينية من تأثير على جنكيز خان وفي حد المذابح التي كان يجريها المغول في السكان بعد الاستيلاء على بلادهم وفي إنقاذ الكتب من النهب والحريق الذي تعرضت له المدن على أيدي المغول.

ومن مظاهر اهتمامه أيضاً، ما أجراه من أبحاث لاستخلاص عقاقير طبية، لمكافحة ما يصدر عن جثث الضحايا من أوبئة، وعلى الرغم من إخلاص يي لوي تشو تسي لدولة المغول، ولأسرة جنكيز خان، فإنه لم يستطع أن يخفي شعوره وعاطفته حينما يطلب الرأفة بمدينة أو إقليم، حل به قضاء المغول وحكمهم، ويشير إلى ذلك أوكيتاي ابن جنكيز خان بقوله: ألا تزال تبكي على هؤلاء القوم. ومع ذلك كان لوساطته الفطنة الحكيمة أهمية في وقف إجراءات يتعذر تلافيها أو إصلاحها، فنظراً لأنه ينتمي أصلاً للعنصر المغولي، ولأنه تشبع بالحضارة الصينية يعتبر وسيطاً طبيعياً بين عنصر المغلوبين على أمرهم وبين الطغاة المغول، على أنه ما كان ليسعى مباشرة عند المغول للدفاع عن قضية إنسانية، خوفاً من أنه لا يجري الاستماع إليه، بل حرص على أن يثبت لهم أن الرأفة من دواعي السياسة السليمة وبذلك كان يحقق غرضه، فما كان يرتكبه المغول من همجية ووحشية، يرجع إلى ما اشتهروا به من الجهل، وحدث في أثناء الحملة الأخيرة التي قادها جنكيز خان على كانسو، أن أشار قائد مغولي إلى أنه لا جدوى من الرعايا الصينيين الجدد، لأنهم ليسوا صالحين لاستخدامهم في الحرب ولذا يحسن استئصال شأفة كل هؤلاء السكان، الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين نسمة، حتى يصبح تحويل جانب من الأرض إلى مراعي لخيل العساكر، وأعرب جنكيز خان عن تقديره لهذه النصيحة، غير أن الحكيم الصيني لم يلبث أن أعلن للمغول الذين

---

(1) جنكيز خان، ص: 319.

لا يرتابون في إخلاصه مطلقاً ما يعود عليهم من المزايا باستغلال الأراضي الخصبة والإفادة من هؤلاء الرعايا المجدين، وشرح أن ما يفرض من الضرائب على الأرض، ومن مكوس على المتاجر سوف يتحصل منها كل سنة نحو 500 ألف أوقية من الفضة، و80 ألف ثوب من الحرير، 400 ألف غرارة من الحبوب، فكسب بذلك المعركة، وعهد إليه جنكيز خان أن يضع على هذه القواعد مقدار ما يتحصل من الضريبة[1].

ومما يذكر لجنكيز خان تقديره واحترامه واستفادته من المتحضرين والمثقفين وأصحاب الخبرات وفي عهد أوغوداي، خليفة جنكيز خان وابنه، كان هذا الصيني يدير الإمبراطورية بمفرده تقريباً، وقد استطاع أن يأخذ أمر تنفيذ العقوبات من أيدي الضباط المغول القساة القلب ليضع ذلك في أيدي قضاة عينهم لهذا الواجب، كما عين جباة ضرائب لصالح الخزينة، وكانت شجاعته وحكمته وسرعة خاطره، وذكاؤه يستدعي إعجاب القادة المغول، وكان يعرف كيف يؤثر فيهم، فمثلاً كان الخاقان أوغوداي مدمناً على الشراب بكثرة وكان للحكيم الصيني رغبة كبيرة في أن يظل هذا الخاقان على قيد الحياة أطول مدة ممكنة، ولما رأى أن نصائحه لأغوداي واعتراضه على إغراقه في شرب الخمر لا تجدي فتيلاً، جاءه يوماً بوعاء من حديد تحتفظ به الخمرة، وقد تآكلت حافته بفعل الكحول، عرض هذا الوعاء على العاهل المغولي وهو يقول: إذا كانت الخمرة تحدث مثل هذا التأثير في الحديد، فاحكم بنفسك كيف يكون تأثيرها في أحشائك! وتأثر أوغوداي بهذه البرهنة، فاعتدل في شرابه.

ومرة غضب أوغوداي لعمل قام به الوزير الصيني وأمر بإلقائه في السجن، ولكنه غير رأيه بعد فترة وأمر بالإفراج عنه ولكن الصيني لم يرغب في مغادرة السجن، وأرسل أوغوداي يستفسر عن السبب الذي منعه عن الظهور في البلاط فأجاب: أنت جعلتني وزيراً لك وأنت وضعتني في السجن، إذن فإني مذنب، وأنت أطلقت سراحي، إذن فأنا بريء، إنه لسهل عليك أن تجعل مني ألعوبة في يديك، ولكن كيف أستطيع بعد ذلك أن أدير شؤون الإمبراطورية؟ وأعيد بعد ذلك لوظيفته، وكان بعض الضباط المغول يتهمونه باطلاً بجمع ثروة كبيرة من وراء عمله مع جنكيز خان وأوغوداي ولذا عمدوا بعد موته إلى تفتيش مسكنه لكي لا يجدوا من الثروة المزعومة غير أدوات موسيقية متحفية ومخطوطات، وخرائط وجداول وحجارة عليها كتابات منحوتة[2].

---

(1) المغول، للعريني، ص: 152.

(2) جنكيز خان، ص: 320.

* الكوريلتاي «المجلس العام» وأركان الدولة:

كان المجلس العام «الكوريلتاي» يعقد كل عام، وكان المكان الذي اختير لانعقاد آخر كوريلتاي في حياة جنكيز خان، مرجعاً تبلغ دائرته 40 كلم تقريباً، وكان مكاناً مثالياً، وفقاً للتفكير المغولي، فالعشب يغطي الأرض على جوانب النهر والكلأ وفير والصيد كثير، وكان الوقت أوائل الربيع وهو الشهر المفضل لاجتماع الكوريلتاي، وأخذ قادة الجيش يفدون في المواعيد المحددة، ولم يتأخر قليلاً سوى سوبوداي المستدعى من أوروبا، لقد قدموا من جميع أركان المعمورة المعروفة، جنرالات، خانات، ملوك وسفراء، قاموا برحلة طويلة للوصول إلى مجلس نبلاء الإمبراطورية المغولية وقد أحضروا معهم عدداً كبيراً من البطانة والحاشية، وكانت المركبات القادمة من الصين مجرورة بالبقر ومغطاة بالحرير وكانت ترفرف فوقها الأعلام المغتنمة وكانت مركبات الضباط القادمين من سفوح التيبيت مسقوفة مذهبة ومبرنقة، مجرورة بجمال التيبيت(الياك)، ذوات القرون العريضة والأذيال الحريرية البيضاء، العظيمة القيمة لدى المغول، الذين يستعملونها زينة للرايات والأعلام.

وجاء تولي أمير الحروب، قادماً من خراسان جالباً معه عدداً كبيراً من الجمال البيضاء، وجاء جغطاي، هابطاً من ثلوج الجبال يقود مائة ألف رأس من الخيل هدية لأبيه، كان الجميع يرتدون ألبسة من ذهب وحرير ومعاطف من فراء السمور، ويتدثرون إضافة بأردية من جلود الذئاب وقاية لملابسهم الثمينة، وكانت الخيل، عوضاً عن الجلد المبقع بفعل الأنواء والمناخات، مبردعة بقمصان من الزرد المجلجل، وسروجها تلمع بالفضة المجلوة وتخطف الأبصار بأضواء الجواهر النفيسة. واجتمع الكل في فسطاط أبيض كان من الضخامة بحيث يستوعب ألفي شخص، وكان للفسطاط مدخل لا يستعمله سوى الخاقان، وكان الجنود حاملو التروس من الشدة والصرامة بحيث لم يكن قط ليجرؤ أحد على المجازفة بالاقتراب من مقر جنكيز خان وكما فعلوا في مناسبات سابقة، فقد أتوا معهم بهدايا للخاقان، بأحسن أسلابهم من الخيل والنساء والأسلحة وبالكنوز الملتقطة بعناية عن خزائن نصف العالم تقريباً. ويقول مؤرخ مغولي: إنه لم يسبق قط أن شاهد المغول مثل هذه الفخامة والأبهة من قبل. أمراء الإمبراطورية يشربون الآن، عوضاً عن حليب الأفراس، خمر العسل ونبيذ فارس الأبيض المعتق، وكان جنكيز خان محباً لنبيذ شيراز[1]. جنكيز خان يجلس الآن على العرش الذهبي الذي كان

---

(1) جنكيز خان، ص: 328.

للسلطان محمد الخوارزمي، وقد جيء به من سمرقند وكان إلى جانبه تاج وصولجان السلطان الراحل، وعندما اجتمع الكوريلتاي في أول جلساته، واستهل جنكيز خان أول جلسة بأن أعطى للحضور خلاصة عن حملات السنوات الثلاثة الأخيرة إلى أن قال: لقد جنيت سطوة عظيمة، وسلطاناً كبيراً بفضل «الياسا» وعليكم جميعاً أن تعيشوا في طاعة القوانين[1]، لم يتبجح جنكيز خان الداهية بإنجازاته، وكان الشيء الأهم في نظره، والواجب تحقيقه، هو الخضوع لدستور الإمبراطورية المغولية(الياسا)، إنه لم يعد بحاجة إلى توجيه نصح لضباطه، ولا إلى قيادتهم بنفسه، فهم الآن قادرون على شن الحروب على مسؤوليتهم وكان يرى بوضوح مدى الخطر الكبير الذي كان من المتوقع أن ينجم عن وقوع التفرقة والنزاع فيما بينهم وقد التفت إلى أولاده الأشقاء الثلاثة وقال: ـ لا تسمحوا أبداً للخصومات أن تحل بينكم! وجرت حفلات ومآدب لمدة شهر، ثم انفرط عقد الحشد، فغادر جغطاي إلى جباله وتوجه آخرون في طريقهم إلى كراكوروم وعلى رأسهم جنكيز خان وكان سوبوداي يسير إلى جانبه ويحدثه عن مغامراته في عالم الغرب وكرّس جنكيز خان، بعد ذلك مابقي من حياته لتوطيد دعائم إمبراطوريته العظيمة، التي امتدت من كوريا حتى الخليج العربي، وجرى تنظيم الإدارة بصورة كاملة، دقيقة ومنظمة بإشراف الحكيم الصيني يلوي شو تسي، وربما كان الشيء الأكثر لفتاً للنظر، في هذه الإمبراطورية تعدد الديانات، وقد جمع جنكيز خان حوله مستشارين من جميع الأديان وثنيين ومسيحيين وبوذيين ومسلمين[2].

* الإستراتيجية المغولية:

كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن إهماله، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة، وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تعرف بالإمبراطورية الذهبية أكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خدمته، وكان المغول ولا شك حتى قبل اجتيازهم لجدار الصين الكبير، قد تأثروا بمن كانوا يزورهم من الصينيين من تجّار وعلماء ومنفيين سياسيين وعسكريين فارين من حاميات الحدود. والسر في ذلك النجاح العجيب للمغول في قيادة الجيوش، هو التفهم الكامل لطبيعة

(1) المصدر نفسه، ص: 328.

(2) المغول، ص: 359 للصياد.

الحرب، فلقد قاتلوا بدهاء غير معطين لعدوهم أي إمهال، ينتزعون المبادرة ويحتفظون بها دون تراخ أو مهادنة، ويعملون في نفس الوقت على تسكين مخاوف الخصم بحمله على الشعور بالأمن الكاذب، وذلك قبل أن يتحركوا منقضين عليه كالصاعقة، لقد كان المغول يعدون بعناية ودقة خططهم لكل حرب في المجلس العام (الكوريلتاي) الذي كان نوعاً من مجلس حربي أيضاً، لقد كانوا يرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو ليأتوا بأعلام عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية، وكانوا يستعملون بحذق ودهاء تكتيكات ما يعرف اليوم باسم الرتل الخامس، ويتعاطون المحاربة النفسية، وقد استخدموا في الصين وأوربا الشرقية، سياسة الإرهاب الكلية، وادَّعوا في فارس وبلاد ما وراء النهر، بأنهم غضب الله وكان يترك لقادة الميدان، بعد وضع الخطة، كامل الحرية في استخدام مواهبهم ومبادراتهم، في نطاق حدود واسعة لتنفيذ الاستراتيجية العامة عند بداية فصل الحصاد، وبينما يكون الفلاحون في البلد الضحية، غارقين عاكفين على حصاد مزروعاتهم، وإذا بهم يفاجئون بنزول المغول عليهم كالجراد، لالتقاط حاجتهم من الحبوب، ولإتلاف ما يزيد عن هذه الحاجة[1].

وقد وصف كاتب أوروبي أسلوب القتال والمحاربة المغولية ووقعه على الأوروبيون كما يلي: إن أوروبا تدرك اليوم معنى المحاربة المغولية وأبعادها، كانت تعليمات جنكيز خان تقضي بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى، وأن يعمّ الشلل الأرض ومن عليها بإثارة إحساس بالعجز التام كالذي تحدثه كارثة طبيعية لا رماد لها ولا وقاية منها، وبحيث يكون الشعور بأن كل مقاومة لن تكون سوى الجنون المطبق بعينه، إن الشياطين إخوان الشياطين، وقد أرسلهم الله غضباً ولعنة[2]. لقد أظهر جنكيز خان للعالم بصورة دراماتيكية، وكشف عن القيمة الحقيقية للمزج العسكري من الاستعداد والإعلام، والانضباط، والحركية، وضربة المطرقة والدروس المستفادة من حروب جنكيز خان من حيث الجوهريات لا تزال اليوم صالحة كما كانت في أيامه، ولذلك فإن واضعي نظرية القتال الميكانيكية الحديثة والداعين إلى حرب الدبابات ومنظريها، كالجنرال فوللر والسير ليدل هارت وآخرين قد لجأوا إلى حروب جنكيز خان، ليستوحوا منها التوجيه والإرشاد[3].

(1) جنكيز خان، ص: 167.

(2) جنكيز خان، ص: 168.

(3) المصدر نفسه، ص: 169.

إن الدرس الجوهري الذي نتعلمه من الإستراتيجية المغولية وإنجازاتها العسكرية يتمثل في واقع أنه ما لم يكن الجيش مجبولاً ومشرباً بروحية واحدة شاملة من التفاهم، والانسجام، والمسعى الواحد والتكرس للهدف والغاية، ابتداء من القائد الأعلى حتى جندي الصف، فإن ذلك الجيش لا يستطيع أن يقاتل ويفوز[1].

لقد تميز التخطيط الإستراتيجي المغولي بالتركيز على المؤسسة العسكرية والتي اشتهرت بالعمليات الحركية السريعة الخاطفة، واستعمال الخداع والمخاتلة على سلم كبير وإخضاع المجتمع كله لأغراضها الخاصة وجني طاقة عمل ضخمة من شدة الانضباط والتقيد بالقوانين والسهر على تطبيقها، وتتميز هذه العسكرية أيضاً في الأمور التالية:

- تأمين الإعلام الإستراتيجي اللازم لمناورات المخادعة والتضليل، بقصد تشتيت العدو.

- توسيع الخلافات الداخلية لدى الخصم.

- استغلال السرعة وطاقة الاحتمال للمناورة والمفاجأة.

- تجنيد الطاقة البشرية المحلية المغلوبة، لتغطية الخسائر في الصفوف وتكثيرها.

- احتلال المدن قبل أن تظهر فيها أية مقاومة جدية.

- التنسيق الصحيح، وفي حينه، بين مفارز متباعدة.

وهذه الميزات جميعها تؤدي إلى الحفاظ على الطاقة البشرية المحدودة وإلى الانتصار، ولم يقم النجاح العسكري المغولي على كفاءة واحدة، وإنما قام على اشتراك وتعاون من جميع الكفاءات، ولو غير مغولية، كان الصينيون ينتجون مهندسين أفضل، والأتراك خيالة أسرع، والمسلمون أكثر بطولة، إلا أن المغول كانوا يظهرون جميع إمكانياتهم وخواصهم، المادية والروحية والنفسية، في نموذجية عسكرية صالحة لشعب مكرَّس بكليته للحرب، لقد حول المغول رابطة قبلية طوعية إلى دولة عسكرية عديدة الأوجه والأدوار، وحافظوا على جيوشهم قوية بالانضباط الصارم وافتراس العدو، وكانت الشبكات البريدية ومحطاتها المرحلية تسمح بالاستجابة عاجلاً إلى كل تحدٍّ على

(1) جنكيز خان، ص: 171.

حدودهم المترامية الأطراف، وكانت إستراتيجيتهم ذاتية المنبع، قامت وتطورت، حسب الاستطاعة التكتيكية والإمكانات الإستراتيجية المتاحة لهم[1].

* عادات وتقاليد اجتماعية:

كان للمغول عادات وتقاليد اجتماعية سار عليها جنكيز خان وأبناؤه من بعده، ونظراً لغربتها وطرافتها، نشير إلى أهمها، لكونها جزء من مقومات المشروع المغولي في عهد جنكيز خان، فمن المعروف عن المغول أنهم كانوا يسكنون الخيام، كما هو المتبع عند البدو، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي «يورت» أو «أوردو»، وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف، يقال لها «بيلاق»، وأخرى يمضون فيها الشتاء تسمى «قيشلاق»، واستمروا يسيرون على هذا التقليد حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة، واضطروا إلى سكن العواصم، فكانت لهم أمكنة يقيمون فيها صيفاً وأخرى يقيمون فيها شتاء، وهذه الخيام في المصايف والمشاتي، كانت تتخذ صفة المدينة الكبيرة إذ أنه بالإضافة إلى كثرة الخيام والأكواخ، فإن السكان الذين يصحبون الخان، كانوا يمثلون جميع الطوائف من قواد الجيوش إلى القضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم، وكان أرباب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات، وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمر هام، كتنصيب ملك جديد أو القيام بحملة حربية أن يدعى أمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يقام لهم «إيلجيان» ـ مفرد «يلجي» ـ أي مبعوث أو سفير للتشاور في مختلف المسائل المطروحة على بساط البحث.

وهذه المجالس يقال لها بالمغولية «قوريلتاي»، وأما عن الزواج، فقد كان للخان أن يتزوج بمن يشاء من النساء، وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات، والعادة المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً، فإنه كان يتزوج من ابنته أو أخته وأمه، وإذا تغلب عليه وقتله، فكان يتزوج من امرأته، وكان جنكيز خان يسير على تلك الطريقة، ويقال إن عدد زوجاته كان يزيد عن 500 زوجة، وكان المغول يفضلون أبناءهم من الزوجة التي يؤثرونها على غيرها من النساء، وبعد موت الخان كانت تؤول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهن، وذلك باستثناء والدته، كما أن له أن يمنحهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن[2]، وأما مجموع الأبناء

(1) جنكيز خان، ص: 174، 175.

(2) المغول، للصياد، ص: 352.

والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان أو الأمير، فقد كان يطلق عليهم كلمة «أُرُوغ» بمعنى «عشيرة» أو «سلالة»، أما رعايا الخان الذين يخضعون لسيطرته، فقد كان يطلق عليهم لفظة «أولوس»[1].

* الخرافات بين المغول:

كان المغول يعتقدون أن للشياطين تأثيراً كبيراً على حياتهم، وكانوا يخشون السحر، ويخافونه، وقد تضمنت الياسا أحكاماً شديدة رادعة توقع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة بقصد الإضرار بالغير وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم وحدهم هم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودفع ضرره، ويعرف كل واحد منهم باسم «بخش»، والساحر الملم بضروب السحر يقال له «قام»، ولقد كان هؤلاء الكهان يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين، كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم، وأنهم قديرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والأرواح، فعند قصف الرعد أو ظهور البرق، كانوا يقفون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير، وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصاً ولم يهلك، فإن أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور، ولا يصرحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات، والغريب أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غسل يده في النهر ووضع الماء في أواني ذهبية أو فضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فإنه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وهو أخشى ما يخشاه المغول، وتجنباً لكل هذا، نصت الياسا على عقوبات قاسية تنفذ فوراً فيمن يقترف هذه الخطايا، وهكذا كان المغول يخشون قوة السماء الأبدية ـ كما كانوا يسمونها ـ أكثر من أي شيء آخر، فمن السماء تأتي الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية، ومن السماء أيضاً يأتي دفء الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تغذي الحشائش ـ وفي بعض الأوقات كان جنكيز خان يتجه بمفرده إلى قمة جبل مرتفع ليتضرع إلى هذه القوة الخفية في السماء قائلاً: ابعث إلي بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادقني، أما على الأرض فابعث إلي برجال يكونون عوناً لي[2]، كذلك وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون التمتمات والطقوس والخزعبلات التي يلجأ إليها

---

(1) المغول، ص: 352.

(2) المصدر نفسه، ص: 355.

الساحر، لا يمكن أن ينزل المطر والثلج، وكانوا يعاملون المرضى معاملة قاسية، وكانت عاداتهم عندما يمرض أحد منهم، يعزل عن مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل، وإلى عدم دخول أحد عليه، ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته، وقد توضع حربة خارج خيمة المريض، تلف حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ شخص غريب على دخولها، وعندما تشتد علة المريض، يتركه الجميع، لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل قصر الإمبراطور، أو مسكن عظيم من العظماء حتى يبزغ القمر الجديد، فكأنهم بسلوكهم هذا ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس[1].

وهكذا ذاعت تلك الخرافات، وانتشرت بين أقوام المغول انتشاراً عجيباً، وقد تحدث عنها أغلب المؤرخين والرحالة[2]، وكان المغول يقدرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة واعترافاً بهذه المنة، كانوا يعنون بمثل هؤلاء الأشخاص، ويتعطفون عليهم، وهذا العطف والتقدير يسمى بالمغولية «سيورغاميش» ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلوها، ولينتفعوا بما تدره عليهم، ثم تؤول تلك الأملاك إلى أعقابهم بالوراثة ويعرف هذا في المغولية بما يسمى «سيورغال»، وأحياناً كانوا يعطونهم لوحات شبيهة بالميداليات في العصر الحديث وهي من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب مقام كل شخص، وهي في حجم كف اليد، وينقش عليها اسم الله واسم الخان، وأسمى الأنواع منها ما كانت تزينها صورة الأسد، وأما إذا شك الخان في أحد أتباعه، فإنه يقيله إلى المحاكمة لمحاكمته[3]. وكان المغول يعتقدون أنه لا يصح أن يوجد إلى جانب حاكمهم حاكم آخر على ظهر الأرض ينازعه السيطرة والسلطان «رب في السماء وحاكم في الأرض»، وكانوا يعتقدون أن الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أوامره، يعد جرماً عظيماً لا يغتفر في نظر المغول، ذلك لأن أوامره في عقيدة هؤلاء القوم إنما تصدر من السماء، فعصيان رئيسهم، إنما عصيان لله، وكان ينظر أيضاً إلى أفراد أسرته تلك النظرة القدسية، فالدنيا تقوم وتقعد إذا اعتدي على واحد منهم أو أصيب بأذى، وأن تخريب مدينة «نيسابور» وجعل أعاليها أسافلها بسبب قتل «طغاجار» صهر جنكيز خان، وتسوية

(1) المغول، للعريني، ص: 356.
(2) المصدر نفسه، ص: 356.
(3) المصدر نفسه، ص: 358.

«باميان» بالأرض على إثر قتل «موتوجن» ابن «جغتاي» وحفيد جنكيز خان، ليؤيد هذه الحقيقة[1].

لم يكن المغول يعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم، لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج والاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة، وبعد وفاة جنكيز خان وعندما أراد كبار رجال العشيرة تتويج ابنه «أقطاي خان» عليهم، قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السحرة والمنجمين، ثم رفعوا قلانسهم حسب عاداتهم، ثم أمسك «جغتاي» يد أخيه اليمنى وأمسك «أوتكين» شقيق جنكيز خان يد «أقطاي» اليسرى وأجلساه على العرش، وقدم تولي له شراباً ثم جثا الحاضرون جميعاً على الأرض ثلاث مرات احتراماً وهنأوه وهم راكعون، وبعد انتهاء مراسم التتويج خرج «أقطاي» من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد، ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز خان[2]. هذه بعض الخرافات والعادات والأعراف التي شكلت وكانت جزءاً من المشروع المغولي.

المبحث الثالث:

إزالة المغول للدولة الخوارزمية

اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لإقليم خوارزم، فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً[3]، واعتبر الإصطخري إقليم خوارزم من أقاليم ما وراء النهر، بينما عده جغرافي آخر من أهل القرن الخامس الهجري من مدائن خراسان[4]، ولعل السبب في إضافته إلى خراسان في القرن الخامس يرجع إلى خضوعه للسلاجقة في (سنة

(1) المغول، للصياد، ص: 143.

(2) المغول، للصياد، ص: 357.

(3) الدولة الخوارزمية، د. نافع العبود، ص: 11.

(4) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ص: 14.

430هـ / 1038م)[1]، وهذا تحديد فرضه الواقع السياسي لا الواقع الجغرافي.

وأما ياقوت الحموي المتوفى (سنة 626هـ / 1228م)، فقد ذكر عن هذا الإقليم أنه منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر[2]، وأما خوارزم في وقتنا فتقع ضمن الاتحاد السوفييتي - سابقاً - ووزعت بين جمهوريتين هما أوزبكستان وتركمانستان السوفيتيين[3] سابقاً، وذلك بعد غزو الروس لها وخلعهم أميرها خان خيوة السيد عبد الله خان بهادر في (سنة 1924م)[4].

أولاً: سلاطين خوارزم:

ينسب سلاطين الدولة الخوارزمية في الأصل إلى أنوشتكين وهو عبد تركي كان مملوكاً للأمير السلجوقي بلكباك، اشتراه من بلاد الغور[5] التي تقع في أفغانستان الحالية ويبدو أن هذا الأمير السلجوقي قد رأى في أنوشتكين ملامح نجابة اتضحت في تكوينه الجسمي المنسق، وصفاته النفسية الهادئة، ومن ثمة قدمه إلى بلاط السلطان السلجوقي «ملكشاه» حيث حظي بوظيفة الساقي[6]. وقد هيأت له هذه الوظيفة فرصة الترقي حتى عين شحنة على إقليم خوارزم، (سنة 470هـ/ 1077م)، فاستمر مداوماً عليها حتى وفاته في (سنة 490هـ/ 1096م)، ولما كان أنوشتكين قد أرسل أكبر أبنائه قطب الدين محمد إلى مدينة مرو ليتلقى آداب الرئاسة ورسوم الإمارة، فقد أتاح ذلك لقطب الدين فرصة الترقي حين رأى الأمير السلجوقي ذاد حبشي الذي كان يحكم خراسان من قبل السلطان السلجوقي بركياروق تعيينه والياً على إقليم خوارزم، ولقبه خوارزم شاه سنة 490هـ[7]، وفي نفس العام آلت إمارة خراسان إلى الأمير سنجر السلجوقي من قبل أخيه السلطان بركياروق في خامس جمادى الأولى وأبقى قطب الدين محمد في منصبه، فظل هذا الأمير طوال فترة ولايته على إقليم خوارزم (490/ 521هـ)

(1) أخبار الدولة السلجوقية، ص: 17.
(2) معجم البلدان (4/ 400)، الدولة الخوارزمية، ص: 11.
(3) الدولة الخوارزمية، ص: 12.
(4) المصدر نفسه، ص: 12.
(5) نهاية الأرب (27/ 297)، الأتراك الخوارزميون، ص: 11.
(6) مفرج الكروب (4/ 322).
(7) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي، ص: 19.

تابعاً لسنجر وملتزماً بطاعته[1]، وقد يرجع ذلك في الغالب إلى ما كان عليه قطب الدين محمد من كياسة وفطنة وعرفان بالجميل للسلاجقة أصحاب الفضل عليه وعلى أبيه. كما يرجع أيضاً لما كانت عليه دولة السلاجقة من قوة آنذاك وبخاصة الفترة الأولى من حكم السلطان سنجر السلجوقي ولم يستطع آتسز بن قطب الدين محمد (522/ 551هـ) أن يصبر على هذه الطاعة طويلاً، فخرج على إطارها منذ (عام 530هـ) ودخل في صراع طويل مع السلطان سنجر، فنجم عن ذلك تعرض مدينة خوارزم للحصار السلجوقي ثلاث مرات في أعوام (533هـ، 538، 542هـ)، وفي كل مرة كان آتسز يضطر إلى إعلان الخضوع والتماس العفو وتقديم الهدايا، وكان السلطان السلجوقي سنجر يقبل ذلك منه[2].

وفي الحقيقة لم يكن السلطان سنجر متفرغاً لمواجهة عصيان آتسز فقد تعرض جيشه الضخم لهزيمتين فادحتين: الأولى أمام قبائل القراخطاي الوثنيين الذين كانوا يحكمون تركستان ويهددون المدن الإسلامية في بلاد ما وراء النهر، وقد وقعت هذه الهزيمة سنة 536هـ عند قرية قطوان التي تقع على خمسة فراسخ من سمرقند حيث هلك جيش سنجر ووقع قواده في الأسر وكذلك زوجته وهرب هو بنفسه إلى مدينة ترمز، فسقطت بذلك بلاد ما وراء النهر كلها في أيدي القراخطاي[3]. وعلى الرغم من أن آتسز كان ضالعاً في استحضار القراخطاي وتحريضهم ضد السلطان سنجر بدافع الانتقام منه، إلا أنه اضطر أمام تفاقم خطرهم، وتهديدهم لإقليم خوارزم إلى مصالحتهم على أن يدفع خراجاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف دينار[4]. وأما الهزيمة الثانية لسنجر فكانت أمام قبائل ألغز التركمانية التي كانت تقيم حول مدينة بلخ، وقد وقعت هذه الهزيمة عند مدينة مرو (سنة 548هـ/ 1153م)، وفيها قتل قواد سنجر، ووقع هو مع زوجته في الأسر[5]. وقد أدى ضعف السلاجقة في إيران إبان الفترة الأخيرة من حكم سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى، ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة

(1) تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 283.

(2) الأتراك الخوارزميون، صبري سليم، ص: 19.

(3) المصدر نفسه، ص: 19.

(4) المصدر نفسه، ص: 20، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 385.

(5) سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسنين، ص: 131.

قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خراسان بثرواته الطبيعية، وعلى هذا لم توقف وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من جمادى الآخرة (سنة 551هـ/ 1156م)[1]، أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول (سنه 552هـ/ 1157م)[2] حتمية الصراع بين الطرفين، فقد شرع أيل أرسلان بن آتسز (551 هـ ـ 568هـ) في بسط سلطانه على غربي خراسان عقب وفاة سنجر، وبعد ذلك تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن أيل أرسلان (568هـ، 596هـ) من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول (سنه 590 هـ/ 1193م)، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق[3]، فأصبحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأراضي الخلافة العباسية[4].

ثانياً: الصدام بين الخوارزميين والخلافة العباسية:

ولم يؤد هذا التجاور المكاني إلى نتيجة حاسمة ترضي الطرفين، فالخليفة العباسي الناصر لدين(575 ـ 622هـ) والذي حرّض الخوارزميين في محاربة السلاجقة آملاً في أن يخلصوه من سيطرتهم قد أدرك بجلاء أنه استبدل خصماً هرماً بآخر فتيٍّ عنيد، فهؤلاء الخوارزميون القادمون من الشرق لن يكتفوا باحتلال أملاك السلاجقة فحسب وإنما لتمتد أطماعهم إلى نيل ما كان لهؤلاء السلاجقة من مظاهر السيادة على بغداد نفسها، والتي تمثلت في فرض اسمهم على الخطة والسكة ودار خاصة للسلطان الخوارزمي تطاول دار الخلافة العباسية وتعلو عليها[5].

ولم تغير وفاة السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش في التاسع عشر من رمضان (سنة 596هـ/ 1200م) شيئاً من الناحية السياسية، إذ لما تولى ابنه علاء الدين محمد مكانه (596هـ ـ 617هـ) عاود الخوارزميون المطالبة بكل ما كان للسلاجقة من مزايا لدى الخلافة العباسية، فوجد الخليفة الناصر نفسه مضطراً إلى اتباع نهجه القديم، فشرع

(1) السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، ص: 118.
(2) العبر للذهبي (4/ 148)
(3) الأتراك الخوارزميون، ص: 21.
(4) المصدر نفسه، ص: 21.
(5) المصدر نفسه، ص: 21.

في استعداء الغوريين على الخوارزميين[1]، ثم أمعن في ذلك فعمل على إثارة الأمراء والحكام المحليين في غربي إيران ضدهم، بل إنه تحالف أيضاً مع جلال الدين الحسن الثالث الإسماعيلي (607 ـ 618هـ) صاحب قلاع الإسماعيلية في قهستان، وآلموت، ورودبان، وكان قد تظاهر بترك مذهب الإسماعيلية واعتناق مذهب أهل السنة والجماعة[2].

وعلى هذا فقد شرع الخوارزميون في إحكام سيطرتهم على إيران كلها، فبالشمال تم الاستيلاء على إقليم مازندران الواقع جنوبي بحر قزوين، وضمه (سنة 606هـ) إلى دولتهم[3]، وفي الجنوب جرى الاستيلاء على إقليم كرمان (سنة 607هـ) ثم إقليم مكران (سنة 611هـ)، وتضمن ذلك الساحل المطل على المحيط الهندي بما فيه ميناء هرمز التجاري المهم[4]، وفي أقصى الشرق كان الخوارزميون قد نجحوا في احتواء مدينتي هرات وبلخ (سنة 603هـ)، وهما من أملاك الدولة الغورية[5] التي سقطت عاصمتها غزنة في أيديهم (سنة 612هـ)،[6] فآل حكمها إلى جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء السلطان الخوارزمي علاء الدين بن تكش، وموجز القول هنا، أن الدولة الخوارزمية قد بلغت آنذاك أقصى اتساعها وأصبح اصطدامها بالخلافة العباسية وشيكاً[7].

وبالفعل سار السلطان الخوارزمي (سنة 614هـ/ 1217م) صوب الغرب على رأس حملة وجهتها بغداد، ولم يجد السلطان الخوارزمي حرجاً في أن يعلن إسقاط اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة، مستنداً إلى فتوى أصدرها جماعة من علماء بلاد ما وراء النهر، قضت بعدم أهليته للخلافة، وبالتالي فقد اختار هو واحداً من سلالة أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب في مدينة ترمذ، ويدعى علاء الدين أبو المكارم محمد بن أبي جعفر ابن طاهر الحسيني، ونصبه خليفة وخطب له على المنابر ونقش اسمه على السكة، ولم يكن بوسع الخليفة العباسي أن يقف مكتوف اليدين حيال هذا التحدي الخطير من قبل الخوارزميين بعد أن رأى بنفسه تهاوي حلفائه تباعاً تحت وطأتهم[8]، فبادر

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي، ص: 37.

(2) تاريخ إيران بعد الإسلام، ص: 332 عباس إقبال.

(3) الخوارزميون الأتراك، ص: 22.

(4) المصدر نفسه، ص: 23.

(5) المصدر نفسه، ص: 23.

(6) المصدر نفسه، ص: 23.

(7) المصدر نفسه، ص: 23.

(8) الأتراك الخوارزميون، ص: 24.

للاستعداد لهذا الخطر الداهم وعجز الخوارزميون عن تحقيق هدفهم في الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله، إذ هبت على جيوشهم عند أسد آباد التي تقع غربي همذان عواصف ثلجية عنيفة أهلكت أعداداً كبيرة من الجند والدواب والمؤن، وأطمعت فيهم الأكراد من ساكني إقليم الجبال المجاور، فلم يجد السلطان الخوارزمي مناصاً من العودة إلى بلاده[1].

ثالثاً: أسباب الغزو المغولي للخوارزميين:

فكر جنكيز خان في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة، وكنوزها كثيرة، وأموالها وفيرة، هذا بالإضافة لا يستطيع ـ تكتيكياً ـ أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد، كل هذه العوامل جعلت جنكيز خان يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان جنكيز خان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم «محمد بن خوارزم شاه» على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيز خان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، وأما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية[2]، وحتى تكون الحرب مقنعة لكل الطرفين، لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث جنكيز خان عن سبب مناسب[3]. وانتظر حتى جاء ذلك السبب الرئيس وسيأتي الحديث عنه بإذن الله، ولكن ثمة أسباب خفية كانت هي البواعث لهذا الغزو، من أهمها:

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 24.

(2) تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص: 50.

(3) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 22.

1 ـ الجدب الذي كان يسود أقاليم آسيا الشرقية، حيث كانت حاضرة جنكيز خان «قراقورم» وما ترتب عليه من قحط نشأت عنه حاجتهم الدائمة إلى الكثير من المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، كما كانوا في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يقيهم عاديات الطبيعة من ملبوسات وغيرها، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزمشاه بمنع الميرة عنهم من الكسوات والأقوات وغيرها، وسده طرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه أنظارهم إلى الدولة الخوارزمية[1].

2 ـ حالة اليقظة والنشاط المغولي: كان المغول في هذه الفترة في حالة يقظة ونشاط، يعيشون أمجاد انتصاراتهم السابقة في الصين وغيرها، وبسبب ذلك، وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم، وقد سمعوا عن سعة الدولة الخوارزمية التي غدت أملاكها مجاورة لهم، وعن ثراءها الضخم وحضارتها الرائعة فصاروا يتطلعون إليها[2].

3 ـ مقتل بعض تجار المغول: وأما السبب المباشر والرئيس، فإنه مقتل بعض رجال المغول الذي أشعل الحرب: كان جنكيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه عند عودته إلى مدينة بخارى، بعد محاولته الفاشلة لغزو بغداد سنة 615هـ/1218م وفداً من ثلاث تجار مسلمين هم: محمود الخوارزمي، علي خواجة البخاري، يوسف كنكا الأتراري، محملين بالهدايا من منتجات آسيا الوسطى رغبة في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين[3]. وأرسل مع الوفد رسالة وصفها بعض المؤرخين بأنها رقيقة من مغولي ذلك الوقت، يعرض فيها المسالمة والموادعة وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، وفيما يلي نص الرسالة: «ليس يخفى علينا عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي وغير خافٍ عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد[4].»

---

(1) الكامل لابن الأثير (12/ 149)، عودة الروح للخلافة، ص: 180.

(2) الدولة الخوارزمية، حافظ حمدي، ص: 67، عودة الروح للخلافة، ص: 180.

(3) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 181.

(4) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 83.

وبغض النظر عن الجدل الذي ثار حول هذه الرسالة بين بعض الكتاب، وهل كان مدلولها يحتوي على ازدراء شأن الأمير الخوارزمي أو على إطراء له وملاطفة، فإن الذي حدث هو أن علاء الدين خوارزمشاه أظهر استياءه منها، وبيت نية العدوان على جنكيز خان، واستدعى أحد رسله وهو محمود الخوارزمي، وانفرد به دون سائرهم، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله، وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة الوفاء بما وعد، وشرط عليه أن يكون عيناً له على جنكيز خان، فأجابه إلى ما سأل رغبة ورهبة[1]، ثم بدأ يستخبره عن حقيقة ما جاء في رسالة جنكيز خان إليه، فلما صدقه الجواب غضب الأمير الخوارزمي وعاد يسأل عن عدد عسكر جنكيز خان في حدة، هنا أعرض الرسول عن الإجابة الصحيحة إبقاء على حياته وطلباً للسلامة، ورد في حذق وكياسة: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل، ولكن علاء الدين خوارزمشاه عرف رغم هذه الإجابة، حقيقة موقفه، فصرف الرسل لما طلبوه من الموادعة والموافقة على تردد التجار بين البلدين[2].

4 ـ **تردد التجار بين الطرفين ومقتل تجار المغول:** على إثر توقيع هذا الاتفاق التجاري حمل جنكيز خان بحزم على تأمين التجارة بين شرق آسيا، حيث ممتلكاته وغربها، حيث دولة خوارزم وما يليها غرباً، وسعى جاداً لتوسيع نطاقها، وتأمين طرقها من قطاع الطرق، وتزويد المسالك الرئيسة بحراس سماهم ابن العبري «قراقجية» ـ أي مستحفظين ـ لخفر التجار وصيانتها أثناء مرورها بها، وأصدر أوامره إلى هؤلاء المستحفظين بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة حتى يوصلوه إلى معسكرات المغول[3]. لقد حرص جنكيز خان على البعد الاقتصادي وبناء قوة اقتصادية. سارت التجارة بين شرق آسيا وغربها بنظام تام، وحدث في هذا العام أن وصلت إلى بلاد جنكيز خان قافلة تجارية قوامها ثلاثة من أهل بخارى يحملون بضائعهم من الثياب المذهبة والكرباس[4]، وغيرها مما يليق بخانات المغول، وكان عند أحدهم ويدعى أحمد، ثوب رآه المستحفظون يليق بمقام جنكيز خان نفسه، لذا قادوهم إلى بلاطه، فلما مثل أحمد بين يديه طلب ثمناً باهظاً لبضاعته التي تعلق بها جنكيز خان، الأمر الذي أغضب الخان،

(1) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 84، 85.
(2) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص: 469، عودة الروح للخلافة، ص: 182.
(3) سيرة السلطان، ص: 85، عودة الروح للخلافة، ص: 183.
(4) الكرباس : لفظ فارسي معرب، معناه الثوب الخشن.

وحمله على مصادرة بضاعة أحمد وتوزيعها بين أفراد حاشيته وزج هذا التاجر في السجن، أما صاحباه، فقالا: عندما سئلا عما يطلبانه ثمناً لبضاعتهما: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمة للخان، لا لنبيعه عليه[1]، ولم تجد محاولة حملهما على تقييمه عندئذ أمر جنكيز خان بإعطائهما ثمناً مجزياً من الذهب والفضة، عن بضاعتهما، ورق للتاجر أحمد فعامله بالمثل[2]، وعفا عنه وأصدر جنكيز خان عقب أوامره إلى الأولاد والخواتين والأمراء أن ينفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضة، ليجلبوا من طرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم، وقد اختلف المؤرخون في عدد هؤلاء التجار، وبينما ذكر النسوي أنهم أربعة، قال ابن العبري أنهم مائة وخمسون تاجراً ما بين مسلم ونصراني وتركي[3]، وقدرهم الجويني بأربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين[4]. بينما لم يشر ابن الأثير ولا ابن خلدون إلى أي عدد لهم[5]، ومهما يكن أمر عددهم فإن جنكيز خان بعث معهم رسولاً مغولياً من قبله يحمل رسالة إلى السلطان محمد خوارزمشاه يقول فيها: إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين[6]، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين[7].

5 ـ **قتل التجار المغول ومصادرة أموالهم:** وصل تجار المغول إلى مدينة أترار الواقعة في أقصى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، وكان تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها، وكان بها حاكم من قبل خوارزمشاه يدعى ينال خان، وهو ابن خال خوارزمشاه، في عشرين ألف فارس، يقول النسوي: فشرهت نفسه الدنيئة إلى أموال أولئك، وكاتب السلطان مكاتبة خائن مائن، يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، بل أصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس بوظائفهم[8]،

---

(1) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص: 400.
(2) تاريخ مختصر الدول، ص: 400، عودة الروح للخلافة، ص: 184.
(3) عودة الروح للخلافة، ص: 184.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.
(5) المصدر نفسه، ص: 184.
(6) الدولة الخوارزمية، ص: 70.
(7) تاريخ مختصر الدول، ص: 400 ـ 401، عودة الروح للخلافة، ص: 185.
(8) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 85 ـ 86، تاريخ الخلفاء، ص: 169.

وأخذ يحسن له القضاء عليهم، ويغريه بما معهم من أموال، ويطلب إذنه في مصادرتهم وقتلهم، ولم يزل كذلك حتى أذن له خوارزمشاه في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه، غير أن ينال خان تعدى حدوده، فلم يكتف بالاحتياط عليهم، وانتظار رأي أمير خوارزم فيهم، بل تجاوز ذلك فقبض عليهم وخفي بعد ذلك أثرهم، وانقطع خبرهم، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة والأمتعة المنضدة مكيدة منه وغدراً[1].

هذا ما يقوله النسوي، ويؤيده السيوطي، أما ما يقوله غيره من المؤرخين فيختلف عنه من عدة وجوه نعرض لها فيما يلي:

أ - يذكر النسوي أن ينال خان رغب، في كتابه إلى السلطان، أن يؤذن له في مصادرة أموالهم وقتلهم، على حين يقول غيره أنه لم يفعل أكثر من أنه رفع الأمر إليه بعد وصولهم، وسأله رأيه فيما يفعل بهم.

ب - بينما يذكر النسوي أن السلطان أمر بالاحتياط عليهم حتى يرى رأيه فيهم، وأن ينال خان تعجل وتجاوز صلاحياته فقتلهم دون إذن السلطان[2]، يذهب غيره إلى القول: إن خوارزمشاه أمر أولاً بالاحتياط عليهم، ثم أتبعه بأمر قتلهم ومصادرتهم.

ج - يذكر النسوي أن ينال خان استأثر بأموالهم لنفسه دون السلطان، ويروي غيره أنه بعد أن قتلهم سير ما معهم إلى السلطان الذي فرقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم[3]، وقد علق فامبري على مقتل أولئك التجار بقوله: وإنا لنرى الجويني على حق حين يقول: إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء وأن رؤوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة فيها قد كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم[4]. ولم ينج من أولئك التجار إلا واحد أتيح له الهرب من محبسه، ولما وصل إلى بلاط جنكيز خان نقل إليه ما شاهده من مأساة أصحابه التجار[5].

(1) عودة الروح الخلافة الإسلامية، ص: 186، تاريخ مختصر الدول، ص: 400.

(2) العبر (5/ 519) عودة الروح الخلافة، ص: 186.

(3) سير أعلام النبلاء (22/ 223) كيف دخل التتار بلاد المسلمين د.سليمان العودة، ص: 23.

(4) تاريخ بخارى، ص: 158 عودة الروح للخلافة، ص: 187.

(5) تاريخ بخارى، ص: 159 عودة الروح للخلافة، ص: 187.

6 ـ **الدبلوماسية المغولية لحل المشكلة:** رأى جنكيز خان أن يسوي هذا الأمر مع الخوارزميين بالطرق السلمية فأراد أن يستطلع حقيقة الأمر ولم يستعجل وحرص على حل المشكل بالطرق السلمية، وهذا يدل على حكمته وبعد نظره، كما يظهر من خلال الأحداث بأنه كان لخوارزمشاه هيبته عند جنكيز خان فعمل على تدميرها نفسياً وسياسياً وعسكرياً وأخلاقياً، فأرسل ابن كفرج بغرا، وفي صحبته اثنان من المغول، رسلاً من قبله يطلبان تفسيراً وإيضاحاً لما حدث، وبعث معهم رسالة إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه يقول فيها: إنك قد أعطتت خطك ويدك بالأمان للتجار، ، وألا تتعرض إلى أحد منهم،فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإذا كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليَّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء، وتسكيناً للدماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح[1]، وبلغ من استياء علاء الدين محمد من هذه الرسالة أن أمر بقتل ابن كفرج بغرا، أما الرسولان اللذان صحباه، فقد أطلق سراحهما، وسمح لهما بالعودة إلى الخان ليرويا له ما حدث[2]، ولما وصل نبأ العدوان إلى جنكيز خان قال غاضباً: لا تجتمع شمسان في سماء واحدة ولا يجوز أن يبقى خاقانان على أرض واحدة، وأرسل إلى خوارزمشاه رسالة مقتضبة تنذره بسوء عاقبة ما فعل (أنت الذي اخترت الحرب، ولا مرد للقدر، وإننا نجهل العاقبة، وعلمها عند الله[3]).

وهكذا نجد أن علاء الدين محمد خوارزمشاه قد حدد بهذه السياسة غير الرشيدة، موقف المغول تجاه الخوارزميين، ولم يتح لهم أي مجال للبحث على أمل للعيش معهم في سلام، ولم يترك أمامهم إلا سبيلاً واحدة هي الحرب[4]، ويؤكد برو أن مسؤولية علاء الدين عن خطر الغزو المغولي الذي تعرض له المسلمون بقوله: والرأي السائد أنه لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة المغول، ولكنها من غير شك سهلت ويسرت حدوثها بواسطة ما عرف عن ملك خوارزم علاء الدين محمد من طمع وخيانة وتردد، وأما خيانته فظاهرة، لأنه أقدم على قتل رسل المغول وتجارهم، فأعطى بذلك لجنكيز خان الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه، كذلك من أنه عند أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى

---

(1) مختصر تاريخ العرب، سيد أمير، ص: 343 عودة روح الخلافة، ص: 187.

(2) تاريخ الخلفاء، ص: 169، للسيوطي، عودة روح الخلافة، ص: 188.

(3) هارلود لام، جنكيز خان، ص: 97، عودة روح الخلافة، ص: 188.

(4) عودة روح الخلافة، ص: 188.

إظهار الفزع والخوف بدل ما كان يبديه من غطرسة وتحدٍ[1]. ولم يكن إقدام علاء الدين محمد على قتل تجار ورسل المغول هو العامل الوحيد الذي أثار المغول وشجعهم على غزو الأقطار الشرقية للدولة الإسلامية، بل إن قضاء الأمير الخوارزمي على حكام جميع البلاد التي استولى عليها في توسعه شرقاً وغرباً، قوي عزمهم على الزحف على هذه الأقطار، وبسط سيطرتهم عليها، يقول ابن الأثير: فإن هؤلاء التتار إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها أفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[2].

وهناك من يرجع سبب الغزو المغولي إلى تحريض الخليفة العباسي الناصر لدين الله جنكيز خان على غزو الدولة الخوارزمية، وقد جاء اتهام الناصر بذلك في قول ابن الأثير، حيث قال: وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[3]. وقد تابع ابن الأثير في هذا الاتهام فريق من المؤرخين الأقدمين كابن الوردي وابن الفرات[4]، كما جاء الاتهام في كتب بعض المستشرقين، ومن هؤلاء براون، فقد أورد هذا الاتهام في معرض حديثه على الناصر وعلاقته بخوارزمشاه بقوله: وأخذ يشجع المغول على مهاجمته[5]، ومن بينهم هارولد لام وكارتن فقد ذكرا أن الخليفة عرض على جنكيز خان في رسالته أن يقوم هو بمهاجمة الدولة الخوارزمية من الشرق، ويتولى الناصر مهمة مهاجمتها من الغرب، وبذلك يطبقان عليها[6]. إن من يتأمل ما ذكره ابن الأثير يتضح له كراهيته للخليفة الناصر، لذا وصمه بهذا الاتهام تشهيراً به، ولما أحس الأمر قد ينكشف وتتضح براءة الناصر، نسب روايته إلى مصدر مطعون في صدقه، وهو العجم، أي: الخوارزميين.

ومما يجدر ذكره أن هناك مؤرخين غير ابن الأثير عاصروا هذه الفترة، ولم يشيروا إلى اتصال الناصر بالمغول، من أمثال النسوي، وسبط ابن الجوزي، وابن شداد، وأبي

(1) تاريخ الأدب في إيران، ص: 556 ـ 557.
(2) الكامل (12/ 149)، عودة الروح للخلافة، ص: 189.
(3) عودة الروح للخلافة، ص: 189، الدولة الخوارزمية، ص: 40.
(4) الإعلام للزركلي (1/ 6)، عودة الروح للخلافة، ص: 190.
(5) عودة الروح للخلافة، ص: 190.
(6) هارولد لام جنكيز خان، ص: 90، 91، عودة الروح، ص: 190.

شامة، ويليهم ابن واصل، واليونيني، وابن طباطبا، ولا نغفل أن المؤرخين الصينيين الذين رافقوا حملة جنكيز خان وأولاده وأرخوا لهم تاريخهم، لم تكن مدوناتهم مجهولة للمؤرخين المسلمين الذين خدموا المغول فيما بعد[1]، ولذلك فإنا نرجح عدم صحة اتهام الناصر بتحريض المغول على غزو الدولة الخوارزمية، أو تسببه بأية صورة في وقوع ذلك الهجوم، ونرى أن ما فعله خوارزمشاه كان وحده كافياً لقيام جنكيز خان بذلك الغزو المدمر لشرق بلاد الإسلام[2].

رابعاً: غزو المغول بلاد ما وراء النهر والعراق العجمي:

1 ـ بلاد ما وراء النهر: كان علاء الدين محمد خوارزمشاه قد بعث ـ على إثر مقتل تجار المغول وهو مقيم بمدينة بخارى ـ بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، وقالوا بعد عودتهم: إن عدد المغول لا يبلغه الحصر، وإنهم من أصبر الناس على القتال، وأعرفهم بفنونه ولهم مصانع للسلاح، تكفي حاجتهم منه، ومواد تموينهم وافرة، وأوضح أولئك الجواسيس أن حقائق الأمور هناك تشير إلى أنه لا قبل لأحد بمقاتلة المغول[3]. ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورسلهم، وندم على ذلك، ولات ساعة مندم، ثم أخذ يعمل فكره ويدبر أمره[4]، واستشار رجلاً يثق به ويدعى الشهاب الخيوفي الفقيه، فلما مثل بين يديه قال له: قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه، وإجالة الرأي فيما نفعل، وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من التتار في عدد لا يحصى[5]. فأشار عليه الخيوفي بإعلان النفير العام، ودعوة من بقي من ملوك الأطراف ليلحقوا به في جيوشهم، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش سار بها إلى جانب نهر سيحون حيث حدود دولته الشرقية مع المغول[6]، غير أن أمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الرأي، وأشاروا بأنه من الأصوب ترك المغول حتى يعبروا سيحون، ويتقدموا في

---

(1) الحياة السياسية في العراق في العصر الأخير، للقزاز، ص: 231.

(2) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 191.

(3) الكامل لابن الأثير (9 ـ 313)، عودة الروح، ص: 364.

(4) الكامل لابن الأثير (12) 149 ـ 150) عودة الروح، ص: 364.

(5) عودة الروح، ص: 193.

(6) الكامل (9/ 331)، عودة الروح، ص: 193.

الوهاد، والصحارى والمضايق والوديان التي يجهلون مسالكها، حتى إذا وصلوا بخارى كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ، وبذلك يمكن الظهور عليهم، وإفناؤهم عن بكرة أبيهم[1]، ولم يلبث خوارزمشاه أن عمل على تجهيز جيشه للقاء المغول[2]، وبينما كان خوارزمشاه يسير في اتجاه الشرق، مجداً في طلب المغول عقب استعداده على هذا النحو، كان جنكيز خان يعبئ جيشاً كبيراً، ويلقي في جنده عند بداية الزحف غرباً هذه الأوامر الصارمة: سيروا معي لنمحق بقواتنا الرجل الذي ازدرى بنا واحتقرنا، إنكم ستشاركونني في انتصاراتي، وليكن قائد العشرة آمر الحظيرة منكم منتبهاً مطيعاً، كقائد العشرة آلاف: قائد الفرقة، ومن يخالف أو يفشل في إنجاز واجبه سيفقد حياته ونساءه وأولاده[3].

أ ـ الاستيلاء على مدينة أترار: بدأ جنكيز خان غزوه شرق الدولة الإسلامية في عام 615هـ/ 1218م، فقد وصل إلى حافة نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف[4] من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهرسيحون في الشرق، وجيحون في الغرب، لذا وضع خطته على أساس الإطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، بحيث يتعذر على الجيش المدافع صد الهجوم[5]، وهكذا تحركت الجيوش الأربعة في وقت واحد للانقضاض على بلاد ما وراء النهر والاستيلاء عليها وبدأ الخوارزميون بمهاجمة قوات المغول، وسرعان ما قامت الحرب سجالاً بين الفريقين، وكان الجانب المغولي فيها بقيادة أحد أبناء جنكيز خان، وقدر عدد القتلى من المسلمين عشرين ألفاً، ومن المغول بما لا يحصى كثرة، وفي الليلة الرابعة من القتال افترق الجيشان، ورجع المسلمون إلى بخارى حيث أمر خوارزمشاه أهلها وأهل سمرقند بالاستعداد للحصار، وترك في بخارى عشرين ألفاً وفي سمرقند خمسين ألفاً، ثم عاد إلى خوارزم وخراسان ليجمع العساكر[6]، كانت مدينة أترار محصنة تحصيناً قوياً، وبها حامية قوامها خمسون ألف رجل يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف على رأسهم «قراجة» وزير الأمير محمد خوارزمشاه، ودام الحصار خمسة أشهر، مما ترتب عليه

---

(1) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 193.

(2) الكامل في التاريخ (12/ 150)، عودة الروح للخلافة، ص: 193.

(3) عودة الروح، ص: 194.

(4) المصدر نفسه، ص: 194.

(5) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 100، عودة الروح، ص: 195.

(6) الكامل في التاريخ (9/ 331 ـ 332) عودة الروح، ص: 195.

عجز الجيش الخوارزمي عن المقاومة، ثم هزيمته، وبذلك تيسر لقوات المغول الاستيلاء على مدينة أترار التي تعد مفتاح ما وراء النهر[1]، لقد كان هجوم المغول على هذه المدينة عنيفاً، فقد كانوا يتوقون للثأر من «ينال خان» حاكم هذه المدينة وقاتل التجار، لقد استولوا على هذه المدينة عنوة سنة 616هـ/ 1219م) ونهبوها وطاردوا سكانها، وقد تقهقر ينال خان إلى قلعة المدينة واحتمى بها نحواً من شهر، فقد في أثنائه معظم رجاله، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليائس المستميت، ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يناوله إياها بعض النسوة، وأخيراً وقع في أيدي المغول الذين قادوه إلى معسكر جنكيز خان الذي كان في ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، ولكي ينتقم جنكيز خان منه عمد إلى التنكيل به، فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها في عينيه وأذنيه، وهكذا نفذ جنكيز خان وعيده في قاتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر[2].

ب ـ الاستيلاء على مدينة جند: أما عن الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة جوجي أكبر أبناء جنكيز خان، فكانت قبلته مدينة «جند» إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريباً، فلما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها، وإزاء هذا الاستعداد من قبل المغول انقسم الأهالي على أنفسهم، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة، ورأى فريق آخر لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة في الحال، لعل الأهالي يجدون في ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول، والظاهر أن هذا الرأي كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ما داخل المدينة، وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها، وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها، وقُتل من قتل مِنَ المغول، وبعد أن وضع جوجي على المدن المفتوحة حكاماً مخلصين، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم[3].

---

(1) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 195.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد، ص: 139.

(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 140.

ج ـ الاستيلاء على بنكت وخجنده: أما ثالث جيوش جنكيز خان التي سيرها للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، فقد سار إلى مدينة بنكت على نهر سيحون و«خجندة» إلى الجنوب منها، وقد تمكن المغول من دخول مدينة بنكت بعد أن سلمها الأهالي، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم، لكن هؤلاء المغول الذين لا يعرفون معنى للعهود والمواثيق، لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين وأعملوا القتل في رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق الثاني خيرة شبابه لينتفعوا به في أعمالهم الحربية، ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب ميممة شطر مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون، وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم، ومما يسترعي النظر أن «تيمور ملك» قائد الحامية الخوارزمية فيها، فضل أن يغادر المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر، بعيداً عن شاطئيه، حتى يكون في مأمن من غارات المغول، وعلى بعد كافٍ من مرمى سهامهم، وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندي مغولي، من أولئك الذين انتصروا انتصاراً مبيناً على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن، يتبعهم خمسين ألفاً من خيرة شباب الخوارزميين، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر «تيمور ملك»، وقد كلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر، ليكونوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يعبروا منها إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته، على أن «تيمور ملك» صمم على إفساد خطتهم، فصنع اثنتي عشرة سفينة كبيرة غطى جدرانها بالجلود، وكان يرسل في كل يوم ستاً من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة فيرمونهم بسهامهم، ولكن «تيمور ملك» وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدي نفعاً فصمم على الهرب، وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركباً، سار في النهر متجهاً نحو الشمال على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر، وقد علم وهو يسير في النهر أن جوجي بن جنكيز خان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من «جند» على جانبي نهر سيحون، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن، واضطر «تيمور ملك» أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس، ومع ذلك استطاع أن يخدع مطارديه وأن يصل في النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه[1].

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.

د ـ استيلاء المغول على بخارى: كانت مدينة بخارى من بين مدن بلاد ما وراء النهر التي طمع المغول في الاستحواذ عليها، فنزل جنكيز خان بظاهرها في أواخر (عام 616هـ/ 1219م) وبدأ لفوره يضرب حصاراً محكماً عليها، وكانت القوة الإسلامية التي وكل إليها أمر الدفاع عنها تتكون من عشرين ألفاً[1]. واستمر الهجوم على بخارى ثلاثة أيام، وهي الآن «في دولة أوزبكستان حالياً»، وهي بلدة الإمام الجليل والمحدث العظيم محمد إسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري. وبعد ثلاثة أيام ظهر بعدها للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقلة حيلته، وعندئذ قرر التقهقر إلى خراسان، التماساً للنجاة، ولكن كيف السبيل إلى الانسحاب مع هذه الصفوف المتراصة من الجيش المغولي؟ لقد عول الجيش الإسلامي على مواصلة الحرب، وحقق شيئاً من النجاح، لكنه أرغم أخيراً على الارتداد، ولم يزل يطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون حتى أنزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من القتل إلا شرذمة يسيرة[2]، وأحس الخوارزميون الذين بقوا في المدينة ـ إثر ذلك ـ أن قوتهم ضعفت وبدأ اليأس يدب في نفوسهم وهم يرون خيرة الجند يغادرها، فأرسلوا قاضي المدينة بدر الدين يعرض تسليم المدينة ويطلب الأمان، فأجابه جنكيز خان إلى ذلك، وفتحت أبوابها رابع ذي الحجة (سنة 616هـ/ 1219م)[3]. ودخل جنكيز خان المدينة ومر أمام مسجد هاشم دخله ممتطياً جواده وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فلما قيل له أن هذا إنما هو بيت الله، نزل إلى أرض المسجد وصعد المنبر وصاح قائلاً بأعلى صوته: لقد قطع العلف أعط الخيل طعاماً. وقد فهم المغول من هذه العبارة أن جنكيز خان يشير إلى جنده بأن ينهبوا المدينة، وقد حمل المغول إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي نسخاً كثيرة من القرآن الكريم وقعت تحت حوافر الخيل، كما أهان المغول الدين الإسلامي، بإحضارهم قِرَب الخمر إلى المسجد، كما أحضروا المغنيين من المدن المختلفة، وأخذوا يشربون ويطربون[4]، وأعيان البلد وكبار الأئمة يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية، وكان من هؤلاء

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 100، عودة الروح، ص: 198.

(2) الكامل في التاريخ (9/ 332)، عودة الروح، ص: 198.

(3) الكامل في التاريخ (9/ 332)، عودة الروح، ص: 198.

(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.

الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال[1].

وخرج جنكيز خان بعد ذلك وجمع سكان المدينة وطلب منهم أن يعينوا لهم أكثر هذا الجمع ثراء، فعينوا له مائتين وعشرين بينهم ثمانون من الأغراب، فطلب منهم أن يقتربوا منه، وأخذ يتحدث إليهم، وبعد أن بين لهم أن الغرض من حملته هو أن يثأر من السلطان الخوارزمي قال: لقد ارتكبتم خطأً فاحشاً، وإن الرؤساء هم المجرمون، وإذا سألتموني عن نفسي قلت لكم: إنني نقمة الله على الأرض، فإذا لم تكونوا مجرمين فإن الله ما كان يسمح لي بأن أعاقبكم[2]، وبعد أن فرغ جنكيز خان من حديثه أمرهم أن يخرجوا كنوزهم المدفونة وألا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه، وقد ترك جنكيز خان كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمي لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد الحياة، على أن هذه الحامية الصغيرة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشر يوماً، وقتلت عدداً كبيراً من المغول، كما قتلت عدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار[3].

ويظهر أن جنكيز خان ركب رأسه عندما سقط عدد كبير من المغول ضحايا في ساحة القتال، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم، لا يحمل أحد منهم غير ملابسه التي يرتديها، ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان[4]، ووصف ابن الأثير ما فعله المغول في بخارى فقال: ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط جنكيز خان بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم، فكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس[5].

(1) تاريخ بخارى، ص: 199، عودة الروح للخلافة، ص: 199.
(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 144.
(3) المصدر نفسه، ص: 145.
(4) المصدر نفسه، ص: 145
(5) الكامل (9/ 333)، عودة الروح، ص: 200.

وأما ابن كثير فقد قال: فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله ـ عز وجل ـ وأسروا الذرية، والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهلهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج بالبلد[1]

ومما هو جدير بالذكر أن المغول أشعلوا النار في المدينة فاحترقت بأسرها، إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب، ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خراسان، وهكذا شرد المغول أهالي مدينة بخارى الذين اشتهروا بولعهم بالعلوم والفنون، ومما هو جدير بالذكر أن أحد سكان هذه المدينة لما وصل إلى إقليم خراسان أجمل ما أحدثه المغول في مدينته في هذه العبارة القصيرة التي عبر فيها تعبيراً صادقاً عما حدث: «أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا[2]»، وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالاً بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير[3].

هـ ـ اجتياح سمرقند 617هـ: فبعد أن دمر التتار مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى المدينة المجاورة «سمرقند» وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أعيان المسلمين من مدينة بخارى، وكما يقول ابن الأثير: فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل[4]، وكانوا يصطحبون الأسارى معهم لأسباب كثيرة منها:

- كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علماً من أعلام التتار يرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

- كانوا يجبرون الأسارى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم، ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه.

---

(1) البداية والنهاية (17 ـ 80).

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 145.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: قصة التتار، د. السرجاني، ص: 30.

- كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف كالدروع لهم، ويختبئون خلفهم، ويطلقون من خلفهم السهام والرماح وهم يحتمون بهم.

- كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

- كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال أسر الرجال من التتار في القتال، وهذا قليل لقلة الهزائم في جيش التتار[1].

كانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً مهماً للتجارة، ولذلك أحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها عديد من الأبراج، للدفاع عنها، وكانت حاميتها ـ عندما فر منها محمد خوارزمشاه غرباً ـ تتألف من خمسين ألف مقاتل من الخوارزمية على ما يذكر ابن الأثير[2]، ويرى ابن العبري، أنها كانت أربعين ألف فارس، وكان جنكيز خان على علم بكل هذه الاستعدادات الدفاعية، لذا وضع خطته الأصلية على أساس أنه سيخوض عند أسوارها حرباً شديدة قاسية، فرتب أموره على أن تلتقي كل قواته ـ والتي بدأ بها غزو بلاد ما وراء النهر من شرق أترار، عند سمرقند، واصطحب معه عدداً كبيراً من أسرى بخارى ليستعين بهم في عملية الحصار[3]، ولما بلغ مشارف سمرقند وجد أن جنوده من الكثرة بحيث أنه استغنى عن ثلاثين ألف منهم، عهد إليهم مطاردة الأمير علاء الدين محمد خوارزمشاه[4].

ومهد جنكيز خان للاستيلاء على سمرقند بإخضاع جميع المناطق التي كانت تحيط بها إخضاعاً يتعذر معه أن يستفيد خصومه منها أثناء حصاره لها، ونجح في تحقيق هذه الغاية[5]، وكان الخان المغولي يقدر أن حصن المدينة لن يتيسر له فتحه قبل بضعة سنوات، مستنداً في هذا الاعتقاد إلى ما أبداه قائدا حاميتهما من ضروب الشجاعة، فضلاً عما أنزلاه بقوات المغول من خسائر، لكنه رأى أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم

(1) قصة التتار، د. السرجاني، ص: 31.
(2) الكامل (9 ـ 333)، عودة الروح، ص: 201.
(3) الكامل (9 ـ 333)، تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.
(4) تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.
(5) تاريخ بخارى، ص: 173، عودة الروح، ص: 201.

على هذه المدينة[1]، فحالفه النجاح في الاستيلاء على بعض أبوابها مما ترتب عليه قيام قادة الجيش الخوارزمي بطلب الأمان وتسليم المدينة، فبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين[2].

ووافق جنكيز خان على فكرة التسليم، ووعد هؤلاء الأتراك بأنهم سيدخلهم في جيشه، لذا خرجوا إليه مع عائلاتهم، وانضموا إلى عسكر المغول، وأراد جنكيز خان أن يؤكد ـ عملياً ـ وعوده، فأمر بحلق شعورهم على عادة المغول ـ خداعاً وتمويهاً ـ غير أنه ما كاد المساء يقبل حتى قتلوا منهم ثلاثين ألفاً من أبرزهم أمراؤهم[3]، وكان من نتيجة ذلك أن أيقن أهل المدينة ومن بقي من أفراد حاميتها بالهلاك، فأوفدوا في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يعرضون على جنكيز خان التسليم، مشترطين أن يأمنهم على حياتهم، فأجابهم الخان إلى ما طلبوا، وحينئذ فتحت الأبواب، على أن المغول لم يرعوا عهدهم إذ أمروا السكان بالخروج من المدينة، ثم وضعوا السيف فيمن لم يخرج، واستولوا على قلعتها، ونهبوا البلد، وأحرقوا الجوامع، وكان ذلك في المحرم سنة 617هـ/ 1220م وأرغم جنكيز خان القادرين من أهل سمرقند على حمل السلاح جنوداً في صفوف المغول، وبعث مهرة البستانيين من أهلها إلى «قراقورم»، لتزيينها بمنتزهات على نحو مغاني سمرقند[4]، كما ألحق مهرة الصناع وخصوصاً نساجي الحرير والقطن بخدمة زوجات جنكيز خان وأقربائه كرقيق، وسيّر بعضهم مع الخان إلى خراسان[5]، وسمح لخمسين ألفاً من السكان بالعودة إلى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية[6]، وقد قدر ابن العبري هذه الفدية بمائتي ألف دينار، قام بجمعها اثنان من كبار رجال سمرقند، وهكذا تم استيلاء المغول على هذه المدينة في أوائل سنة 617هـ/ 1220م، ووصف ابن الأثير ما أحدثه المغول في المدينة فقال: فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه،

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 124، عودة الروح، ص: 202.

(2) الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية، ص: 33 ـ 34.

(3) تاريخ بخارى، ص: 116، عودة الروح، ص: 202.

(4) تاريخ بخارى، ص: 174، عودة الروح، ص: 203.

(5) عودة الروح، ص: 203.

(6) الدولة الخوارزمية، ص: 147.

فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع...، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي[1].

ورغم ما حدث من تخريب في هذه المدينة فقد فرض جنكيز خان على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[2]، ولكي ندرك ما حل بحاضرة بلاد ما وراء النهر إثر الغزو المغولي نورد ما ذكره شانج شون، وهو أسقف صيني صحب جنكيز خان في غزواته وكتب مؤلفاً بالصينية عن هذه الرحلة، فقد ذكر أن مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم أكثر من مائة ألف أسرة، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة لم يبق فيها سوى ربع عدد سكانها، وذكر أن كثيرين من العمال الصينيين انتشروا في هذه المدينة، ورغم أن الممتلكات ظلت في أيدي المسلمين فإن إدارتها كانت تحت إشراف جيش الاحتلال المغولي[3]. وبعد سقوط عاصمة السلطان محمد، سمرقند، وهروب الشاه الخوارزمي من وجه القوات المغولية، أصبحت أراضي الأسرة الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها دون حامٍ ضد قوات جنكيز خان التي أصبحت حرة تسير عبرها طولاً وعرضاً دون أن تجد معارضاً لها، لذلك فلا عجب أن نجد المدن والمقاطعات تتساقط واحدة تلو الأخرى، في أيدي القوات المغولية المنتصرة الزاحفة، وما إن قارب فصل ربيع ذلك العام حتى أكمل المغول فتحهم لجميع أراضي السلطان محمد في إقليم ما وراء النهر، من مدينة جند في الشمال إلى بخارى وسمرقند في الجنوب، فبناكت وخجندة في الوسط[4].

وهكذا بانهيار جميع بلاد ما وراء النهر انهارت خطوط الدفاع التي اعتمد الجيش الإسلامي عليها، وتيسر للمغول بعد ذلك الاستيلاء على أقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية من غير عناء[5].

(1) الكامل في التاريخ (12/ 169)، الدولة الخوارزمية، ص: 147.
(2) الدولة الخوارزمية، ص: 148.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.
(4) سقوط الدولة العباسية، ص: 123.
(5) عودة الروح للخلافة، ص: 203.

2 ـ اجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزمشاه: يبدو أن الضربات التي أنزلها المغول ببعض أجزاء الدولة الخوارزمية، وانتهت بسقوط حصون ومدن أترار وبجند وبنكت وخجندة وبخارى، وغيرها، كان لها تأثير بالغ في نفس علاء الدين محمد خوارزمشاه فعوَّل بعد وصوله إلى سمرقند من بخارى على الرحيل إلى مكان أمين يجبر فيه أمره أو يبحث عن إمكانية التصدي لهذا العدو الغاشم، لذا عقد في سمرقند مجلساً ضم وزراءه وكبار قواده للبحث فيما يمكن عمله لمقاومة المغول، وظهر في هذا الاجتماع اتجاهان: أولهما يرى عدم جدوى الدفاع عن بلاد ما وراء النهر، وأن يركز الخوارزميون اهتمامهم على حماية الأقاليم التي تقع غربي جيحون، وثانيهما يفضل الانسحاب جنوباً إلى غزنة[1]، وقد استصوب خوارزمشاه الرأي الأخير، وتوجه نحو غزنة، وبينما هو سائر إليها قدم عليه وهو بمدينة بلخ وزير ابنه ركن الدين قد وجهه إلى أبيه لينتفع بخبرته في ظاهر الأمر وللتخلص من حكمه واستبداده في الحقيقة، فلما اكتشف الوزير ما يراد به احتال ليرجع إلى العراق العجمي موطنه الأصلي، لذا استغل ثقة علاء الدين محمد خوارزمشاه فيه، وعرض عليه المسير إلى العراق العجمي حيث يجد فيه المال والرجال والدرع الواقي من المغول، فقبل الأمير الخوارزمي مشورته وسار إلى نيسابور إحدى مدن خراسان، غيرأنه لم يقم بها إلا فترة قصيرة، إذ بلغه أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأصبحوا على مقربة منه، وأنهم يجدون في البحث عنه، فلم يكن في وسعه حينئذ إلا أن يغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي[2].

وكانت قوات المغول تتعقب علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي فر هارباً من سمرقند إلى خراسان، فلما وصلت هذه القوات إلى نيسابور وجدوه قد غادرها فأخذوا يتبعون أثره، واستطاع المغول على مقربة من الري أن يوقعوا بجيش خوارزمشاه الرئيس، الأمر الذي جعل الأمير الخوارزمي يفكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل «بمرج دولة آباد» من أعمال همذان، ووصل معه من جيشه زهاء عشرين ألف فارس، فواجه زحف القوات المغولية[3]، مما اضطره إلى الاتجاه إلى إقليم مازندران جنوبي بحر قزوين، ووصل إلى مرسى يعرف «باب سكون»،

---

(1) عودة الروح، ص: 204.

(2) الكامل (9/ 333).

(3) الكامل (9/ 333 ـ 334)، عودة الروح، ص: 205.

يقول النسوي: وظل في إحدى قرى هذا الميناء يصلي بالناس في المسجد وينذر لله لئن كتبت له السلامة وأعيد له ملكه ليقيمن العدل، إلى أن انكشف أمره، وهاجم التتار موضعه، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة أمينة في إحدى جزر بحر الخزر[1]، تدعى جزيرة «أوغر تشالي»، أو جيركن الحالية، على خلاف في ذلك[2]، وقد رمى المغول زورقه بالسهام، فلما أخطأته تحمس بعضهم فسبح خلفه حرصاً على أخذه فغرقوا، ووصل خوارزمشاه لمأمنه عليلاً، وما لبث أن فارق الحياة في تلك الجزيرة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 617هـ/ 1220م[3].

وقد وصف النسوي حالة علاء الدين في أيامه الأخيرة فقال: حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحياة، وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، لا ركون إليها إلا سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الألباب. وقد وصل علاء الدين أخيراً إلى إحدى الجزر الصغيرة طلباً للأمان، وأقام في إحدى الخيام، على أن الأهالي الذين يقيمون على شاطئ مازندران كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضرورات الحياة، وفي نظير ذلك كان السلطان يوصي بإقطاعهم الإقطاعات، ولما استعاد جلال الدين منكبرتي أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الإقطاعات لأصحابها، ونلاحظ أن كل من كان معه علامة من علاء الدين كان جلال الدين منكبرتي يقطعه إقطاعاً، ولما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة في أيدي المغول، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه، وآق شاه، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين، بعد أن أعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية[4]، ومما قاله لأبنائه، هذه العبارة التي ذكرها النسوي: إن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهنت قواعدها، وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أنيابه وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكبرتي، وها أنا موليه العهد، فعليكما بطاعته[5]، وبعد أن

(1) سيرة السلطان، ص: 106.

(2) تاريخ بخارى، ص: 177، عودة الروح، ص: 205.

(3) سيرة السلطان، ص: 107 ، 108.

(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 151.

(5) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 152.

قضى علاء الدين في هذه الجزيرة شهراً، قضى نحبه ودفن فيها، ومما يؤسف له أن أتباعه عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى أن شمس الدين محمود وكان من المقربين إليه خلع قميصه وكفنه به، ويروي السيوطي أنه كفن بشاش فراش كان معه[1]، وقد وصف ابن الوردي حالة السلطان علاء الدين خوارزمشاه في أواخر أيامه فقال:

وفارق المسكين أوطانه ... وملكه ممتحناً بالمرض

وكم حوى من جوهر مثمن ... فما فدى الجوهر هذا العرض

وقد ذكر النسوي الذي عاصر هذه الحوادث، وخدم في بيوتات الخوارزميين بعض أبيات تصور حال علاء الدين في أيام سطوته الأولى وحاله بعد أن مالت به الأيام أبدع تصوير:

أذل الملوك وصاد القروم ... وصير كل عزيز ذليلا

وحف الملوك به خاضعين ... وزفوا إليه رعيلا رعيلا

فما تمكن من أمره ... وصارت له الأرض إلا قليلا

وأوهمه العز أن الزمان ... إذا رامه ارتد عنه كليلا

أتته المنية مغتاظة ... وسلت عليه حساماً صقيلا

فلم تغن عنه حماة الرجال ... ولم يجد قيل عليه فقيلا

كذلك يفعل بالشامتين ... ويفنيهم الدهر جيلاً فجيلا[2]

وكان هدف المغول القبض على علاء الدين محمد خوارزمشاه، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق هذه الأمنية، ومع ذلك فإنهم استولوا على كثير من المدن والبلدان التي صادفتهم وهم يطاردونه، ومن أبرزها «مازندران» ذات القلاع التي اشتهرت بمناعتها وحصانتها ولم يلاقوا في الاستيلاء عليها سنة 617هـ/ 1220م مقاومة تذكر[3]، كذلك اتجهت بعض القوات المغولية إلى الري فوصلتها على حين غفلة من أهلها، وما لبثت أن استولت عليها وعاثت فيها نهباً وسلباً[4]، ولم يقم المغول في الري بعد استيلائهم عليه بل مضوا مسرعين في أثر خوارزمشاه ينهبون كل مدينة أو قرية يمرون عليها،

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: 113.

(2) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 48، الدولة الخوارزمية، ص: 153.

(3) عودة الروح للخلافة، ص: 206.

(4) تاريخ الخميسي (2/ 368)، عودة الخلافة، ص: 206.

ويضعون السيف في رقاب أهلها، ولا يبقون على شيء فيها، فلما وصلوا ظاهر همذان التقى بهم رئيسها يعرض عليهم الصلح، ويقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وغير ذلك من الهدايا الثمينة، فوافقوا على منح أهلها الأمن، ومالوا عنها إلى زنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها وأخذوا يذودون عنها في قتال عنيد انتهى بهزيمتهم ودخولها في حوزة المغول[1].

ثم اتجه المغول إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى عاصمة الإقليم مروا بمدينة سنجار فنهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها ثم ساروا إلى قوس فامتنع أهلها عنهم، ولم يزالوا يحاصرونها حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها[2]،ولما وصلوا إلى المدينة «تبريز»صانعهم صاحبها أوزبك بن البهلوان، وقدم لهم كثيراً من الهدايا، متمثلة في المال والثياب والدواب، وأعلن تبعية بلاده لهم[3].

على أن المغول ما لبثوا أن اضطروا بسبب برد الشتاء القارس إلى الرحيل عن تبريز واتجهوا عبر سهول موقان إلى السواحل الغربية لبحر قزوين طلباً للدفء، وإذ هم يقيمون في هذه السواحل عقد حكام جورجيا معاهدة دفاعية مع أتابكية أذربيجان ومع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب بلاد الجزيرة وخلاط للانقضاض على المغول، وحددوا بدء الهجوم بفصل الربيع، غيرأن المغول فطنوا إلى ما يدبر ضدهم، وعمدوا إلى القيام بهجوم على هذه القرى، فشتتوا شملها، واستولوا على حصون جورجيا وخربوها، كما توغلوا في أراضيها حتى وصلوا إلى حاضرتها «تفليس» وكان ذلك في ذي القعدة سنة 617هـ/ 1220م[4]، ولما تم للمغول الاستيلاء على إقليم جورجيا عادوا ثانية إلى إقليم أذربيجان الذي انتفض عليهم، وما كادوا يصلون إلى «تبريز» حاضرة هذا الإقليم حتى أعلن أهلها الاستسلام، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة، ثم اتجهت قوات المغول صوب مراغة إحدى أمهات هذا الإقليم، وكانت تحكمها أميرة اتخذت إحدى القلاع حصناً لها، وشرعت تقاوم هجوم المغول الذين ضربوا على هذه المدينة حصاراً محكماً، استخدموا فيه مجانيقهم، وما لبثت المدينة أن سقطت في أيديهم رابع صفر سنة 618هـ/ 1221م، يقول ابن الأثير: ووضعوا السيف في أهلها،

---

(1) العبر للذهبي (5/ 644 ـ 645) عودة الروح، ص: 207.

(2) تاريخ ابن خلدون (5/ 520)، عودة الروح، ص: 207.

(3) عودة الروح، ص: 207.

(4) المصدر نفسه، ص: 207، مرآة الجنان (4/ 37 ـ 38).

فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما صلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه[1]، وكي يتأكد المغول من فناء جميع أهلها أمروا بعض الأسرى المسلمين أن ينادوا في شوارعها بأن المغول قد رحلوا، فلما اطمأن من اختفى من أهلها في الدروب والآجام وخرجوا من مخابئهم قبض المغول عليهم وقتلوهم عن آخرهم[2].

لقد تعرض شرق الدولة الإسلامية لهذا الغزو المغولي، على هذه الصورة المروعة، ومع ذلك فإن خليفة بغداد الناصر لدين الله لم تبد منه أية محاولة لصده، كما لم يستمع إلى الرسل الذين قدموا إليه من البلاد التي نكبها المغول، وقد حمل موقف الخليفة السلبي من هذه البلاد، وعدم الإسهام في نجدتها بعض المؤرخين على اتهامه بالاتصال بالمغول، وتحريضهم على غزو الدولة الخوارزمية، على أن الخليفة الناصر بدأ يشعر بخطر الزحف المغولي عندما رحل المغول عن مدينة مراغة، وقصدوا مدينة إربل، فأثار بعض أمراء المسلمين الخاضعين له، وقد عبر ابن الأثير عما انتاب أهل الموصل من الخوف حين شرع المغول في الزحف على مدينة أربل بقوله: ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا حتى إن بعض الناس هم بالجلاء خوفاً من السيف[3]، وانزعج الخليفة الناصر حين علم بزحف المغول على مدينة إربل، وكان يلي إمارتها حينئذ مظفر الدين كوكبري من قبل خليفة بغداد، فقد خشي الناصر أن يتجه قواد المغول إلى العراق العربي عن طريق دقوقا بدلاً من إربل، بعد أن يكتشفوا وعورة مسالكها، وصعوبة الوصول إليها، لذا بعث برسل تحمل أوامره إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة، يأمرهم بالتوجه إلى مدينة دقوقا في عسكرهم ليصدوا المغول إن هم عدلوا عن إربل إليها، توطئة لاقتحام العراق العربي، فسير بدر الدين بعض فرق جيشه إلى دقوقا، وغادر مظفر الدين إربل في صفر سنة 618هـ/ 1221م مع عساكره وتبعهم جمع كثير من العساكر المتطوعة، أما الملك الأشرف فاعتذر عن الحضور بنفسه في عسكره إلى دقوقا بوصول الملك المعظم عيسى بن الملك العادل من دمشق، يستنجده على الفرنج الذين كانوا وقتذاك قد استولوا على دمياط[4].

(1) مرآة الجنان لليافعي (4/ 37 ـ 38)، عودة الروح، ص: 208.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 134 ـ 135.

(3) عودة الروح، ص: 209، الكامل (12/ 155 ـ 156).

(4) مرآة الجنان (4/ 38 ، 48)، عودة الروح، ص: 210.

ووصلت قوات أمراء إربل والموصل والجزيرة إلى دقوقا حيث سير الخليفة الناصر إليهم جيشاً قوامه ثمانمائة فارس[1]، بقيادة مملوكه قشتمر، وأسند الخليفة إلى الأمير مظفر الدين كوكبري قيادة القوات الإسلامية ووعده بمده بالعسكر، غير أن حكام المسلمين عجزوا عن إعداد القوة اللازمة لمواجهة المغول، ولم يكد يصل إلى المغول نبأ تجمع القوى الإسلامية للقائهم حتى رجعوا القهقرى وهم يحسبون أن عسكر المسلمين يتبعهم، ورحلوا إلى العراق العجمي، أما العسكر الإسلامي فأقام عند دقوقا فترة تبين له أثناءها أن العدو قد انصرف عنهم، كما أن المدد الموعود به لم يصل إليهم، لذلك تفرقوا، وعاد الجميع إلى بلادهم سنة 618هـ/ 1221م[2]، وقضى المغول الفترة التالية متنقلين بين المدن الإسلامية المختلفة في العراق العجمي وأذربيجان وأران وجورجيا مدمرين مخربين ما بقي من مدنها، حاملين ما يستطيعون حمله من خيراتها، ثم عبر القائدان المغوليان المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا، وسار المغول بقيادة هذين القائدين إلى بلغاريا وأوصلوا الرعب إلى أقصى حدود أوروبا[3].

3 ـ استيلاء المغول على خوارزم: كان إقليم خوارزم من الأقاليم التي تسيطر عليها تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزمشاه فقد كان نفوذها في هذا الإقليم يفوق نفوذ السلطان نفسه، وذلك بفضل أتباعها المخلصين من قبيلة كانكالي التي تسكن السهول الواقعة شمال خوارزم وشمال شرقي بحر قزوين، وبرغم هذا الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، فإنه لما رأى الخطر ماثلاً أمام عينيه، أرسل إليها في خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هي وحاشيتها إلى إقليم مازندران، جنوب بحر قزوين، حرصاً على حياتها، كما نرى جنكيز خان يرسل إليها عندما سمع بذلك الشقاق الذي قام بين علاء الدين وأمه، يستميلها إلى جانبه، ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم فتوحاته، على أن السلطانة لم تهتم بما جاء في هذه الرسالة[4]، ولما علمت تركان خاتون بتقهقر السلطان علاء الدين محمد، عزمت في أواخر سنة 616هـ/ 1219م على مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها، ومع أبناء علاء الدين، وحملت معها كل ما يمكن

---

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 135 ـ 136.

(2) عودة الروح، ص: 210.

(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 158.

(4) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 161.

حمله من كنوز، وقبل أن ترحل ارتكبت عملاً بربرياً فاحشاً ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين قد استولى على أملاكهم، والذين كانوا في سجون خوارزم، فقتلت أبناء طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق وأمراء بلخ وترمذ وباميان وابني آخر ملوك الدولة الغورية، وكثيرين من الأمراء الآخرين[1]. رحلت التركان خاتون من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي، ثم اعتصمت وهي في الطريق بإحدى قلاع مازندران الحصينة، وقد استولى القائد المغولي «سوبوتاي» في أثناء مطاردته علاء الدين خوارزمشاه على هذه القلعة، التي سلمت بعد ثلاثة أشهر حين نفذ ما ادخره المحاصرون من مياه للشرب، ووقعت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول الذين قادوها هي وحاشيتها وأبناء علاء الدين إلى معسكر جنكيز خان، وقد ظلت تركان خاتون أسيرة في أيدي المغول حتى رحلوا إلى بلادهم وصحبوها معهم إلى هناك، حيث ماتت سنة 630هـ/ 1233م، وأما أبناء علاء الدين الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى ابنه جغطاي اثنتين من بنات علاء الدين، فتزوج واحدة وأعطى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين لحاجبه دانشمند[2]، وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين وبات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول[3].

أ ـ انتقال جلال الدين منكبرتي من خوارزم: بعد وفاة علاء الدين في الجزيرة المنعزلة في بحر قزوين على نحو ما رأينا، عبر أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وآق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور، إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون التي انشغلت بنفسها، وفاتها أن تعين حاكماً على هذا الإقليم، وقد وصف النسوي وصول جلال الدين منكبرتي وأخويه إلى إقليم خوارزم في عبارة نوردها في هذا المقام: لما اندرج السلطان إلى رحمة الله ودفن بالجزيرة، ركب جلال الدين البحر إلى خوارزم بأخويه المذكورين (أزلاغ شاه وآق شاه)... وتباشر الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه، فظفر بدوائه، واجتمعت عندهم من العساكر السلطانية زهاء سبعة آلاف فارس[4].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 161.
(2) المصدر نفسه، ص: 161.
(3) المصدر نفسه، ص: 162.
(4) المصدر نفسه، ص: 162.

وعلى الرغم من أن جلال الدين منكبرتي وأخويه استطاعوا أن يجمعوا جيشاً كبيراً لمواجهة المغول، فقد كان من سوء حظ الخوارزميين أن هذا الجيش كان يتكون من تلك القبائل التركية التي تنتمي إليها تركان خاتون والتي لم ترض عن تولي جلال الدين منكبرتي الحكم بعد أبيه، وقد أراد جلال الدين أن يخضع هذه الجيوش الثائرة بالقوة فتآمروا على قتله، ولم يجد جلال الدين مخرجاً إلا الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك، ففر إلى خراسان بصحبة ثلاثمائة فارس تحت إمرة «تيمور ملك» حاكم مدينة خنجده، وكان قد فر إلى إقليم خوارزم بعد غزو المغول مدينته كما رأينا، وقد عبر جلال الدين هذه الصحراء التي تفصل إقليم خوارزم عن خراسان في ستة عشر يوماً، وصل بعدها إلى الأراضي القريبة من مدينة نسا[1].

وأما الجند المتآمرون فقد بقوا في خوارزم بعد رحيل جلال الدين عنها، ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا أيضاً إلى خراسان بعد أن سار إليهم المغول، وبرحيل جلال الدين منكبرتي عن إقليم خوارزم ضاع آخر أمل في إنقاذ هذا الإقليم، إذ لم يعد هناك من قوة تستطيع أن تقف في وجه التيار المغولي، وكان في قدوم أولاد علاء الدين خوارزمشاه مدينة خوارزم وجمعهم الجيوش الكثيرة فيها، ما استلفت نظر جنكيز خان، فسير إلى هذه المدينة جيشاً تحت قيادة أبنائه جوجي وجغتاي وأغطاي الذين كانوا قد أتموا فتح بلاد ما وراء النهر بالاشتراك مع جيوش جنكيز خان، ولكي يحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين من كل جهة أمر جيوشه في خراسان بأن تقف على الحدود الجنوبية[2] للصحراء التي تفصل خوارزم عن خراسان، وقد عسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة نسا، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين، ثم طافوا بهما في أنحاء هذه المقاطعة إمعاناً في السخرية في الخوارزميين، وإرهاباً للأهالي المتمردين، وفي هذه الأثناء (ذو القعدة سنة 617هـ / مايو سنة 1220م) كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم، وتقع على مقربة من مصب نهر جيحون في إقليم صحراوي، إذ لا نجد فيما عدا هذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة وقرى متناثرة إلا أراضٍ صحراوية[3].

ب ـ حصار مدينة خوارزم: كانت الجيوش المغولية تحت قيادة جوجي وأغتاي

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 163.

(2) المصدر نفسه، ص: 163.

(3) المصدر نفسه، ص: 164.

من أبناء جنكيز خان، كما ذكرنا، ولكن القيادة العليا كانت في يد جوجي أكبر أبنائه، وهكذا كان المغول أقوياء بروحهم المعنوية وبرجالهم وبمؤازرة جنكيز خان لهم، أما الجيوش الخوارزمية، فكانت لا ضابط لها، وخاصة بعد أن فر جلال الدين منكبرتي وأخواه، كما كانت أكثرية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية وهي لا تعدو من الجيوش المرتزقة التي لا يهمها في كثير أو قليل أن تدافع عن الأراضي الخوارزمية.

وصل القوات الثلاثة إلى المدينة وطلبوا من أهلها التسليم ووعدوهم حسن المعاملة وأعلمهم جوجي أن أباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه وأنه حريص على أن يبقي حاضرة هذا الإقليم سالمة من التخريب، كما أخبرهم أنه حذر جنوده ألا يمسوا هذا الإقليم بأذى[1].

هذا إلّا أن السلطان المتوفى علاء الدين خوارزمشاه كان قد أرسل إلى أهالي هذه المدينة على إثر تقهقره وفراره ينصحهم بالتسليم وعدم المقاومة، صوناً لأرواحهم، وقد جاء في رسالته لهم ما يأتي: إن لأهل خوارزم علينا وعلى سلفنا من الحقوق المتلاحقة والسوالف الحاضرة والسابقة ما يجب علينا النصح لهم، والإشفاق عليهم، وهذا العدو عدو غالب، فعليكم بالمسالمة والطريق الأرفق ودفع الشر بالوجه الأوفق[2]. ورغم تحذير جوجي ونصح السلطان الخوارزمي انقسم السكان إلى معسكرين: فريق منهما يؤمن بضرورة التسليم وفريق آخر يرى ضرورة المقاومة والدفاع عن وطنهم، وقد انتصر أنصار الرأي الثاني ووقفت المدينة موقف الدفاع، واستعد السكان للمقاومة، ولما أدرك المغول عزم الخوارزميين على المقاومة استعدوا بدورهم للقتال فنصبوا حول المدينة آلات الحرب من مجانيق ومتاريس وغيرها، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار التي يقذفونها على المدن المحاصرة بواسطة المجانيق فقد اقتلعوا عدداً كبيراً من أشجار التوت وقطعوا سيقانها قطعاً مستديرة تركوها فترة من الزمن في الماء حتى ازدادت قوة، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم لتحطيم أسوار المدينة[3]، وبينما كانت استعدادات المغول قائمة على قدم وساق، وصل كثير من أسرى البلاد الخاضعة الذين استغلهم المغول في

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 164.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 93.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 93.

حفر الخنادق حول المدينة الذين أنجزوا هذا العمل في غضون عشرة أيام[1].

جـ ـ هجوم على المدينة واحتلالها: ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية قام ثلاثة آلاف منهم بهجوم كان النصر فيه حليف الخوارزميين، فظنوا أن انتصارهم أصبح من الأمور المحققة، وساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية، على أن هزيمة المغول في هذه المرة ترجع إلى تلك الفوضى التي حلت بالجيوش المغولية، نتيجة لخلاف نشأ بين جوجي وجغتاي ابني جنكيز خان، ورغم هذا النزاع، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر أرسل قوات المغول في خلالها إلى جنكيز خان ـ وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون ـ يطلبون منه مدداً يعوض ما خسروه أمام مدينة خوارزم، كما نقلوا إليه أنباء الخلاف الذي نشأ بين ابنيه، وما أدى إليه من شقاق وفساد وفوضى في صفوف الجيش المغولي، وقد استاء جنكيز خان عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد وبعث أوامره بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاي، وأمره أن يصلح من أمر أخويه، ولما أعاد القائد الجديد تنظيم جيشه وقضى على تلك الفوضى التي انتشرت في صفوف الجيش أمر جنده بالهجوم على المدينة، واستطاع المغول في النهاية أن يخترقوا أسوارها وأن يرفعوا أعلام النصر على هذه الأسوار، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها، وعلى الرغم من نجاح المغول في اختراق حصون المدينة صمم الخوارزميون على الاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد ساهم النساء والأطفال في هذا الجهاد[2].

واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، وأخيراً وجد السكان أنفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة، وبعد أن أعيتهم الحيلة وضاقت بهم السبل عرضوا على المغول التسليم، فأرسل الفقيه «عالي الدين»، محتسب خوارزم إلى قائد الجيش المغولي الذي أولاه احترامه وأمر بأن تفرد له خيمة خاصة، ولما آن الوقت الذي مثل فيه الرسول الخوارزمي في حضرة القائد المغولي قال له: إننا شاهدنا من هيبة الخان، وقد آن أن نشاهد من مرحمته، فغضب القائد المغولي وقال: ماذا رأوه من هيبتي، وقد أفنوا الرجال وطاولوا القتال؟ فأنا الذي شاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتي[3]. وقد أمر

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 165.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 166.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 94.

القائد المغولي الأهالي بالخروج من المدينة، وطلب من أصحاب الحرف أن يقضوا في مكان منعزل، فمنهم من فعل ونجا من الموت، ومنهم من امتنع وظن أن هؤلاء سيؤخذون إلى بلاد المغول وأن الباقين سيتركون أحياء، وقد صدقت نبوءة الخوارزميين عن رحيل أصحاب المهن والحرف إلى بلاد المغول وكذبت نبوءتهم الثانية، إذ أعمل المغول السيف في رقاب من بقي من السكان، وكان على كل جندي من المغول أن يقتل أربعة وعشرين رجلاً خوارزمياً، فإذا علمنا أن الجيش المغولي كان يتكون من مائة ألف رجل أدركنا ذلك العدد الغفير من السكان الذين كان نصيبهم الهلاك[1]. وأخيراً لم يبق من السكان في المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول[2].

د ـ وصف ابن الأثير لما حدث لخوارزم: ولكي يجهز المغول على المدينة ويجعلوها أثراً بعد عين، فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، وقد صور ابن الأثير ما أصاب هذه المدينة تصويراً دقيقاً في هذه العبارة: ثم إنهم فتحوا السد الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، فغرق البلد جميعه، وتهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يخافي ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم، فمن اختفى من التتار أغرقه الماء وقتله الهدم، فأصبحت خراباً يباباً[3].

وفي نفس الوقت الذي سيطر فيه المغول على إقليم خوارزم نرى جنكيز خان يتم إخضاع المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون، ومن أشهرها: ترمذ وبلخ، ومن الطريف المؤلم أن جنكيز خان لما استولى على مدينة ترمذ، أمر بإخراج جميع السكان من المدينة وأمر جنده بقتلهم جميعاً، وقد حدث أن هم أحد المغول بقتل امرأة عجوز فأرادت هذه المرأة أن تفتدي نفسها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكها، فلما طالبها المغول بهذه الجوهرة ذكرت أنها ابتلعتها في جوفها، فشق المغولي بطن المرأة وأخرج الجوهرة من جوفها، وقد انتشر الخبر سريعاً بين المغول فظنوا أن السكان جميعاً قد خبأوا الجواهر في بطونهم، لذلك أمر جنكيز خان بشق جميع بطون الموتى للبحث عما عسى

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) الكامل (12/ 182)، الدولة الخوارزمية، ص: 167.

أن يكون فيها جواهر[1]، وبعد استيلاء المغول على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، استطاعوا أن يحيطوا تماماً بإقليم خراسان حيث وجهوا ضربتهم التالية، فاستولوا على مدن هذا الإقليم المدينة تلو الأخرى، ولم يقف في طريقهم عائق أو يمنعهم مانع[2].

4 ـ **لجتياح خراسان:** صدرت الأوامر لتولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خراسان في خريف عام 617 هـ / 1220، ويظهر أن جنكيز خان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه، بدليل أنه عبر إلى الضفة الغربية لنهر جيحون وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون، ابتغاء الاستيلاء عليها[3].

أ ـ **الاستيلاء على بلخ:** لم تكن مدينة بلخ محصنة تحصيناً يكفل لها الصمود أمام الجيوش المغولية، وترجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا، وكانت هذه المدينة عامرة بمبانيها آهلة بسكانها حتى قيل أنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يفدون على المدينة[4]، وبرغم تسليم هذه المدينة في سنة 618 هـ / 1221م لم يعفها جنكيز خان من التخريب، كما لم يعف أهلها من القتل، ثم اكتفى بالزحف عند هذه المدينة وقنع بإرسال ابنه تولوي إلى خراسان على رأس جيش مكون من سبعين ألفاً، ويظهر من تغيير جنكيز خان خطته الحربية أنه أراد أن يؤمن أملاكه وجيوشه في هذه النقطة[5].

ب ـ **احتلال نسا والقضاء على أهلها:** سارت طلائع جيش تولوي إلى خراسان في سنة 617 هـ/ 1220م، وكانت تتكون من عشرة آلاف جندي بقيادة توجاشر زوج ابنة جنكيز خان، وقد سار القائد إلى مدينة نسا، ولما قربت إحدى كتائبه من المدينة سلط المسلمون سهامهم على رجالها فقتل عدد كبير، كما قتل بلجوش قائد هذه الكتيبة ولما وصل توجاشر بجيوشه، أمر بأن ينصب حول المدينة عشرون منجنيقاً، وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولما طلع النهار بدأوا

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 167.
(2) المصدر نفسه، ص: 167.
(3) المصدر نفسه، ص: 167.
(4) المصدر نفسه، ص: 167.
(5) المصدر نفسه، ص: 172.

يثأرون لمقتل القائد بلجوش، فأخرجوا جميع السكان وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر، كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال حتى قيل إن عدد من قتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفاً، وقد وصف النسوي هذه الحادثة وصفاً يثير الحسرة والألم حيث قال: فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة بالصغار والنساء والضجيج يشق جلباب السماء والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب، لنجا أكثرهم، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهوى، فمن دماء مسفوكة وستور مهتوكة وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة، وكان عدة من قتل بلسان أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفاً[1]، ويروي النسوي أن المغول انتشروا في خراسان وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الفلاحين وقادوهم كالأغنام لمساعدتهم في حصار الأماكن التي يرغبون في الاستيلاء عليها، وقد استولى الرعب والفزع على النفوس حتى كان الأسير أحسن حالاً ممن أقام في منزله لأنه أصبح لا يعرف شيئاً عن المصير الذي سيؤول إليه، وكان المغول يرغمون حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك في أعمال الحصار، ومن أبى منهم قتل شر قتلة[2].

جـ ـ منبحة مدينة مرو: ذهب إلى مدينة مرو جيش كبير من التتار على رأسه بعض أولاد جنكيز خان، واستعانوا في هذه الموقعة بأهل بلخ المسلمين، وتحرك الجيش المغولي بقيادة تولوي واستطاع المغول إبادة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة، فاستدرجوهم إلى كمين وقتلوا عدداً كبيراً منهم وفر الباقون بعد أن غنم المغول منهم عدداً كبيراً من قطعان الماشية التي نهبوها من مدينة مرو، وفي اليوم التالي أول محرم سنة 618هـ/ 25 فبراير سنة 1221م ـ سار تولو في خمسمائة من الخيالة لاختبار حصون المدينة، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية التي أخذت في الهجوم على هذه المدينة، وكان أمام المحاصرين منفذان للنجاة، ولكن المغول فطنوا إلى هذين المنفذين وقضوا الليل على

(1) الدولة الخوارزمية، ص: 172.

(2) المصدر نفسه، 173.

حراسة الأسوار والمنافذ ليحولوا دون خروج الأهالي والجيوش الخوارزمية منها، وفي اليوم التالي أرسل حاكم المدينة وكان يطلق عليه «مدير الملك»، كبار رجال الدين إلى تولوي يعرضون التسليم، بشرط أن يؤمن من في داخل المدينة فوعدهم المغول بتلبية مطالبهم، حتى أن مدير الملك خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوي، الذي أكد له أنه سيثبته في حكم هذه المدينة وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فأرسل مدير الملك في استدعائهم، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم تولوي ومعهم مدير الملك، وطلب منهم أن يعدوا[1] له قائمتين طويلتين.

- **أما القائمة الأولى:** فتضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو.

- **أما القائمة الثانية:** فتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة، ثم أمر ابن جنكيز خان أن يأتي المغول بأهل البلد أجمعين فخرجوا جميعاً من البلد حتى لم يبق فيها ولا واحد، ثم جاءوا بكرسي من ذهب قعد عليه ابن جنكيز خان ثم أصدر الأوامر الآتية:

* أن يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء فيقتلوا جميعاً أمام عامة أهل البلد، وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبدءوا في قتله واحداً واحداً بالسيف والناس ينظرون ويبكون.

* إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبرتهم الصناعية هناك.

* إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك، ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لافتداء نفسه.

* دخول المدينة وتفتيش البيوت بحثاً عن المال والمتاع النفيس حتى إنهم نبشوا قبر السلطان «سنجر» أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره، واستمر هذا البحث ثلاثة أيام.

* الأمر الخامس: أمر ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره[2].

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 175

(2) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 47.

وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين، وهلك سكانها أجمعين الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً، وأما الجويني فقدر هذا العدد في كتابه تاريخ جهان كشاي فذكر أنه بلغ مليوناً وثلاثمائة ألف رجل عدا الجثث التي كانت في أماكن خفية[1].

د ـ الانتقام من أهالي مدينة نيسابور: سار توجاشر بعد مذبحة نسا إلى مدينة نيسابور سنة 617هـ/ 1220م وعزم على الاستيلاء عليها وقد هاجمها بالفعل ولكنه قتل بعد ثلاثة أيام بسهم من سهام أعدائه، وقد وجد القائد الذي حل محله في القيادة أنه لا يملك القوة الكافية للاستيلاء على هذه المدينة فرفع عنها الحصار، تاركاً هذه المهمة الشاقة إلى أن يأتي جيش تولوي وتفرغ للاستيلاء على بعض الحصون المجاورة[2]، وبعد مقتل أهالي مدينة مرو تحرك تولوي إلى مدينة نيسابور على مسيرة اثني عشر يوماً من مدينة مرو.

وأراد تولوي أن يثأر لموت «توجاشر» الذي قتل أمام أسوار هذه المدينة عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوي بجيوشه، وأما الأهالي فقد أساءوا إلى فصائل المغول التي كانت تظهر تباعاً بالقرب من المدينة، ثم أخذوا أهبتهم للاستعداد عندما علموا أن المغول سيهاجمون المدينة، ولما رأى الأهالي المحاصرون وقواد الجيوش الخوارزمية الجيوش المغولية وقد أحاطت بالمدينة من كل جانب، فقدوا رباطة جأشهم وأرسل الأهالي نواباً عنهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضي القضاة في خراسان إلى المعسكر المغولي وعرضوا على تولوي التسليم وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، ولكن تولوي الذي كان صدره يغلي ونفسه تتحرق شوقاً للانتقام لمقتل زوج شقيقته توجاشر، رفض كل العروض التي عرضها عليه أهالي هذه المدينة[3]، وفي اليوم التالي تفقد تولوي جنده الذين كانوا يرابطون حول المدينة وأخذ يشجعهم، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر (سنة 618هـ/ 7 أبريل سنة 1221م)، أمر بمهاجمة المدينة من كل مكان واستمر القتال طول النهار والليل، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون ويحدثوا في حوائطها ثغرات عديدة مكنتهم من دخول المدينة من جميع جهاتها وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحاً للحروب، وأخيراً تمكن المغول من احتلال المدينة، وأخذوا يثأرون بمقتل توجاشر، وقد دخلت زوجة

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 175.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.
(3) المصدر نفسه، ص: 174.

ذلك القائد وهي ابنة جنكيز خان المدينة يصحبها عشرة آلاف رجل وقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب[1]، ومما يدل على أن المغول كانوا يتحرقون شوقاً للتنكيل بسكان نيسابور أن تولوي رأى بعض السكان يلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى، فلكي لا يترك فرصة لأحد منهم للنجاة، أمر بقطع جميع رؤوس القتلى ووضع هذه الرؤوس في جانب والأجساد في جانب آخر[2]. وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً زالت فيها معالمها، ولم يبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم، ولكي يطمئن تولوي إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عنها عدداً من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولي، وقد ظهر فعلاً عدد منهم أجهز عليهم الجيش المغولي، ، ومما هو جدير بالذكر أن سقوط هذه المدينة حدث بعد وفاة علاء الدين خوارزمشاه بشهرين[3].

هـ ـ خضوع مدينة هراة: سار الجيش المغولي بعد الإجهاز على نيسابور إلى مدينة هراة إحدى مدن خراسان الهامة، ووجه قائده، وهو في طريقه إليها، طائفة من جنده إلى مدينة طوس فدمرتها وخربت مشهد علي بن موسى الرضي وهارون الرشيد[4]، وأرسل تولوي عندما وصل إلى مشارف هراة ينذر أهلها بالتسليم فأجابوه بقتل رسوله إليهم، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم التي ما لبثت أن هوجمت من جميع جهاتها في وقت واحد، وبعد حصار دام عشرة أيام على رواية ابن الأثير[5]، وثمانية أيام على رواية غيره[6]، طلب أهلها التسليم على أن يؤمن المغول حياتهم، ووافق تولوي على هذا الطلب مكرهاً، لأن انقساماً خطيراً حدث في جيشه، ومع ذلك لم يف بوعده للأهالي، فقد قتل منهم نحو اثني عشر ألفاً، ثم ولى عليها حاكماً عسكرياً مسلماً، وغادرها بأمر من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان[7].

على أن هراة ما لبثت أن ثارت على الحكم المغولي على إثر سماع أهلها خبر

---

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.

(2) الكامل في التاريخ (12/ 181) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.

(3) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 177.

(4) الكامل في التاريخ (9/ 343) الدولة الخوارزمية، ص: 151.

(5) الكامل في التاريخ (9/ 343)، عودة الروح، ص: 219.

(6) الدولة الخوارزمية، ص: 152، عودة الروح، ص: 219.

(7) الكامل في التاريخ (9/ 343)، عودة الروح، ص: 219.

انتصارات جلال الدين منكوبرتي التي أحرزها على المغول في إقليم غزنة، الأمر الذي جعل المغول يجردون عليها حملة قاسية، افتتحتها عنوة، وأنزلت بها كثيراً من السلب والنهب، ثم جعلتها طعاماً للنيران[1].

وهكذا خضع إقليم خراسان للمغول، ومما هو جدير بالذكر أنه في الوقت الذي غزا فيه المغول خراسان تركت إحدى القبائل التركمانية التي كانت تسكن بالقرب من مدينة مرو أملاكها تحت تأثير الفزع من ناحية المغول وهاجرت غرباً إلى أرمينية، وبعد ذلك بثمانية أعوام أغار المغول على هذا الإقليم فتركت هذه القبيلة هذا المكان وسارت إلى آسيا الصغرى واستطاع قائدها «أرطغرل» مع رجاله الذين كانوا يكوّنون أربعمائة وأربعين عائلة، أن يقيموا في إحدى المقاطعات التابعة لسلطان السلاجقة الروم في إقليم أنقرة على حدود الدولة البيزنطية، وتحولت الزعامة إلى عثمان الذي استطاع في (سنة 700هـ/ 1300م)، بعد أن دب الضعف إلى السلاجقة في آسيا الصغرى، أن يكوِّن له دولة على أنقاض هذه الدولة السلجوقية، واتخذ لنفسه لقب «سلطان»، ويعتبر عثمان هذا المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية.

5 ـ **احتلال إقليم غزنة**: *لما بلغ جنكيز خان أن جلال الدين منكوبرتي وصل إقليم* غزنة في جيش كبير، أسرع في المسير إلى هذا الإقليم، وحاصر في طريقه قلعة باميان الحصينة ببعض جيشه الذي كان قوامه ستين ألف مقاتل، على حين أرسل معظمه للقاء جلال الدين، وما لبثت قواته أن اقتحمت هذه القلعة، ودخلت المدينة، وهدمت ما بها من جوامع وقصور وأزالت معالم الحياة فيها[2]، ولما أتم جنكيز خان إحراز ذلك النصر الحاسم على مدينة باميان جاءته الأنباء بأن جلال الدين تمكن من دحر جيش المغول في السهول القريبة من مدينة بيروان بالقرب من مدينة غزنة، فسار جنكيز خان بمن معه لملاقاته، وكان جنكيز خان قد أرسل في وقت سابق بعض قواته لترابط بالقرب من مدينة كابل وعهد إليها مراقبة تحركات جلال الدين، وتقديم أية مساعدة تحتاج إليها طليعة جيشه التي كانت تحاصر قلعة «قندهار»، فلما حلت بتلك الطليعة الهزيمة على أيدي جلال الدين منكبرتي، اتجهت هذه القوات المغولية نحو بيروان القريبة من غزنة، ونشب القتال بينها وبين الجيش الإسلامي في السهول المحيطة بهذه المدينة[3]، ووصل جلال

(1) عودة الروح، ص: 219، الكامل (9/ 343).

(2) عودة الروح، ص: 221.

(3) الكامل (9/ 343) عودة الروح، ص: 221.

الدين بعد انتصاره في قندهار إلى مدينة غزنة وأخذ يجمع حوله الجيوش استعداداً للقاء المغول، فوافاه للخدمة سيف الدين بقراق الخليجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، والأميران: مظفر ملك والحسن قزلق في زهاء ثلاثين ألف فارس، ومعه من عسكره وعسكر أمين ملك مثلها، وهكذا تيسر لجلال الدين أن يجمع جيشاً قوامه ستون ألف مقاتل، ثم سار لملاقاة الجيش المغولي الذي يقوده تولوي بن جنكيز خان، واستمر القتال يوماً، ثم افترق الجيشان عند الليل ليستأنفا القتال في الغداة،ورغم حيل المغول لإرهاب الجيش الإسلامي فقد كان لشجاعة جلال الدين أثرها في هزيمة المغول وفرارهم أمام فرسان الخوارزميين[1].

وقد وصف النسوي انتصار الخوارزميين على المغول وصفاً أقل ما يقال عنه أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن نفسية الخوارزميين في ذلك الوقت، فقد جاء في وصف هذا الانتصار ما يلي: فلما اشتبك الجمعان حمل جلال الدين بنفسه على قلب تولي خان، فبدد نظامه، ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام، وإسلام المقام، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام، وركب جلال الدين أكتاف المغول يفصل بالأسياف مجامع الأكتاف، وكيف لا وقد فجعوه بأخوته وأبيه ومملكته وذويه، فترك لا والد ولا مولود ولا عابد ولا معبود، تلفظه النوادي إلى البوادي، وقتل تولي خان في وهج القتال، وكثر الأسر[2].

وقد انتقم الخوارزميون من المغول انتقاماً شديداً فكانوا يدقون الأوتاد في آذان الأسرى، وجلال الدين ينظر إليهم، ويعلو وجهه البشاشة بما ظفر[3].

وكان من أثر ذلك النصر الذي أحرزه جلال الدين في هذه المعركة أن ثارت على المغول بعض المدن الإسلامية التي كانت قد خضعت لهم، وسلمت من تدميرهم، مثل مدينة هراة، غير أن ثورتها أخمدت في مهدها، كما دب الخوف في قلوب المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة «ولج»، واضطروا إلى رفع الحصار عنها[4]، وكان انتصار جلال الدين على المغول في سهول بيروان انتصاراً مؤقتاً، فبينما كان يوزع الغنائم على

---

(1) عودة الروح، ص: 222.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 80 ـ 81.

(3) الدولة الخوارزمية، ص: 185.

(4) عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص: 222.

قواته وجنوده اشتد النزاع بين قائدين من كبار قواته على حصان عربي كان كل منهما يريده لنفسه، ويلغ من شدة الخلاف أن ضرب أحدهما الآخر على رأسه بسوط كان يحمله، ولم يرض السلطان عن هذه الإهانة، ولم يقبل القائد المعتدي أن يعتذر عما بدر منه، وكانت النتيجة أن انسحب القائد الآخر بجنوده إلى مدينة «بيشاور» إلى حدود الهند، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية من مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم[1].

وبينما كانت قوات المسلمين على هذه الحالة من الفرقة والانقسام إذ وصل جنكيز خان إلى غزنة وهو مصمم على الانتقام لهزيمة جيشه التي حدثت عند مشارف مدينة بيروان، ولم يكن من الرأي في شيء أن يجازف جلال الدين بحرب المغول، وجيشه في هذه الحالة، لذا آثر الانسحاب إلى السهل الواقع غربي نهر السند، وأخذ يعاود مكاتبة المنشقين ويستميلهم إليه[2]، ورتب الأمير الخوارزمي سنة (618هـ/ 1221م) ما بقي معه من الجيش ترتيباً حسناً، فأسند قيادة الميمنة لقائده أمين ملك وأمره بجعل ظهره إلى منعطف نهر السند، كما أمر قائد الميسرة بالاستناد إلى أحد مرتفعات الجبال في هذه المنطقة، وبقي هو في القلب، ثم نشب القتال، وكادت الهزيمة تلحق بالمغول في البداية، لكنهم ما لبثوا أن اجتاحوا القوات الإسلامية من الخلف، كما هاجموا الميمنة من الأمام مما أدى إلى هزيمة المسلمين[3]، على أن جلال الدين رغم ذلك لم يستسلم، بل ظل يقاتل وليس معه سوى سبعمائة رجل في شجاعة نادرة، وصفها ابن الأثير بقوله: اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال[4]، وكان هدف جلال الدين من هذا القتال اليائس إحداث ثغرة في صفوف المغول، يتيسر له ولجيشه الهرب منها، غير أنه اضطر إلى أن يولي وجهه شطر نهر السند، وقذف بنفسه وبحصانه فيه من ارتفاع عشرين ذراعاً، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرقي، وقد قتل عدد كبير من جنوده وغرق أولئك الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية، كما أسر أحد أبنائه وكان في السابعة من عمره، ثم قتله جنكيز خان بين يديه، ولما اقترب جلال الدين من نهر السند، رأى والدته وأم ابنه

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 187.
(2) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 156 ـ 157.
(3) عودة الروح للخلافة، ص: 223.
(4) الكامل في التاريخ (9/ 344)، عودة الروح، ص: 324.

وحريمه يصحن: بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا[1]. ومن الطريف أن جلال منكبرتي احتفظ بذلك الجواد الذي عبر به نهر السند، وكان سبباً في إنقاذ حياته دون أن يركبه حتى استعاد بلاده بعد رحيل جنكيز خان عنها.

وكانت الجيوش المغولية تتوق إلى اللحاق بجلال الدين، وهمَّ كثير منهم بعبور النهر غير أن جنكيز خان أسرع ومنع جنوده من تنفيذ هذا العمل، ولما علم جنكيز خان أن عدوه قد أمر بأن يلقى كل ما كان يملكه من ذهب وفضة في نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة في يد المغول، أرسل بعض رجاله فغاصوا في النهر وأمكنهم أن ينتشلوا بعض هذه الأموال[2]. وبرغم حرج موقف الخوارزميين في هذه الموقعة، ورغم تلك الهزيمة التي حلت بالسلطان الخوارزمي وجنوده، استطاع أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين أن ينجوا بأنفسهم بعبورهم من الضفة الشرقية حيث وصلوا حفاة عراة، كأنهم أهل النشور حشروا فبعثوا من القبور[3]. ومن الطبيعي أن يفرح السلطان جلال الدين بلقاء هذا العدد من جنوده[4]، وما لا شك فيه أن جلال الدين، في الفترة التي قضاها في بلاد الهند، كثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته عامة، وأصابه خاصة، بعد موقعة السند، وقد نظم ابن الوردي أبياتاً وصف فيها جلال الدين ودولته وكيف انحدر هو ودولته إلى هاوية عميقة، بعد أن قدر لهذه الدولة أن تصل إلى ذروة المجد، وقد جاء في هذه القصيدة ما يلي:

مـن مـلـك الـدنـيـا ودانـت لـه ... فـالـجـهـل كـل الـجـهـل أن يـحـسـدا

بـقـدر مـا تـرفـع أصـحـابـهـا ... تـحـطـهـم فـالـرأي قـرب الـمـدا

ويـلـي عـلـى الـمـغـري بـعـلـيـائـهـا ... سـيـضـحـك الـيـوم ويـبـكـي غـدا

تـعـطـيـه كـالـمـشـفـق لـكـنـهـا ... تـبـطـش فـي الأخـذ كـبـطـش الـعـدا

مـبـتـدأ حـلـو لـمـن ذاقـه ... ولـكـن انـظـر خـبـر الـمـبـتـدا

غـدارة خـوانـة أهـلـهـا ... مـا زهـد الـزهـاد فـيـهـا سـدى[5]

---

(1) تتمة المختصر في أخبار البشر، لابن الوردي، ص: 155.

(2) الدولة الخوارزمية، ص: 187.

(3) سيرة السلطان جلال الدين، ص: 85.

(4) الدولة الخوارزمية، ص: 188.

(5) تتمة المختصر في أخبار البشر، ص: 155.

لقد كان جلال الدين مضرب المثل في الشجاعة والإقدام، وأعجب خصمه وعدوه جنكيز خان، وقال: هكذا يكون الرجال الشجعان[1]. وقال لرجال دولته: ما أسعد الأب الذي ينجب رجلاً قوياً شجاعاً كهذا ـ أي جلال الدين ـ لأن الرجل الشجاع يقدر الرجل الشجاع ولو كان ألد خصومه[2]، كان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية التي غزاها المغول في عهد الناصر لدين الله الخليفة العباسي، وبعد أن اطمأن جنكيز خان إلى تمكنه من السيطرة على هذه البلاد، وانتقم من قاتلي تجاره ورسله في مدينة أترار[3]، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

1 ـ كازخستان، 2 ـ قيرغيزستان، 3 ـ طاجيكستان، 4 ـ أوزبكستان، 5 ـ تركمنستان، 6 ـ باكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان، 7 ـ أفغانستان، 8 ـ معظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية، 9 ـ أذربيجان، 10 ـ أرمينية، 11 ـ جورجيا، 12 ـ الجنوب الغربي لروسيا[4].

6 ـ نهاية جلال الدين منكبرتي: لم يقدر للسلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي 617 ـ 628هـ أن يصمد أمام المغول أيضاً، فعلى الرغم من انتصاره عليهم عند سهل بيروان القريبة من كابول سنة 618هـ، إلا أنه اضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند عبر نهر السند إثر اختلاف قواد جيشه، وتفرق جنده، وبالتالي هزيمته أمام جيش جنكيز خان في نفس العام[5]، وقبل أن يخرج السلطان جلال الدين من الهند سنة 621هـ قرر أن تكون وجهته إلى أقصى الغرب، وبمعنى آخر فإنه آثر أن يضع نفسه وما تبقى من جيشه في أبعد نقطة عن متناول جيوش المغول، ومن ثم فقد اجتاز الصحراء القاحلة التي تفصل بين الهند وإقليم كرمان الذي سارع حاكمه براق الحاجب بإعلان ولائه للسلطان الخوارزمي، بل إنه عرض إحدى بناته عليه ليتزوجها، فقبل السلطان ذلك منه، وتكرر الإجراء نفسه مع سعد الله أتابك إقليم فارس، وعلاء الدين حاكم

(1) الدول المستقلة في المغرب الإسلامي، ص: 188.
(2) المصدر نفسه، ص: 189.
(3) عودة الروح، ص: 224.
(4) قصة التتار، ص: 65.
(5) الأتراك الخوارزميون، ص: 25.

إقليم يزد[1]. وكانت الخطوة التالية لدى جلال الدين هي الاستيلاء على مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال الذي يتحكم في المنطقة الغربية من إيران، ومن ثمة انتقل إليها فدانت له، ولما كان أخوه غياث الدين ـ الذي كان يحكم تلك المنطقة من قبل أبيهما السلطان علاء الدين ـ وتوطد حكمه فيما بعد انسحاب المغول منها عائدين باتجاه الشرق، فقد أعلن بدوره انضواءه تحت راية أخيه، فقد أصبح غربي إيران بأكمله واقعاً تحت سلطان جلال الدين الذي أضحت مملكته الجديدة متاخمة لأملاك الخلافة العباسية، وقد ساعدت الظروف السياسية جلال الدين كثيراً، إذ توفي خصم الخوارزميين العنيد الخليفة الناصر لدين الله في شوال سنة 622هـ، ولم يمكث ابنه الظاهر في الخلافة سوى تسعة أشهر، إذ توفي في رجب سنة 623هـ[2]، فآلت الخلافة إلى ابنه المستنصر سنة 623هـ/ 640هـ الذي لم يكن يرى الدخول في مواجهات عسكرية ضد الخوارزميين، ولذا فقد استقبل في قصر الخلافة في بغداد رسول جلال الدين[3]. ومن ناحية أخرى انشغل المغول بوفاة الخاقان الأعظم جنكيز خان سنة 624هـ[4]، وانهمكوا في الإعداد للقوريلتاي «المؤتمر العام الذي يناط به اختيار الخان الجديد»، مدة عامين أدار خلالهما تولوي ابن جنكيز خان دفة الأمور حتى تم انتخاب أوكتاي ثالث أبناء جنكيز خان خاقاناً أعظم مكان أبيه سنة 626هـ ـ 1229م[5]. وفي تلك الأثناء كان السلطان جلال الدين قد انطلق شمالاً إلى أذربيجان التي دانت له، فواصل الزحف شمالاً حيث هزم الكرج المسيحيين واستولى على عاصمتهم تفليس، وانتقم منهم بما ارتكبوه من فظائع في حق المسلمين وبخاصة في إقليم أذربيجان المجاور[6].

أ ـ بداية النهاية لجلال الدين منكبرتي: وجاء استهلال الخوارزميين في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة 627هـ على مدينة أخلاط التابعة ـ آنذاك ـ للملك الأشرف بن العادل الأيوبي بداية لنهاية سلطان جلال الدين منكبرتي الذي تعرض جيشه لهزيمة مريرة أمام تحالف جيش الأيوبيين وسلاجقة الروم في الثامن والعشرين من رمضان سنة 627هـ على مقربة من أذربيجان، فانهزم السلطان إلى أذربيجان وأرسل

(1) كنز الدرر وجامع الغرر (7 ـ 261).
(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 27.
(3) المصدر نفسه، ص: 28.
(4) جامع التواريخ رشيد الدين، ص: 28.
(5) الأتراك الخوارزميون، ص: 28.
(6) المصدر نفسه، ص: 28.

جنوده إلى صحراء موغان لينالوا قسطاً من الراحة[1]. ولم يضيع الإسماعيلية في آلموت الفرصة السانحة ـ بعد أن ذاقوا الأمرين على يد السلطان جلال الدين من قبل حتى إذ اضطرهم إلى دفع أتاوة سنوية له، فراسلوا المغول حتى ينهضوا للقضاء عليه، قبل أن يسترد قوته، وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تحريض من الإسماعيلية أو غيرهم، وقد جاء انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان سنة 626هـ خاناً أعظم للمغول إيذاناً بتنفيذ إستراتيجية مغولية جديدة تمثلت في غزوات عسكرية متوالية على جبهات ثلاث هي: جنوبي الصين، وغربي إيران، وشرقي أوربا، وبالتالي أصبح غربي إيران بخاصة الشمال الغربي هدفاً أساسياً للمغول، حيث يكمن عدوهم اللدود السلطان الخوارزمي جلال الدين، وسرعان ما بادر هذا الأخير ـ رغم الخلاف ـ إلى مكاتبة الخليفة العباسي المستنصر بالله، والملك الأشرف الأيوبي صاحب دمشق والجزيرة والسلطان علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، وغيرهم من أمراء المسلمين، حكام ميافارقين وماردين وآمد يستنجد بهم كي يرسلوا إليه جيوشاً من عندهم تعاونه على مجابهة هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين جميعاً، فأحجم هؤلاء كلهم عن مناصرته[2].

ب ـ اختلال في التوازن العسكري: أسفرت الهزيمة السابقة عن نتائج خطيرة أثرت على ما تلاها من أحداث، فقد أصيب الجيش الخوارزمي بنكسة فادحة، تمثلت في آلاف القتلى والأسرى، وفي اضطراب نظامه وفقدان السيطرة عليه، وسقوط هيبته بين القوى العسكرية المجاورة له بعد أن كانت تخشى بأسه وسطوته، وقد أدى هذا الاختلال في التوازن العسكري إلى ظهور مؤشرات سياسية لدى القوى السياسية في المنطقة، فقد أيقن معظم أمراء الجزيرة أن الموقف الجديد يحتم عليهم سرعة الانضواء تحت الهيمنة الأيوبية التي يمثلها الملك الأشرف المقيم بدمشق، والمؤيد من قبل أخيه الكامل في مصر، ومن جانب آخر أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام سلاجقة الروم كي تمتد أطماعهم إلى كثير من المدن التي كانت خاضعة لسلطان الخوارزميين شرقي مدينة أخلاط[3]، كذلك لم تتأخر مملكة الكرج المسيحية عن إزالة السيطرة الخوارزمية عن أراضيها وبخاصة العاصمة تفليس[4]، ولم تلبث بعض المدن المهمة مثل

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 30.

(3) المصدر نفسه، ص: 30.

(4) المغول، للعريني، ص: 180.

تبريز وكنجة أن أظهرت عصيانها للخوارزميين واجترأت على قتل البعض منهم، وشرعت طائفة الإسماعيلية في آلموت في المماطلة في أداء الأتاوة المقررة عليها من قبل السلطان الخوارزمي[1]. وأما الخطر الأكبر وهو المغول فقد أصبح هجومه وشيكاً جداً بعد أن وصلت طلائع جيشهم إلى مدينة الري، وانفتح الطريق أمامهم، نحو إقليم أذربيجان حيث تناثرت بقايا الجيش الخوارزمي المهزوم، كل هذه المؤثرات كانت تنبئ بزوال الدولة الخوارزمية وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي[2].

جـ ـ الأخطاء التي وقع فيها جلال الدين منكبرتي في مرحلته الأخيرة: كانت المؤشرات تتسارع لتدلنا على حتمية زوال الدولة الخوارزمية، وأفول نجم سلطانها الأخير جلال الدين منكبرتي الذي قد كان وقع ـ عقب هزيمته السابقة ـ في أخطاء عديدة منها:

ـ ضعف نظام استطلاعه، فقد وقعت إحدى سراياه في أيدي المغول عند مدينة الري، بينما أعطت سرية أخرى معلومات خاطئة عن عودة المغول، وتخاذلت الثالثة، فلم يذهب أفرادها إلى مازندران أو خراسان، كما أمر بذلك السلطان الخوارزمي نفسه.

ـ اعتقاده الخاطئ أن المغول سيقضون الشتاء بالعراق العجمي، وأنهم لن يتعدوه في أذربيجان إلا في الربيع، فكانت مباغتتهم له على غير استعداد منه، فاضطر إلى ترك نسائه بالعراق على مقربة من مدينة تبريز وسارع هو إلى موقان ليجمع عساكره المتفرقة هناك[3].

ـ إلحاحه في مكاتبة الملك الأشرف الأيوبي صاحب الجزيرة وأخلاط رغم نصح خلصائه له بعدم جدوى ذلك، خاصة وأنه ـ أي جلال الدين ـ قد دخل بزوجة الملك الأشرف الكرجية ـ نسبة إلى بلاد الكرج ـ في ليلة اقتحامه مدينة أخلاط، وأصر على الاحتفاظ بها حتى بعد انهزامه من جيش الملك الأشرف وحلفائه سلاجقة الروم سنة 627هـ[4].

ـ تجريده ستة آلاف فارس خوارزمي/رغم حرج موقفه بعد الهزيمة السابقة واقتراب

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 31.
(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 31.
(3) تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، ص: 404.
(4) الأتراك الخوارزميون، ص: 32.

خطر المغول منه للهجوم على مدن خرتبرت وملطية وأرزنجان انتقاماً من خصمه علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فأغار هؤلاء الفرسان الخوارزميين على تلك المدن الرومية وساقوا إلى المعسكر الخوارزمي الكثير من الغنائم حتى بيعت عشرون غنماً بدينار[1]، وكشف هذا الإجراء من قبل السلطان الخوارزمي عن فقده بصيرته السياسية إذ أنه بذلك قد بدد أية بارقة أمل في احتمال حدوث تغيير في موقف سلاجقة الروم معه في صراعه المحتوم ضد المغول المتجهين نحوه[2].

- انخداع السلطان الخوارزمي برسالة الملك الأرتقي المسعود بن أرتق صاحب آمد الذي أخذ يحرضه على غزو بلاد سلاجقة الروم واعداً إياه بالمساعدة العملية في هذا الغزو بإمداده بخمسة آلاف فارس من قبله، وبالفعل عزف السلطان الخوارزمي عن الاتجاه إلى مدينة أصفهان عاصمة إقليم الجبال، وغير مساره نحو آمد، فلما طارده المغول التجأ إليها طالباً الاحتماء بأسوارها، فرفض الملك المسعود فتح أبوابها له، وقذفه أهلها بالحجارة، فارتد عنها حسيراً، مضطراً إلى مواجهة المغول وحده.

- وضع ثقته المطلقة في «أوتر خان» الذي كان يصله بقرابة من ناحية الخؤولة، إلا أنه كان يخادعه خوراً وجبناً، فأوهمه مرة أن المغول قد رجعوا من عند حدود منازجرد وأشار عليه في أثناء الفرار إلى آمد التي رفضت استقباله، بالعودة من نفس الطريق الذي سلكه المغول إليه، فرجع برأيه ليكون هلاكه في جميع الوجوه بتدبيره ـ كما يقول النسوي ـ ثم تركه في نهاية المطاف ليلقى مصيره وحده وتوجه هو إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين لما كان بينهما من مكاتبات[3]، وقد وقع جلال الدين في بعض الأمور والأخطاء الشنيعة والتي منها:

- انكبابه على تعاطي الخمر مع ندمائه وخاصته في ساعات الحرج التي أحدق فيها المغول به، حتى أوشك بعضهم أن يدخل عليه خيمته، وهو نائم سكران لا يملك من أمر نفسه شيئاً، مخالفاً بذلك تعاليم الدين الإسلامي من ناحية،

---

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 32.

(2) المصدر نفسه، ص: 32.

(3) المصدر نفسه، ص: 33.

وشرف الجندية الذي يلزم القائد وجنده ـ في ميدان الحرب ـ بإعمال العقل والتركيز بدلاً من الوقوع تحت طائلة التخاذل والتشويش من ناحية أخرى[1].

- حادثة خادمه قلج وهو فتى خصي جميل الصورة، كان جلال الدين يرعاه فاتفق أن هذا الخادم مات، فأظهر الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة، ومشى بعض الطريق راجلاً فألزمه أمراءه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج على البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء، أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراءه فتركهم، ثم لم يدفن ذلك الخصي واستصحبه معه حيث سار وهو يلطم ويبكي، ثم امتنع عن الأكل والشرب وكان إذا قدم له طعام يقول: احملوا منه إلى قلج، ولا يتجاسر أحد أن يقول أنه مات، قتل القائل، فكان يحملون إليه الطعام ويعودون ويقولون: إنه يقبل الأرض ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز إلى وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما لما خرج المغول عليه[2].

وأما الوزير فقد انسحب صوب حيزان، فأعاد تعميرها وجاهر بالعصيان فيها وبادر إلى مكاتبة الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران، وأذربيجان بنفسه، ثم يقيم لهم الخطبة فيهما، فكاتب علاء الدين كيقباذ والملك الأشرف باذلاً الطاعة لهما وناعتاً سلطانه جلال الدين بالظالم المخذول في كتبه، وقد تمادى الوزير في عصيانه حتى أنه قبض على كل من عبر بحدود قلعته من أصحاب السلطان في أثناء الجفلة من المغول، ووضعهم تحت العذاب ثم استلب أموالهم[3]، بل إنه كاتب حسام الدين قلج أرسلان أكبر أمراء التركمان في آران يأمره بالاحتراز على ما عنده من حرم السلطان وخزائنه، وأنه إن حضر السلطان بنفسه لم يسلمها إليه[4]، فاضطر جلال الدين إلى مراسلة الوزير

(1) الأتراك والخوارزميون، ص: 33، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 375.

(2) الكامل في التاريخ (12 ـ 496)، الأتراك الخوارزميون، ص: 34.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 357.

(4) المغول، ص: 176، الأتراك الخوارزميون، ص: 35.

واستمالته ومخادعته إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه أبقاه أياماً ثم قتله[1].

- إصداره الأمر ـ لما داهمه المغول آخر مرة ـ إلى قائد جيشه أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر حتى يتبعه المغول ويخلص هو بمفرده، وقد أخطأ في ذلك ـ كما يقول النسوي ـ فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه من شذاذ العسكر خلق، ووصل إلى أربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان وملكها زماناً إلى أن قصدها المغول، وظل على قيد الحياة بفارس إلى سنة 639هـ وهي نفس السنة التي كتب فيها النسوي كتابه المشهور: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي[2].

د ـ **مقتل جلال الدين منكبرتي:** حرص أوكتاي على اتباع وصية والده جنكيز خان في الاستمرار في إنجاز مخططاته في الاستيلاء على العالم، فعهد إلى قائد مغولي بارز يدعى «جرماغون» بقيادة حملة مغولية جديدة تتجه نحو الغرب للقضاء على جلال الدين، وحينما اقتربت جيوش المغول وشعر جلال الدين خوارزمشاه بالخطر يطبق عليه وأحس بضعفه أمامهم، أخذ يكاتب سلاطين المسلمين وحكامهم، يستنجدهم ويدعوهم لنجدته والوقوف في وجه أعداء الإسلام، ومما كان يقوله لهم في كتبه حسب رواية المؤرخ الوزير عطا ملك الجويني: إن جيشاً جراراً من عساكر التتار كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا، فإذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار، وقد تمكن الرعب في قلوب الناس في هذه المنطقة، فإذا هزمت وخلا مكاني بينكم، فلم تستطيعوا مقاومة هذا العدو، وإذن فأنا لكم بمثابة سد الإسكندر، فليسارع كلٌّ منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم وفت في عضدهم فيتشجع جنودنا ونقوى عليهم[3]، وبالرغم من خطورة ذلك الوضع لم يستجب لاستغاثات جلال الدين خوارزمشاه، لا خليفة بغداد، ولا سلاطين المسلمين، وحكامهم، بل تركوه وحده يواجه مصيره المحتوم، وفي تلك الأثناء كان المغول يستهدفون جلال الدين ويركزون جهودهم للقضاء عليه، فهاجم جرماغون أقاليم جلال الدين واستولى على الري ثم همدان وواصل الزحف حتى حدود أذربيجان، وكان جلال الدين خوارزمشاه، يناوش عسكر المغول وينسحب من موضع لآخر وهم يلاحقونه، حتى انتهى به المطاف في موضع في

---

(1) الأتراك الخوارزميون، ص: 35.

(2) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 497.

(3) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 101.

أعالي دجلة، وهناك وقف جلال الدين للمغول وقفته الأخيرة واشتبك معهم في معركة قاسية انتهت بتمزيق جيشه بعد أن تكبد خسائر فادحة بالأرواح، غير أن جلال الدين نجا وتمكن من الفرار من ساحة المعركة، وظل يتنقل مختفياً من مكان إلى آخر، حتى دخل جبال الأكراد، وكان ذلك في سنة 628هـ[1]، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في قبضة بعض هؤلاء الأكراد، فقتله أحدهم في منتصف شوال سنة 628هـ أغسطس سنة 1231م[2]. وهنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق بمقتل جلال الدين فأجابهم قائلاً: تهنئونني بهذا؟ سوف ترون غب هذا، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار لبلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج[3]. وأمر الملك شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين بإحضار من قتله فأحضروه فأقر بقتله، وأحضر فرسه وسرجه وسيفه، وكان «أوتر خان» السابق ذكره وجماعة من خواص السلطان الخوارزمي قد وصلوا إلى شهاب الدين غازي، فأنزلوا في قصره فأمر شهاب الدين بحمل جثمان السلطان جلال الدين ليلاً من القرية، فلما جاءوا قال لأوترخان: انظر هل هو هذا؟ فلما رآه بكى وقال: نعم، فدفنوه ليلاً، وأخفوا قبره مخافة أن ينبش[4].

هـ - التمزق الخوارزمي: بعد هزيمة المغول للخوارزميين ومقتل جلال الدين تفرقت جموع الخوارزميين وتمزقت في كل وجه، فقد انسحب خال جلال الدين ومن معه إلى الملك الظاهر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين، على حين اتجهت زوجة السلطان وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره إلى مدينة حران وطلبوا أماناً من الأمير صواب نائب الجزيرة من قبل الأيوبي الكامل، فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم عسكره وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حران، ثم استدعيت إلى دمشق فأقامت بها[5]، وأما حظية السلطان التي كان قد تركها مع أحد أصحابه قبيل هجوم المغول، فإنه لما سمع بفقد السلطان وصح ذلك عنه، أخذها ومضى بها إلى بغداد، وأهداها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، فكانت عنده من أجل حظاياه إلى أن

(1) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 101.
(2) الأتراك الخوارزميون، ص: 35.
(3) العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، ص: 102.
(4) الأتراك الخوارزميون، ص: 36.
(5) المصدر نفسه، ص: 37، التاريخ المنصوري، ص: 157.

ماتت في أيامه[1]، وتوزعت طوائف أخرى من الخوارزميين ما بين نصيبين والموصل، وسنجار وإربل، وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيها كل أحد حتى الفلاح والبدوي وغيرهم، وقصد الجزء الأكبر من الخوارزميين بلاد سلاجقة الروم، فأقطعهم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بلاداً لمعيشتهم واستخدمهم على حين انهزم كثيرون منهم إلى ترابزون ـ الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ـ وبلاد الكرج المجاورة[2]، وهكذا تبعثرت بقايا الخوارزميين في عدة أنحاء من الشرق الأدنى الإسلامي، فكان من المتوقع ذوبانهم في إحدى هذه الأنحاء، أو كلها، غيرأن الظروف السياسية التي أحاطت بالشرق الأدنى الإسلامي آنذاك هيأت لهم الفرصة في الاستمرار كقوة عسكرية مؤثرة تدخلت في أدق الصراعات السياسية والعسكرية، حتى توافق لها استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة 642هـ فظل في أيدي المسلمين حتى قيام الحرب العالمية الثانية[3]. وقد بينت نهاية الخوارزميين في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

خامساً: أسباب زوال الدولة الخوارزمية: إن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية كثيرة، جامعها الابتعاد عن تحكيم شرع الله في النظم السياسية والمالية والاجتماعية والعسكرية والأخلاقية.. إلخ، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم يجلب للأفراد والدولة والشعوب المنضوية تحتها تعاسة وضنكاً في الدنيا، والمعروف أن السبب في زوال الدولة الخوارزمية وجلب كارثة المغول على الأمة، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة، ولما أرسل إليه جنكيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار، قتله أيضاً، فاشتعل جنكيز خان غضباً، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزمشاه ثم على عالم الإسلام كله[4].

وإذا تأملنا في القرآن الكريم في ضوء سنن الله الخالدة لنتائج الأعمال والأخلاق، وازدهار الأمم وانحطاطها الذي أشار إليه القرآن، لا سيما ما ذكره في بدء سورة الإسراء من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض، وعلوهم وتمردهم، وما

(1) مفرج الكروب (4/ 323).

(2) مفرج الكروب (4/ 325).

(3) الأتراك الخوارزميون، ص: 38.

(4) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1 ـ 270).

جرى ذلك من زحف الملوك الظالمين، وتسلطهم على بني إسرائيل وخراب المسجد الأقصى، يبدو أن السبب الحقيقي في هذه الفتنة الكبرى والمحنة التي أصيب بها العالم الإسلامي، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ في التدبير والسياسة فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء، ويفاجئ العالم الإسلامي وتصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء، ـ التي لم تكن تتوقعها ولا تستحقها ـ لمجرد أن يخطئ فرد من أفرادها، وإذا حملنا نبراس القرآن في يدنا، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية، والمدنية والسياسية في ذلك العصر، تحقق لنا كالشمس في رابعة النهار، أن هذه الحادثة المشؤومة لم تكن مفاجئة وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه[1].

إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية، حتى تحق عليهم الكلمة فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، إذا أنعم على دولة نعمة أيًّا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[2]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال،الآية: 53]، والآيات في هذا كثيرة، سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله، وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما مُنحت لنا، وفي هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام، الآيات: 44، 45] والمهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب الكل فيها، فمن طغى وظلم ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب، ولكنه يكون في الطريق وبعد هذا وذلك فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة، الآية: 286].

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1/ 271).

(2) في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي، ص: 88.

ببطء بينما البعض الآخر بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة بضربة واحدة بل بتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الخوارزمية التي زالت من الوجود في المشرق الإسلامي بعد الاجتياح المغولي لديار المسلمين وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 ـ **فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري:** صدر عن الملوك الخوارزميين خطأ كبير وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه وبناء الحصون، ولم يبذلوا أي اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي يعيش بجوار حدودهم، وكان بنفسه عالماً مستقلاً، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر، أن يعنوا بإيجاد الانسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدهم فحسب، بل اكتسح المسلمين كلهم[2]، ولم يستطع الخوارزميون أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد اتسعت الأرض التي يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام ودعوة الأمم وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح، وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية وبترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة، فقد كان المطلوب منهم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة، والأرض والعقيدة، والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة عظمى، لم يتقدم فيها الخوارزميون كما تقتضي الظروف والتحديات، وكما تقتضي الأسباب الملائمة للتحدي، وهذا الخطأ الكبير، فحقيقة الأمر أنهم لم يبعثوا بتيار حضاري يتمم تيارات الفتوحات ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن، فهكذا التاريخ الحضاري دائماً إما أن تتقدم أو تموت ولا سكون في تاريخ الإنسانية[3].

2 ـ **كره الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه:** لم يستطع سلاطين الخوارزميين توحيد شتات العالم الإسلامي في المشرق، بل كان حكمهم بغيضاً في جميع أقاليم شرق العالم الإسلامي، ولم يحظ حكمه بالقبول في بلاد الجبل، ولا بلاد خراسان، وأقاليم مقاطعاته وأصقاع مدنه وتوابعها، كما لم يحظ بالاحترام في بلاد الغور، ولا في

(1) في التفسير الإسلامي للتاريخ، للسمرائي، ص: 128.

(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 280).

(3) بنو أمية بين السقوط والانتحار، ص: 98، الدولة الأموية، للصلابي (2/ 582).

بلاد أفغانستان، وكان مكروهاً مبغوضاً في ما وراء النهر، فلم ينسوا مجزرة أهالي سمرقند، التي بلغ عدد المذبوحين قرابة مائتي ألف إنسان، كما لم يتعاون السكان بجميع فئاتهم وطبقاتهم مع السلطان الخوارزمي ولا حتى مد يد الغوث له، أثناء هروبه ومطاردة المغول له، وشق «جبه نويان، وسوبتاي بهاري» مملكة الشاه الخوارزمي من شرقها إلى غربها يطاردون سلطانها، ولم يحظ بعون أحد، لا من جنده، ورجال عسكره، وحماياتهم في المدن التي مر بها، ولا من إدارات حكومته ومواطني هاتيك المدن وأقاليمها، كانوا ينظرون إليه ويدلون المغول على الطريق الذي سلكها، والسبل التي سار إليها محاولة منهم بمساعدة المغول لاصطياده، فشعبه لم يكن راضياً عنه، وعلماء دولته يكنون له كرهاً عميقاً، وعلى اختلاف مذاهبهم شافعية أم أحناف كان يسجنهم ثم يقتلهم ثم يلقي بهم في ماء جيحون، وعلى رأسهم برهان الدين محمد أحمد المعروف بـ«صدر جيهان» وأبو سعيد مجد الدين البغدادي، وجلال الدين إمام سمرقند، وابنه شهاب الدين، وأخيه أوحد الدين.

وأما الحكام القراخانيون، فقد صفاهم واحداً واحداً، بالتعاون مع أمه، نفوا بعضهم إلى مدن موبوءة، بقوا فيها حتى ماتوا، وآخرون زجوا بهم في السجون ثم قتلوهم، وألقوا بجثثهم في ماء جيحون، مثل السلطان عثمان الذي ذبح كما تذبح الشاه، وتاج الدين بلكا خان، الذي قتله جلاد الشاه جيهان بهلوان، فحز رأسه دونما ذنب اقترفه، وهكذا فعل مع بقية الأمراء، والحكام وعلية القوم في مملكته، وكان الشعب لا يُكِنّ حباً له، بل كرهاً عميقاً قد تأصل في نفوسهم، لظلمه وجبروته وتعسف جنده بهم في شتى مناطق البلاد التي أخضعها بالحديد والنار وبجنده الأتراك: لقد كانت الرحمة والشفقة بعيدتين كل البعد عنهم، وكانت تصرفاتهم الرعناء، وجلافتهم الهمجية وعنفهم وأرواحهم الشريرة هي التي تسببت في سقوط أسرة السلطان[1]، وأما جلال الدين ابن السلطان علاء الدين، فقد كان هو الآخر مبغوضاً، مكروهاً، لأنه أحاط نفسه بجند شبه مرتزقة، فلم يتعاون الحكام المسلمون غرب إيران مثل السلاجقة والأيوبيين، وحاكم بغداد العباسي، مع جلال الدين لغلوه في التكبر والغطرسة، ومحاولة فرض نفوذه، وتكوين مملكة له في المنطقة بالقوة، وعلى حساب الشعوب والملوك الآخرين[2].

---

(1) أوضاع الدول الإسلامية، للغامدي، ص: 275، الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. حذيفة الغامدي، ص: 558.

(2) الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، ص: 559.

3 ـ النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية: إن سنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير، ولا تجامل، وقد جعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول: الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: **«فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»** وفي رواية **«فأهلكوا»**، وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه، **«فإنما أهلك من كان قبلكم بالاختلاف[1]»**.

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم لأن الاختلاف كان سبباً في ضياع الدولة الخوارزمية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع فيه البيت الخوارزمي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني، والأنانية وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمنصب، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الخوارزمي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة: انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها واضمحلالها[2].

لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الخوارزمية بالصراع بين علاء الدين الخوارزمي ووالدته تركان خاتون التي كونت لها عصبية قوية من قوات عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه، من ذلك أنه كان إذا حدث حادث من جهة من جهات الدولة، أو عرضت مشكلة من المشاكل وصدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونقض أحدثهما[3].

وهذا ينافي تماماً ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون، ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة مما أضعف هيبة حكامها، فضلاً عن ذلك فإن السلطان علاء الدين خوارزمشاه كان لا يخالف لأمه أمراً، لكونها أمه، وبسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها، ولنضرب مثلاً لقوة تركان خاتون

---

(1) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9 / 101، 102).
(2) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، ص: 118.
(3) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص: 42.

وتغلغل نفوذها في الدولة، فقد أمكنها أن ترفع أحد المقربين إليها وهو نظام الملك إلى منصب الوزارة ورغماً عن السلطان الذي لم يكن يميل إليه بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها صاحب هذا المنصب، ففضلاً عن أنه كان من الرجال المرتشين، فإنه عرف أيضاً بالتلكؤ في البت فيما يعرض عليه من الأمور، وقد حدث أن كان علاء الدين في مدينة نيسابور وأسند منصب القضاء فيها إلى صدر الدين الجندي، الذي كان من بيت تقلد كثير من أفراده كثيراً من وظائف الدولة، كما كان من أهل العلم والفضل، وبعد أن قلده علاء الدين هذا المنصب حذره من أن يرسل الهدايا إلى الوزير، كما يفعل أكثر الحكام، ولكن القاضي أدرك ما يترتب على عدم إرسال الهدايا إلى الوزير، وخاصة بعد أن هدده هذا بسوء المصير، وحدث بعد ذلك أن أرسل القاضي إليه فعلاً كيساً مختوماً به أربعة آلاف دينار مخالفاً في ذلك أوامر السلطان، ولما علم علاء الدين ذلك، أرسل إلى الوزير يطلب منه الهدية، فاضطر أن يرسلها إليه مختومة كما وصلته، ولما مثل القاضي في حضرته سأله عن نوع الهدية التي أرسلها إلى الوزير، فأجاب القاضي بأنه لم يرسل شيئاً وأقسم برأس السلطان على ذلك، فلما واجهه بالهدية أسقط في يده واعترف بالأمر، وحينئذ أصدر السلطان أمره بعزله وعزل الوزير[1].

والمهم من هذا كله، أن أحداً لم يجرؤ على أن يفاتح الوزير المعزول بخبر عزله ولم يستطع السلطان تنفيذ ما أمر به، ونلاحظ تركان خاتون عهدت بعد ذلك إلى نظام الملك لإدارة أملاك ابنها «أزلاغ شاه» الذي كان يحكم إقليم خوارزم، وسار الوزير في حكم هذا الإقليم سيرة تتفق مع طبيعته الشريرة، ونهب بعض أموال هذه الأقاليم، ولما علم السلطان بذلك ثارت ثائرته وأوفد أحد قواده إلى إقليم خوارزم، وأمره بأن يحضر إليه رأس الوزير، وكان طبيعياً ألا يرضي هذا الأمر أم السلطان وأمرت باستدعاء هذا القائد عقب وصوله وأمرته بأن يحضر إلى الديوان عندما يكون الوزير هناك وأن يجيبه باسم السلطان ويقول له: إن السلطان يقول لي ما لي وزير غيرك فكن على رأس عملك فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر قدرك، وقد اضطر القائد أن ينفذ ما أمر به واستمر نظام الملك يتمتع بسلطة واسعة رغم غضب السلطان عليه، كما استمرت أوامره نافذة في خوارزم وخراسان ومازندران[2].

لقد كان نفوذ تركان خاتون الكبير في شؤون البلاد وانعدام الوفاق بينها وبين ابنها

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص: 28 ـ 29.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 235.

قد زلزل أساس الدولة الخوارزمية، خاصة أن تركان خاتون وجنودها المرتزقة من عشيرة قنقلي قد وضعوا الممالك الأصلية في الدولة الخوارزمية تحت إدارتهم المستقلة وعينوا أقرباءهم في إدارة معظم شؤون الممالك المفتوحة أيضاً، ولم يكن للسلطان محمد حيلة حتى في اختيار ولي عهد مملكته ووزيره سوى النزول على رغبة والدته[1]، وكانت دائرة قوة تركان خاتون هي ولاية خوارزم وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في تلك المنطقة إما من أتراك قنقلي أو من خواص الملكة وغلمانها، وقد تم تعيين نظام الملك محمد بن صالح في منصب الوزارة واختيار أوزلاغ شاه ولياً لعهد خوارزمشاه بأمر منها وعلى خلاف رغبة السلطان محمد، فعلى الرغم من أن ولديه جلال الدين وركن الدين كانا أكبر من ابنه الثالث أوزلاغ، فقد تنازل السلطان عن ولاية عهده للأخير بعد إصرار تركان خاتون، ولُقب بأبي المظفر قطب الدين، وذلك لأن والدة أوزلاغ كانت من قبيلة تركان خاتون نفسها، وكان أهلها كأهل تركان خاتون من الأتراك ذوي النفوذ وكانوا من أعوان والدة خوارزمشاه، وهكذا، فعند عودة جلال الدين إلى خوارزم وإعلان خلع أوزلاغ وتعيينه بدلاً منه كان أول من شق عصا الطاعة عليه وأدى إلى فساد أمره وفراره من خوارزم هو خال أوزلاغ شاه «قُتلُغ خان» وكانت تركان خاتون تناصب السلطان جلال الدين العداء، وحين فر من خوارزم نصحها أحد خواصها بالفرار واللحاق بجيش جلال الدين، إلا أن تركان خاتون رفضت النصيحة وقالت: الوقوع في أسر جنكيز خان أفضل كثيراً من العيش في ظلال جلال الدين. وموجز القول: إن هذه المرأة الأنانية المتعطشة للدماء وأقرباءها من الأتراك كانوا من الأسباب الرئيسة لفساد أمر خوارزمشاه، وكان كثير من الخلل الذي أصاب دولته ناتجاً عن استبدادها وعن الفجوة التي تفصل بينها وبين ابنها[2].

4 ـ **ضعف النظام الحربي الخوارزمي:** كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التي أعدوها للدفاع عن دولتهم قبيل الغزو المغولي من العوامل الرئيسة التي أدت إلى انتصار المغول، ففضلاً عن أن الجيش الخوارزمي الذي اعتمد عليه علاء الدين كان يتكون من التركمان وقبائل كانكالي، أما التركمان فهم سلالة الأتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة، وأدى استيطانهم في هذا الجزء من العالم

(1) تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، ص: 126.

(2) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 85.

الإسلامي واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية، إلى تغيير صفاتهم الجثمانية وعاداتهم ولغتهم، أما قبائل «كانكالي» فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالي إقليم خوارزم وفي شمال شرقي بحر قزوين، وقد اندفعوا إلى أراضي الخوارزمية على إثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة، فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنة أحد زعماء هذه القبائل، وكان من أثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية ودخلوا في خدمة علاء الدين محمد خوارزمشاه وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه، وأطلق أيديهم فيها، ومما لا شك أن قوة الخوارزميين قد تضاءلت أمام هذه الأرستقراطية العسكرية، وشعر الأهلون فعلاً وكذا السلطان بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له مزعزعة الأركان، وطاعتهم له لا تقوم على شعور ينم عن الإخلاص، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسالمين ونهب حوانيتهم في الطرقات[1]، وتفنن هؤلاء الجند الغرباء في تعذيب الأهالي وسلكوا في ذلك سبلاً متعددة، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية[2].

لقد كان جنود الأتراك مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية، فإن هؤلاء الجند لم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم في ذلك شأن الجنود المرتزقة الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم، وكانوا يدركون أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير، ثم إن الجيش الخوارزمي كان ينقصه النظام والطاعة للقواد والقدرة على تحمل الصعاب، تلك الصفات التي كانت من أهم مميزات الجيش المغولي، وأهم من ذلك كله فقد فقد علاء الدين خوارزمشاه ثقة شعبه، فلم يشاركوه بقلوبهم في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه، كما لم يساعدوه في جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده، هذا فضلاً عن أن القدرة على تجنيد السلطان لمن يشاء من رعيته لم تتوفر.

وأما ناحية الخطة الحربية التي اتبعها علاء الدين خوارزمشاه، فنرى أنها كانت خطة غير موفقة، إذ بدلاً من أن يجمع جيشاً واحداً يقف به في وجه المغول نراه يوزع

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 236.

(2) المصدر نفسه، ص: 233.

قواته على المدن المختلفة في بلاد ما وراء النهر، فمثلاً نراه يضع في مدينة بخارى عشرين ألف رجل، وفي سمرقند خمسين ألفاً،كما نراه يضع في مدينة أترار التي تعتبر مفتاح هذا الإقليم عشرين ألفاً، ونراه أيضاً يرسل دعاته إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها، معلناً أنه سيضع في كل إقليم جيشاً يعادل ما يجمع من هذا الإقليم من أموال، وهكذا نرى تفرق الجيش الخوارزمي بين المدن الخوارزمية المختلفة، مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى، ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة، لربما سهل عليه القضاء عليهم. وبسبب تجمع الجيوش الخوارزمية في داخل المدن، نرى علاء الدين يعمل جاهداً على تحصين تلك المدن وتقوية حوائطها، حتى يكون الجنود وهم في داخل الأسوار في مأمن من غدر أعدائهم، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله في مدينة سمرقند إذ أنه رغم اتساع هذه المدينة نراه يشرع في بناء سور حولها ليكون وسيلة قوية من وسائل الدفاع، ولكي يحصل على المال اللازم لهذا المشروع نراه يوزع عماله في الأقاليم لجمع الضرائب باسم عمارة سور سمرقند، واستطاع بعد ذلك أن يجمع المال اللازم لهذا المشروع وفي وقت قصير، ولكن الغزو المغولي المفاجئ منعه من إنجاز مشروعه.

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل السبب الذي دفع علاء الدين إلى توزيع قواته على هذا النحو في داخل المدن الخوارزمية، فيرى جيبون أنه قد ظن أن المغول سيملون حصار هذه المدن العديدة، ومن ثم يعودون إلى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن منالاً[1]، ويرى سيكس أن علاء الدين خوارزمشاه ظن في ذلك الوقت أن جنكيز خان سيكتفي في البلاد الإسلامية بنهب ما تصل إليه أيديه من الغنائم والأسلاب ثم يعود من حيث أتى[2]، وهذا يخالف طبعاً ما عزم عليه جنكيز خان من إخضاع أقاليم آسيا الغربية، ويرى فلادمير ستوف أن السلطان الخوارزمي كان لا يثق بقواته ولذلك كان يخشى أن يتجمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائدها قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان، فوق ما تقدم فإن قوات الخوارزميين لم يكونوا من الكفاءة والمقدرة بحيث يستطيع قائد واحد منهم أن يقود جيشاً كبيراً، أضف إلى ذلك أن علاء الدين وجد أنه من الصعب عليه أن يلتقي بأعدائه في العراء، ولذلك فضل التحصن في المدن، ومما تقدم نرى أن نظام

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 237.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 237، 238.

الخوارزميين الحربي كان مرتبكاً ومضطرباً، وأن قوتهم وزعت وتفرقت، ولذلك سهل على المغول إخضاع المدينة تلو الأخرى وإبادة الحامية بعد الحامية، كما سهل عليهم بعد انهيار بلاد ما وراء النهر التي ركز الخوارزميون فيها وسائل دفاعهم أن يزيلوا الدولة الخوارزمية ويخربوا ما عمَّره المسلمون من مدنها، ويجعلوا منها أطلالاً لا تجد من يبكيها[1].

5 ـ حب الدنيا وكراهية الموت: كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين، وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً لا يُفهم ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «**يوشك الأمم أن تتداعى عليكم، كما تداعى الأكلة على قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**[2]».

لقد سيطر حب الدنيا على القلوب، وكره المسلمون الموت في سبيل الله، فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل، إذا توجه شرقاً شرقوا معه، وإذا توجه السيل غرباً غربوا معه، لا رأي ولا هدف ولا طموح، ونزع الله عز وجل مهابة المسلمين من قلوب التتار، فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة وألقى في قلوب المسلمين الوهن والضعف والخور حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترياً واحداً... ولا حول ولا قوة إلا بالله[3].

يقول أبو الحسن الندوي: وقد دخل رعب التتار في قلوب المسلمين إلى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان في سكة من سكك مدينة حيث وجد مائة رجل من المسلمين فقتلهم جميعاً، وأتى على آخرهم دون أن يتجرأ أحد منهم لمقاومته[4]. وذات مرة دخلت امرأة تتارية بيتاً متزيية بزي الرجال وقتلت جميع أفراد الأسرة، وعرف أحد

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 238.

(2) سنن أبي داود نقلاً عن: قصة التتار، ص: 40، 41.

(3) قصة التتار، ص: 41.

(4) رجال الفكر والدعوة (1/ 282).

المسجونين الذي كان معها أنها امرأة فقتلها، وقد حدث بعض الأحيان أن تتارياً أسر مسلماً وقال له: ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتي بالخنجر فأذبحك، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ثم أتى التتاري بالخنجر من المدينة وذبحه[1].

كانت غارة التتار فتنة عظيمة، ومحنة كبيرة، هزت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة، وانهزامهم فوق القياس، حتى ساد المثل «إذا قيل لك التتار انهزموا فلا تصدق»، فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيدت وخربت، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين إلا وانتهكت حرمتها، فكان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير والإبادة والذلة، وانتهاك الأعراض، ولا شك أن العالم الإسلامي كله ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عن بكرة أبيه، إن المؤرخ يشغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع، وتمر به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك، فيجري قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق له قلبه، وتدمع له عينه، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسي حينما وصل إلى ذكر حادث التتار[2] حيث قال: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلاً وأؤخر رجلاً، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذلك؟ ويا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، والتي عقمت الأيام والليالي عن مثلها وعمت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا مثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يُدانيها، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا ياجوج وماجوج، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار

(1) المصدر نفسه (1/ 282)، نقلاً عن: الكامل في التاريخ.

(2) رجال الفكر والدعوة.

شررُها وعمَّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الرياح[1].

ويقول مؤلف «مرصاد العباد» الذي شهد هذه الوقعة بعينه وما دار في مولده الري وموطنه همدان من حوادث فظيعة بعينه ومن التخريب والتدمير: استولى الجيش التتاري ـ خذلهم الله ودمرهم ـ سنة 618هـ على بلاد الإسلام، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد، والقتل والهدم والإحراق، وما ظهر من أولئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود في أي عصر من عصور التاريخ، لا في الإسلام ولا في الجاهلية، فقد قتلوا وأسروا في «ري» وحدها التي هي مولودي أكثر من سبعمائة ألف مسلم، إن الفتنة التي أثاروها في العالم الإسلامي والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس، وعياذاً بالله، إذا لم تتحرك حميَّة الإسلام وغيرته في ملوك المسلمين وسلاطينهم، ولم يذكروا أنهم مسؤولون عن الأمة لقوله ﷺ: «**الأمير راع على رعيته وهو مسؤول عنها**»، وإذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكي يتحدوا على كلمة واحدة وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 41]، وإذا لم يستعدوا ببذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة، وإن ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة، وترتمي بلاد الإسلام في أحضان الكفر، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به[2].

6 ـ **ترك الاتحاد، والوقوع في ظلم العباد:** «غياب العدل» والفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوء المكانة الفاضلة بين الأمم والشعوب، وهي الوسيلة لقيادة البشرية إلى الحضارة الربانية الرشيدة، وقد أرشدتنا التعاليم الشرعية إلى وحدة الصف واتحاد الكلمة والرجوع إلى شرعه وتحكيم الكتاب والسنة فيما بيننا، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى، الآية: 10]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء، الآية: 59]، فقد عطل شرع الله تعالى، وترتب على ذلك

---

(1) الكامل في التاريخ (12/ 147 ـ 148) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (1/ 283).
(2) رجال الفكر والدعوة (1/ 284).

الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال، الآية: 46]، فجعل الله عز وجل الفشل قريناً للتنازع، والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم، وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحرب مع التتار كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم، وقد عُلم يقيناً أن من كانت هذه صفتهم فلا يكتب لهم النصر أبداً، فالمسلمون كانوا ـ في تلك الآونة ـ يهلك بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، فلا عجب أن غلب عليهم جيش المغول أو غيرهم، يقول ابن الأثير: وكان محمد بن خوارزمشاه قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعها ولا من يحميها[1]، لقد قطع محمد الخوارزمي كل العلاقات بينه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية، لم يتعاون معها أبداً، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخرى، وكان يقتل ملوك هذه الأقطار ويضمها إلى مملكته، ولا شك أن هذا خلف أحقاداً كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا ليس من الحكمة في شيء.
انظروا إلى رسول الله ﷺ عندما كان يفتح البلاد كان يولي زعماء هذه البلاد عليها ويحفظ لهم مكانتهم ويبقي لهم ملكهم، فيضمن بذلك ولاءهم وحب الناس له، فأبقى على حكم البحرين ملكها المنذر بن ساوى، وأبقى على حكم عمان ملكيها جيفر وعباد، بل وأبقى على اليمن واليها باذان بن ساسان الفارسي عندما أسلم وهكذا، وهذا بخلاف ما فعله السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، فقد كان حاكماً بقوته لا يحبه الناس، فلما احتاج إلى الناس لم يجدهم، ولما احتاج إلى الأعوان افتقر إليهم، ولم تكن الصراعات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية، ومكايد كثيرة ومؤامرات عديدة، فلم تتوحد القلوب بهذا البلد، وانعكس ذلك على الصفوف، وكانت النتيجة الهزيمة الساحقة أمام المغول، وما كان للنصر أن يتحقق والأمة على هذا النحو[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف، الآية: 4].

وأما جلال الدين عندما دخل أخلاط التابعة للأيوبيين عام (627هـ) وضع السيف في أهلها وفعل في ذلك فعل التتار، فقتل كل من وجد في البلد، فكانوا قد قلوا،

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن: قصة التتار، ص: 38.
(2) قصة التتار، ص: 39.

فبعضهم كان فارق البلد خوفاً بعد الحصار الأول، وبعضهم مات في البلد جوعاً، وبعضهم صعد إلى القلعة مع من صعد إليها من الأمراء والأجناد، وكانت الأقوات قد قلت، بل عدمت بأخلاط، حتى أكل أهلها البغال والكلاب والسنانير، كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه، وصبروا صبراً لم يصبره محاصر، خوفاً من جلال الدين وما يعرفونه منه من إقدامه على سفك الدماء، ولما فُتحت سبى عسكره الحريم، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة، ونهبت الأموال، وجرى منه نظير ما جرى من التتار، فلا جرم أن الله سبحانه عاقبه ببغيه ولم يمهله وقلع شأفته[1].

كان الأجدر به عدم الدخول في صراع مع القوى الإسلامية في الشام وغيرها، وكان عليه أن يعمل على لملمة الدولة ويبني جيشه على أسس عقائدية وأخلاقية، لقد كان جلال الدين يفتقد للحكمة والبعد السياسي ومكارم الأخلاق، التي يستطيع أن يكسب بها الأبطال والقادة والملوك، ولم يكن جلال الدين رجل المرحلة المطلوبة، وسترى بإذن الله تعالى الفرق الكبير بين جلال الدين منكبرتي وصفات سيف الدين قطز الذي حقق الانتصار على المغول في معركة عين جالوت.

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة، يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم، بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك، كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[2]، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف، الآية: 34]، قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ولكل أمة أجل» أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[3]، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في

(1) مفرج الكروب (4/ 296).

(2) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: 121.

(3) تفسير الألوسي (8/ 112).

الظلم والظالمين، ولكننا لانعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند الله تعالى[1]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝﴾ [هود، الآية: 100 ـ 102].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: الآية، 102]، فبيّن الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. الآية تحذر من خطورة الظلم، فالدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته هلاك الدولة لكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝﴾ [هود، الآية: 11]، قال الإمام الرازي في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد[3]. وفي تفسير القرطبي قوله: بظلم أي: بشرك وكفر «وأهلها مصلحون» أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم في الكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط[4]، قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس أن تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، لهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة،

(1) السنن الإلهية، ص: 121.

(2) المصدر نفسه، ص: 121.

(3) تفسير الرازي (18/ 16).

(4) تفسير القرطبي (9/ 114).

ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[1]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الخوارزميين، من سفك الدماء بغير حق، وقتل للمسلمين، واجتياح المدن الإسلامية ومحاصرتها واستباحتها، كان الجيش الخوارزمي يضرب به المثل في النهب والقتل، وعمل كل قبيح، الزنا فيهم فاشٍ، واللواط غير معذوق بكبر ولا بصغر، والغدر خلق لهم، أخذوا تفليس بالأمان، ثم غدروا وقتلوا وسبوا، كانت عساكر جلال الدين أوباشاً فيهم شر وفسق وعتو[2]. لقد ساهمت المظالم التي ارتكبها الخوارزميون في زوال دولتهم من الوجود.

7 ـ أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية: ظهرت أنانية محمد علاء الدين في اهتمامه بتأمين نفسه وأسرته ومقربيه وتهاونه في تأمين شعبه، وحافظ جداً على كنوزه وكنوز آبائه، وأهمل الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه، وعادة ما يسقط أمثال هؤلاء القواد أمام المحن والشدائد والفتن والمصائب التي تعصف بالأمم والشعوب والدول، وعادة ما تنهزم الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المغلوبة دون إصلاح، لقد فر السلطان محمد علاء الدين خوارزم من نيسابور واتجه التتار خلفه مباشرة يطاردونه من مدينة إلى أخرى في فرار مخزٍ فاضح، ووصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ونجحت خطة محمد الخوارزمي في الفرار، ورضي بالبقاء في تلك القلعة مع الفقر الشديد والحياة الصعبة وهو الملك الذي ملك بلاداً شاسعة وأموالاً باهظة، ولكن رضي بذلك لكي يفر وينجو بنفسه، وهذا مرض قلبي أخلاقي في الأساس، وما هي إلا أيام حتى مات محمد علاء الدين محمد خوارزمشاه في هذه الجزيرة وحيداً طريداً شريداً فقيراً، وصدق الله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء، الآية: 78]. كان الأولى للسلطان الخوارزمي أن يموت رافع الرأس ثابت الجأش، مطمئن القلب في ميدان الجهاد، وأن يموت مقبلاً لا مدبراً[3]، ولكنها الأنانية البغيضة والهزيمة النفسية التي أصيب بها ذلك السلطان الخوارزمي. لقد دب الرعب والخوف في قلبه من استبسال جنود المغول وحنكتهم في الحرب، وبعد عودته من سمرقند أخذ يشيد مراراً

---

(1) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية، ص: 40.

(2) سير أعلام النبلاء (22/ 328). معذوق: معلّق، أخذه من عذق النخلة.

(3) قصة التتار، ص: 36 ، 37.

وتكراراً بثبات المغول في القتال ومعرفتهم بفنون الرماية والقتال بالسيف، وهو ما أخافه لدرجة أعجزته عن الصمود أمامهم، بل إن في فراره كان يحذر الأهالي من المغول ويدعوهم للتسليم لهم وطاعتهم، وكان لخوفه وفراره تأثير سيئ على الجنود وأهالي البلاد، وأدى إلى انفراط عقد الجيش وضعف روح الدفاع والقتال والجهاد عند الأهالي[1]، فهروب السلطان من الميدان من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

8 ـ شخصية جلال الدين منكبرتي: بعد أن رجع جنكيز خان إلى بلاده عاد جلال الدين من الهند، وكون في الجزء الغربي من أقاليم الدولة الخوارزمية حكومة مهيضة الجانب، ولم يكن في وسع هذا السلطان الذي ركز جهوده للانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسي بسبب عداوتهم لأبيه، والذي كان فوق ما تقدم جاهداً في توسيع رقعة بلاده على حساب ما يجاورها من حكام البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، لم يكن في وسع هذا السلطان أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران، ولذلك قضى فترة من الوقت استطاع فيها، على قصرها، أن ينهك القوى الإسلامية ويضعفها،كما أثار نفور المسلمين منه وسخطهم عليه، فانفضوا من حوله، فضلاً عن هذا فإنه لم يحسب حساباً للمغول، الذين انصرفوا عنه وعن العالم الإسلامي إلى حين، بسبب تفرغهم لمشاكلهم الداخلية في ذلك الوقت، وكان الواجب على جلال الدين منكبرتي وقد عاد إلى بلاده وتربع على عرشها أن يستفيد من أخطاء أبيه وهفواته السياسية، فيعمل على اكتساب إرضاء جيرانه في الخارج، ويكون حلفاً إسلامياً يقف به في وجه المغول، وكان يجب عليه أيضاً أن يعمل على كسب محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالي إذا ما ظهر الخطر المغولي من جديد، ولكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة في ذلك الوقت إلا ناصبها العداء، خارج دولته وداخلها، ففي الخارج اعتدى على أملاك الخليفة، وأملاك الأمراء المسلمين في بلاد ما بين النهرين، كما غزا أذربيجان وجورجيا وأذل أهليهما لسلطانه، وناصب طائفة الإسماعيلية العداء فألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضي الدولة الخوارزمية[2].

وقد وصف ابن الأثير سياسة جلال الدين منكبرتي الخارجية منذ ظهوره على

(1) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 130.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 239.

المسرح التاريخي من جديد، وصفاً يعبر تعبيراً صحيحاً عما جلبته عليه هذه السياسة من أضرار، فقال: وكان جلال الدين سيئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة شسشتر وهي للخليفة فحصرها وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر، وهي للخليفة أيضاً، ثم ملك أذربيجان وهي لأوزبك فملكها وقصد الكرج «جورجيا» وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الأشرف صاحب أخلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيلية، ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر، وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، كذلك غيرهم، فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده[1].

وهكذا كان من أثر عداوة جلال الدين لهذه القوى المحيطة بدولته أنها رفضت أن تمد له يد المساعدة، عندما داهمه المغول بغزوهم المفاجئ[2].

وأما في الداخل فنرى جلال الدين يحاول أن يكون الحاكم المستبد في دولته، فانفض عنه أخوه غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه في الوقت الذي كان يتحتم عليه أن يستفيد بمجهود كل رجل في دولته كذلك نرى كبار رجال الدولة ينفضون من حوله ويحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات، ويشعلون عليه نيران الثورة في البلاد الخاضعة، كما حدث في أذربيجان[3]. ولم يهتم جلال الدين بتكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولي إلا عندما دقت الساعة وظهر المغول فجأة في الميدان فأخذوه على حين غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شؤونه الداخلية و الخارجية، فكانت النتيجة أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة 628هـ / 1231م، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة نوشتكين[4].

مدح الذهبي جلال الدين منكبرتي وقال: السلطان الكبير جلال الدين منكوبرتي ابن السلطان الكبير علاء الدين محمد ابن السلطان خوارزمشاه الخوارزمي، تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في مجلد... كان جلال

(1) الكامل في التاريخ (12/ 230).
(2) الدولة الخوارزمية، ص: 240.
(3) المصدر نفسه، ص: 240.
(4) المصدر نفسه، ص: 240.

الدين أسمر تركياً قصيراً منعجم العبارة، يتكلم بالتركية، وبالفارسية، وأما شجاعته فحسبك ما وردته من وقعاته فكان أسداً ضرغاماً وأشجع فرسانه إقداماً، لا غضوباً ولا شتاماً، وقوراً، لا يضحك إلا تبسماً، ولا يكثر كلاماً، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب وجرت له أمور يطول شرحها ما بين ارتقاء وانخفاض، وهابته التتار ولولاه لداسوا الدنيا، وقد ذهب إليه محيي الدين بن الجوزي رسولاً وجده يقرأ في مصحف ويبكي، ثم اعتذر عما يفعله جنده بكثرتهم، وعدم طاعتهم[1].

9 ـ قصر نظر الخليفة الناصر لدين الله العباسي: استطاع غياث الدين أخو جلال الدين أن يتملك منطقة شمال إيران نتيجة الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه المنطقة، وسيطر على مدن الري وأصفهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان في جنوب إيران، وأصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزمشاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران،أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران وهي إقليم خراسان بكامله، فكانت تحت السيطرة التترية، وبذلك يصبح غياث الدين بمثابة حائط صد بين التتار والخلافة العباسية، وكان ذلك في الفترة التي انقطع فيها جلال الدين في الهند.

كان من المتوقع من الناصر لدين الله الخليفة العباسي في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المفروض عليه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم، وذلك لأنهم الآن يواجهون عدواً مشتركاً وهم المغول، كان ذلك فرض الوقت عليه، إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الإستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة، ذلك لأن غياث الدين هو الذي يقف مباشرة في مواجهة التتار ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد، وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المرحلة الثانية هي الخلافة العباسية، لكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله لم يكن يدرك كل هذه الأبعاد[2]، لقد كان يعاني من قصر النظر ومن أمراض النفوس، كحب الانتقام، والمكر بالمسلمين، ولم ينس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية، وأراد أن يقوض أركان السلطان هناك، ناسياً أنهم بينه وبين التتار، وعمل على إذكاء وإشعال فتنة داخلية بين غياث الدين وخاله «إيغان طائسي»، وكان رجلاً كبيراً

(1) سير أعلام النبلاء (22/ 326 ، 327 ، 328).

(2) قصة التتار، ص: 68.

وصاحب رأي في الحرب، يعمل أميراً في جيش غياث، وكان الأخير لا يقطع أمراً دون مشورته، فراسله الخليفة الناصر لدين الله، ورغبه في الانقلاب على غياث الدين وعظم له الاستيلاء على الملك، وبذلك يضمن الخليفة ولاء إيغان طائسي له، وببعد غياث الدين عن الحكم، ولم يهمه تلك الفتنة التي ستدور في الأرض المجاورة له، والتي تعتبر العمق الإستراتيجي الهام له، ونجح في مشروعه التآمري واندلعت الحرب بين غياث وخاله ودارت مجزرة بين المسلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف إخوانهم، وانهزم إيغان طائسي خال غياث الدين، وقتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقي معه إلى أذربيجان، ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

إن الخليفة العباسي لم يقم بواجبه في دعم المسلمين ضد المغول، بل كان معول هدم لمن تصدى للمقاومة، وهذا الخليفة ذمَّه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير فيقول: وكان قبيح السيرة في رعيته، فتُخرب في أيامه العراق، وتفرَّق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جدَّدها ببغداد خاصة ثم أعادها، وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور[2]. فكان هذا الخليفة خصماً للخوارزميين ولم يقف معهم في التصدي للمغول، بل عمل على إثارة الفتن داخل صفوف المسلمين، فكان ذلك من أسباب زوال الدولة الخوارزمية، ولا شك أن اعتداءات الخوارزميين السابق على الخلافة ببغداد من أسباب ضعفهم وعدم الوقوف معهم.

10 ـ غياب العلماء: في تحقيق الأمة للانتصارات الكبرى نجد مكانة العلماء والفقهاء لدى الحكام وفي وجدان الشعوب واضحة المعالم، بل نلاحظ الكتابات عن أهمية الجهاد وفضائله، وسيرة الرسول في الغزوات وتاريخ صدر الإسلام وانتصارات الأمة على أعدائها، ويتحرك الخطباء والعلماء والفقهاء في أوساط الناس، ويخرجون مع الجند في المعارك ويشاركون بأنفسهم في قتال الأعداء. وفي الدولة الخوارزمية لا مكانة

(1) قصة التتار، ص: 70.
(2) الكامل في التاريخ (12/ 181) رجال الفكر والدعوة (1/ 275).

للعلماء والفقهاء، بل عطلوا عن دورهم، فهذا من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

11 ـ **المشروع المغولي:** أخذ جنكيز خان قائد المشروع المغولي بأسباب النجاح المادية والقانونية، من قيادة متزنة ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد ومحاربة أسباب الفرقة داخل الشعوب المغولية والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد والوحدة وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم وغيرها من الأسباب، وبالإضافة إلى تدهور أوضاع البلاد الإسلامية لتركهم شريعة ربهم، ويمكن إجمال نجاح المشروع المغولي على الدولة الخوارزمية في النقاط التالية:

أ ـ حنكة جنكيز خان وثباته وصبره وتواضعه.

ب ـ اطلاعه الكامل على أوضاع ممالك خوارزمشاه، واستغلال معلومات التجار المسلمين والمترجمين والعارضين بالمسالك والطرق.

جـ ـ الياسا الجنكيزية وأحكامها الصارمة في حفظ النظام بين المغول وإخضاعهم جميعاً لأمر واحد.

د ـ الاتفاق التام بين قواده وأبنائه، حيث لم يكن لأي منهم رأي بعد رأي جنكيز خان، وكانوا جميعاً أدوات لتنفيذ أهدافه، ولم تكن تساور أياً منهم فكرة الاستقلال أو التفوق على الآخر.

هـ ـ وحدة اللغة والعادات والتقاليد ووحدة الهدف بين جنود جنكيز خان وهو ما كان الخوارزميون يفتقرون إليه[1].

و ـ قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول مقارنة بالخوارزميين، فقد اهتموا بالكيف لا بالكم، فالسلطة العليا كانت في الخان الأعظم فهو المرجع الأخير في كل صغيرة وكبيرة، وهو الذي يشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية، واختيار الأوقات المناسبة لها، وكان الجيش المغولي منظماً أحسن تنظيم[2]، وقد مر معنا ذلك. هذه هي أهم أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، وهي متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالسبب السياسي يؤثر في العامل العسكري، ويتأثر به وهكذا.

سادساً: وفاة جنكيز خان: أمضى جنكيز خان شتاء عام 1225 إلى 1226م والصيف التالي في مقره العام عند نهر تولا من إمبراطوريته الكبيرة، وكان محاطاً برفاق

---

(1) تاريخ المغول، عباس إقبال، ص: 131.

(2) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 240، 244.

موثوقين، كال لهم المديح وقال لهم: لقد ساعدتموني وجعلتموني قادراً على العمل الصحيح الذي يجب عمله، وأمسكتم بيدي بعيداً عن عمل الأمر الخطأ، وبفضل هذا السلوك من جانبكم فقد بلغت المرتبة العالية[1].

كان هناك عمل ينتظر التنفيذ، وكان ذلك معاقبة ملك الطانغوط عاهل شي ـ شيا «أوهسي ـ هسيا» المتاخمة للتيبت لرفضه إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد خوارزم، وكان جنكيز خان يوم تحرك باتجاه الغرب قد قطع على نفسه عهداً بمحاسبة الملك الطانغوطي على ذلك الرفض رغم أنه تابع له، وحشد عام 1226م كل جيوشه ضد الطانغوط، ولكن الثأر وحده لم يكن الدافع على محاربة أولئك القوم، بل كانت هناك أسباب وجيهة أخرى تدعو إلى إخضاع تلك المنطقة، كان صينيو إمبراطورية كين، الإمبراطورية الذهبية، بعد مغادرة جنكيز خان للصين قد نجحوا فاسترجعوا قسماً كبيراً من أقاليمهم، وكان موخولي الجنرال المغولي العامل في الصين نيابة عن جنكيز خان، مشتبكاً في قتال مرير متواصل معهم، وأدرك جنكيز خان أن العوامل الجغرافية تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، توجيه ضربة مميتة إلى الصينيين الذهبيين بينما السلطة المغولية غير مستقرة ووطيدة في بلاد الطانغوط، وكان اهتمامه بهذا الأمر من الشدة بحيث لم يلجأ لتحقيقه إلى أي من جنرالاته، وإنما عمد رغم تقدم سنه إلى قيادة الجيش بنفسه، ويدلنا هذا القرار أنه كان لايزال مالكاً لجميع قواه البدنية والعقلية، وبدأت الحرب في خريف (عام 1226م) وكانت البداية ناجحة، غير أنه في فصل الشتاء وفي إحدى مناورات الصيد، جمح جواد جنكيز خان مرعوباً ببعض الخيول المتوحشة التي كانت وفيرة في تلك الأنحاء وألقى بالخان المغولي أرضاً، وأصيب جنكيز خان على أثر ذلك بمرض شديد، الأمر الذي دعا أولاده المرافقين له والمتقدمين سناً من جنرالاته إلى التشاور فيما بينهم حول ما يجب عليهم عمله، قال أحدهم: الطانغوط شعب حضري يسكن المدن لا يغادرها، ومن الممكن أن نعود الآن إلى الوطن، لنرجع إلى هذا المكان بعد أن يستعيد الخان عافيته، ووافق المجتمعون على هذا الرأي، ولكن جنكيز خان رفض وقال: إذا نحن ذهبنا فسيظن الطانغوط يقيناً بأننا نخاف منهم، إنني أبقى للعلاج والشفاء في هذا المكان ولن نبرحه، وسنبدأ فنبعث إليهم برسالة، لنرى ما هو الجواب الذي سيعطونه، وقد وجهت إلى ملكة طانغوط الرسالة التالية: وعدت بأن

(1) جنكيز خان، ص: 275.

تكون يدي اليمنى، ولكنك رفضت أن تذهب معي إلى محاربة الخوارزميين، وأضفت الإهانة إلى هذا العصيان، والآن وبعد أن افتتحت بلاد خوارزم فقد جئت أطلب منك ترضية، وكان جواب العاهل الطنغوطي على هذه الرسالة عبارات تحقير وإهانة، وقد غضب جنكيز خان لذلك غضباً شديداً، وهتف صارخاً: أمن الممكن بعد هذه الإهانة أن نذهب بعيداً؟ إني لن أذهب ولو كان وراء ذلك موتي. إني أقسم على هذا بالسماء الأبدية، وقد وفى بقسمه، فدمّر مملكة الطانغوط ودولتهم ولكنه مات في سياق ذلك.

كان جنكيز خان مريضاً منذ سقطته الأخيرة عن ظهر الجواد أثناء الصيد وكان يشعر أن المرض يمتص منه الحياة[1]، ولما اشتد المرض عليه وعرف أن منيته قد حانت استدعى أولاده فأوصاهم أن يخلف ابنه أوكتاي لمزية رأيه المتين، وعقله الرزين، فجعله ولي عهده، فوافقوا على اختياره، وهذا نص وصيته لأولاده: اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم يا أولادي فهيأتها لكم، فوصيتي لكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورفع الأصدقاء وتكونون جميعاً على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة ودلال وتتمتعوا بالمملكة[2]. وهناك في إقليم كان سو الصيني الحديث غير البعيد من مدينة تسن جو أسلم جنكيز خان الروح في النصف الأول من رمضان عام 624هـ الموافق أغسطس 1227م وقد حمل جثمانه إلى منغوليا ودفن في المنطقة التي يخرج منها نهر أونون وكورلين، وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول.

(1) جنكيز خان، ص: 277 ، 278.

(2) المغول في التاريخ، د. العباد، ص: 138.

الفصل الثاني:

سقوط بغداد على أيدي المغول

المبحث الأول: خلفاء جنكيز خان

أولاً: تقسيم ممالك جنكيز خان:

كان لجنكيز خان زوجات ومحظيات كثيرات ولكنه كان يفضل عليهن جميعاً زوجته المسماة «يَسُونجين بَيْكي» ولهذا كان يعز عليه أبناءه من هذه الزوجة ويقدمهم على أبنائه الآخرين، وقد أنجب جنكيز خان تسعة أولاد من بينهم أربعة كانوا من زوجته يسونجين وهؤلاء الأبناء الأربعة هم: جوجي وجغتاي وأوكَتاي وتوُلوُي، وكان أبوهم جنكيز خان يعهد إليهم بجلائل الأعمال، كما كان يعتمد عليهم اعتماداً كلياً في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف، فمثلاً نراه يكلف أكبر أبنائه «جوجي» بالإشراف على شؤون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، وأما ابنه الثاني «جغتاي» فقد وكل إليه تنظيم شؤون القضاء والعمل على تنفيذ أحكام جنكيز خان وقوانينه وتوقيع الجزاء والعقاب على المقصرين، وجعل ابنه الثالث «أوكتاي» يختص بالشؤون المالية والإدارية، ويقوم بتنظيم شؤون الملك، وتدبير مصالح الناس، وفوض إلى ابنه تولوي مباشرة شؤون الدفاع وإعداد الجيوش، وكان يدعى «إلغ نويان[1]»، وقد رأى جنكيز خان أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات، هو أن يقسم إمبراطوريته بينهم وهو على قيد الحياة، وقد تم التقسيم على النحو التالي:

1 - كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء جنكيز خان، البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وكان في تلك البلاد عامة القبجاق ويطلق عليه اسم «القبيلة الذهبية» نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، وكان غالب

(1) معنى الغ نويان: الأمير الكبير.

أهلها من الأتراك والتركمان[1]، ولما كان جوجي قد توفي قبل وفاة أبيه قرر جنكيز خان أن تكون هذه المناطق من نصيب حفيده «باتو بن جوجي» الذي اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث وشدة التعقل وأصبح رأس بيت جنكيز خان وقام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش للإمبراطورية.

2 ـ اختص جغتاي ببلاد الأويغور، وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه.

3 ـ نال أوكتاي ولي العهد، قسماً يقل عن نصيب إخوته وكان ينحصر في مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة الاجول وحوض نهر اليميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع غربي منغوليا.

4 ـ منغوليا، المنطقة الأصلية لجنكيز خان وآبائه وأجداده والتي تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم كانت من نصيب تولوي أصغر أبناء جنكيز خان، وقد استمر يحكم الإمبراطورية مدة عامين 624 ـ 626 هـ (1227 ـ 1229م) بصفته وصياً على العرش، طبقاً للعرف المغولي، وذلك بمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب الخان الجديد خلفاً لجنكيز خان[2].

ثانياً: انتخاب أوكتاي خاناً أعظم للمغول: بعد وفاة جنكيز خان وظل العرش خالياً من ملك لمدة عامين، وأخيراً رأى الأمراء الكبار ضرورة التعجيل بتنصيبهم خاناً جديداً، حتى تنصلح الأمور ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك، وقد استقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى «القوريلتاي»، ووفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش وظلوا هناك ثلاثة أيام في متعة وأنس وطرب، وشرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، ولكنه حاول التنحي والاعتذار بأنه غير آهل لتولي هذا المنصب الخطير، وأن أخاه «تولوي» أجدر منه بمباشرة هذا الأمر، والالتزام به، لأنه الأخ الأصغر، وطبقاً لتقاليد المغول ورسومهم يقوم مقام الأب ويتعهد داره لأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويعرف الأصول والقوانين، غير أن إخوته وأقاربه، أغلقوا أمامه كل باب للاعتذار وأصروا عليه على أن يقبل هذا المنصب، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فنزل على مشيئتهم آخر الأمر،

(1) السلوك للمقريزي، نقلاً عن: المغول، د. الصياد، ص: 164.
(2) المغول، للصياد، ص: 165.

وعندئذ أخذ «جغتاي» يد أخيه «أوكتاي» اليمنى وأخذ تولوي يده اليسرى وأمسك عمه «أوتجكين» بحزامه وأجلسوه على سرير الخانية ورفع الحاضرين داخل البلاط وخارجه وأعلنوا تنصيب أوكتاي «حاقاناً» أي خاناً أعظم للإمبراطورية المغولية، وذلك في القوريلتاي الذي عقد لهذا الغرض في ربيع سنة 626هـ (1229م) بعد ذلك قام الخان بتوزيع الأموال على الأقارب والعشائر. وطبقاً للرسوم والعادات المتبعة عند المغول، أمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح جنكيز خان، كذلك اختار أربعين فتاة حسناء من نساء الأمراء الذين كانوا يلازمونه وألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بالمرصعات والجواهر، ثم أرسلوهن على جياد أصيلة إلى جنكيز خان[1] ـ قتلوهن وذلك على على حد زعمهم ومعتقدهم ـ وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها جنكيز خان نافذة المفعول، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل، كذلك أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش، وهدد بإنزال العقاب الصارم على كل من تحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك، واهتم اهتماماً كبيراً بإكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيز خان فكوّن الجيوش اللازمة لغزو إيران وأوربا والصين[2].

ثالثاً: المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية: لقد كان انتخاب أوكتاي ابن جنكيز خان لأعظم للمغول إيذاناً بشن حملة جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية والقضاء عليها نهائياً، على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر، قاموا قبل ذلك بعدة حملات منظمة عل قوات السلطان جلال الدين منكبرتي، كانت تسفر تارة عن انتصار جلال الدين وتارة أخرى على انتصار المغول[3]، ولكنها على كل حال لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إلى أن عهد «أوكتاي» إلى قائده المشهور «جُز ماغون نويان» بقيادة الحملة على إيران، فسار على رأس جيش كبير تعداده 50000 جندي، مصطحباً معه عدداً من أمهر قادة المغول، وقد قدم الجميع إلى تركستان حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم، وبالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية من أسرى الأعداء، فبلغ عدد الجميع 100000 جندي[4]، واستطاع المغول تدمير

---

(1) المغول، ص: 167، للصياد.

(2) المصدر نفسه، ص: 167.

(3) المصدر نفسه، ص: 171.

(4) المصدر نفسه، ص: 171.

جيش جلال الدين منكبرتي كما مرَّ معنا، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم ببسالة، أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، أو تقف في طريقهم عقبة، فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية[1]، وينشروا فيها الخراب والدمار، وكان هناك قائد خوارزمي اسمه «أورخان» وهو الذي استطاع أن ينقذ حياة جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان، كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس 4000 جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل، ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى أصفهان حيث لقي حتفه على يد المغول، وبعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين على جبال كردستان والجزيرة والشام، فقتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها[2].

وقسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسة: فتح الجيش الأول ديار بكر، وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو حتى مجرد سماع اسمهم، وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي إلى الحد الذي يتضح فيما ساقه ابن الأثير من قصص تذكي لهيب الأسى في النفوس وتثير الشجون، تلك القصص التي قد يتوهم القارئ أنها سيقت على سبيل المبالغة لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة[3] فيما رواه، يقول: ولقد حكى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس حتى قيل إن الرجل منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس[4].

وأما الجيش الثاني فقد قصد مدينة «بدليس» وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

(1) المغول، للصياد، ص: 179.
(2) المصدر نفسه، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه، ص: 180.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وشرع يفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً صمم عل احتلال حاضرتها تبريز، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة (629هـ/ 1232م)، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين، وعندما تأكدوا من ضعفه ثاروا على الحكام الخوارزميين وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم، لهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول كما قبلوا شحنة من قبلهم، وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض، ودخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن[1].

وفي عام (632 ـ 633هـ) (1234 ـ 1235م) دخل المغول إقليم إربل وغزوا حاضرته، إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرها المغول أربعين يوماً، وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد قد جاء من بغداد، وبعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق في سنة 634هـ (1236م) وواصلت زحفها شمالاً حتى وصلت مدينة (سامراء)، فلما شعر الخليفة يتهدده الخطر، أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء أفتوا بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدوايدار[2]، واستطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل «حَمْرَين» وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل، وأقام المسلمون الاستحكامات المنيعة حول بغداد وأعاد المغول الكرة وقصدوا بغداد عام 635هـ/ 1237م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد[3].

واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية ودمروا وخرّبوا ولكن المغول عادوا وأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان، وكذلك سيطر المغول سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أدنى مقاومة، فسلمت سجستان وغزنة وكابل وحدود

(1) المغول، ص: 180.

(2) المصدر نفسه، ص: 181. الدويدار: في الأصل بمعنى الكاتب.

(3) الحوادث الجامعة، لابن الفوطي، ص: 113، المغول، للصياد، ص: 181.

السند، واستطاع المغول السيطرة على سلاجقة الروم عام (640هـ/ 1243م) بعد انتصارهم عليهم في معركة عنيفة بموضع «كوسة طاغ» ووضع الأناضول بعدها في قبضة المغول، وخضع السلطان غياث الدين لخان المغول والتزم بدفع جزية سنوية له[1].

1 ـ **فتح أقاليم الصين الشمالية:** بعد وفاة جنكيز خان نجحت أسرة كين في استرداد جزء كبير من مملكتهم، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها، فلما تولى أوكتاي حكم المغول أعد العدة لفتح هذه البلاد، فسير جيوشه إليها سنة 627هـ/ 1229م، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد تحرك أوكتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولو إلى سهل «هوانج هو» الذي يطلق عليه المغول «قزاموران» ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسين: هجم أحدهما من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي، وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور «سبوتاي» بفتح العاصمة «كاي فونج»، وسقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول وقتل معظم سكان المدينة ولم يفلت منهم إلا القليل وكان ذلك في سنة 631هـ/ 1233م، وعلى إثر ذلك تقدم الوزير الحكيم «يي ليو جوتساي» إلى أوكتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة، بل يلحقها بالأملاك المغولية، واستجاب لطلبه[2]، وعند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية من أسرة «سونج» يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية، فلما خابت آمالهم، نشبت الحرب بينهم وبين المغول وكانت هذه فرصة سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً، وضم أملاكها إلى حوزتهم، ولكن تم هذا في عهد خلفاء أوكتاي[3].

2 ـ **المغول في أوروبا:** بعد أن عاد أوكتاي من الصين مظفراً، كوّن جيشاً عظيماً تعداده 150000 جندي أسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور «سبوتاي» يتولى القيادة الفعلية، وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا،

---

(1) المغول، ص: 183.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) المصدر نفسه، ص: 186.

وأحرق مدينة موسكو، ودمر مدينتي سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال على حين شهدت فلادمير عند سقوطها عنوة أفظع المناظر، إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار، وبعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، فقلبوا هذه المناطق رأساً على عقب وعاثوا فيها تخريباً وفساداً، واستولوا على عاصمتها «كييف» في سنة (638هـ 1240م) ودمروها تدميراً كاملاً، ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف 636هـ ـ 886هـ، وبعد أن تم فتح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثاني إلى المجر. وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان يبلغ تعداده 30000 جندي، واستولى المغول على مدينة «بِرسلاو» وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار، وفي هذا الإقليم وحده جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموعها 270000 أذن أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة[1].

وأما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين واستولى المغول على عاصمتهم «بِست» وتقدموا إلى فيينا من جهة وإلى سواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوروبا إذا بالأنباء ترد إلى أوروبا تعلن وفاة أوكتاي في سنة 639هـ/ 1241م واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي والاشتراك في انتخاب الخان الجديد، وبذلك سلمت أقاليم غرب أوروبا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول[2].

3 ـ **وفاة أوكتاي قاآن:** كان أوكتاي ولوعاً إلى أقصى حد بالشرب والإدمان على الخمر، وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم، ولم يتيسر للخاصة ولا الأصفياء منعه من ذلك، بل كان يكثر من الشراب رغماً عنهم، وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب إلى أن أثر هذا على صحته، وفي إحدى الليالي عندما حان أجله، أفرط في الشراب، فتوفي وهو نائم وكان ذلك في سنة 639هـ/ 1241م[3].

(1) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص: 248، المغول، للصياد، ص: 187.
(2) المغول، للصياد، ص: 188.
(3) المغول، للصياد، ص: 188.

4 ـ النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاي: قام أوكتاي بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها فقد ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره الحكيم «يي ليو جوتساي» الذي استطاع أن ينشئ في هذا الإقليم إدارة حازمة منظمة، مستعيناً في ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت، كذلك نجح في تنظيم الشؤون المالية، وضبط عمليات الداخل والخارج، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في إعداد ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية، إذ ألزم الصينيين بأن يأدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً، بما يجري تقديره من أثواب الحرير وكميات الحبوب على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم، ثم أنه شيد في مدينة بكين «خان باليغ» مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة، وفيها كانوا يدرسون تعاليم كونفوشيس[1]، ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ولي عليها «محمود يلواج» كما نصب ابنه «مسعود بيك» حاكماً على إقليم ما وراء النهر، فقام الأب والابن بتعمير ما خربه المغول، وأخلصا في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم وإدارة تلك المناطق أحسن إدارة[2]، وكان أوكتاي يميل إلى التعمير والتشييد وشرع في عام 631هـ/ 1234م في بناء عاصمة جديدة له وأمر بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى، وأقاموا في وسطه مقصورة عالية وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق، ثم عكفوا على زخرفته وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير وأمر بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء والملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر فامتثلوا جميعاً الأمر، وعندما تمت هذه المباني واتصل بعضها ببعض كونت مجمعاً عمرانياً رائعاً وكان ذلك بإشراف أمهر المهندسين الصينيين الذين قد أحضرهم معه[3]، وطور أوكتاي نظام البريد وفكر في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى[4].

5 ـ معاملة أوكتاي لرعاياه من المسلمين: كان أوكتاي ملكاً كريماً نبيل الخلق، طيب المعاملة للمسلمين على حين أن أخاه جغتاي، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان، وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد

(1) المغول، للصياد، ص: 189.
(2) المصدر نفسه، ص: 189.
(3) المصدر نفسه، ص: 191.
(4) المغول، د. العريني، ص: 162.

لكي يوشوا بالمسلمين عند أوكتاي حتى يتغير عليهم ويعمل على الخلاص منهم، وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان وقال له: إنه رأى جنكيز خان في المنام، وإنه يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا الأمر لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول، فلما سمع أوكتاي هذا الحديث، وكان ذكياً ومحباً للمسلمين، أدرك بفراسته على الفور أن هذا الكلام كذب ومحض افتراء، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي. ثم دعا أوكتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك وأمر باستدعاء ذلك الراهب، وكلفه بأن يعيد سرد رسالة جنكيز خان على مسمع من الحاضرين ففعل، بعد ذلك قال أوكتاي: ينبغي أن تكون لكل دعوى حجة وبرهان حتى يتبين الصدق من الكذب، والصحة من السقم، فأمن الجميع على ما قال أوكتاي، ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الاثنين معاً؟!..فأجاب الراهب: إنني أعرف التركية فقط، عندئذ قال أوكتاي: إن جنكيز خان كان لا يعرف سوى المغولية وأنت لاتعرف سوى التركية، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر: هل بالمغولية أو بالتركية[1]، فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره، لم يحر جواباً، واعتراه الخجل، وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه، ولكن أوكتاي لم يدع هذه الفرصة تمر دون أن يلقن هذا الراهب درساً لاذعاً في الأخلاق فقال له: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي، فعد من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: أن كفّوا أيديكم عن إيذاء المسلمين لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا، وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا.

ويروى أيضاً أن المغول كانوا أصدروا قراراً بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها كذبيحة المسلمين، بل تشق صدورها وأكتافها، وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سَمّى ـ الله ـ وهمّ بذبحه، واتفق أن رآه في السوق رجل تركي من القبجاق، فتعقبه وتسلق السطح، وقيد ذلك المسلم وسحبه إلى بلاط القاآن، فأرسل القاآن نوابه للتحقيق، وعندما أطلعوه على ما جرى قال: إن الرجل الفقير قد احترم القانون، وهذا التركي ترك القانون، لأنه صعد إلى دار الفقير، وبهذا نجا المسلم وقتل القبجاقي[2].

(1) المغول، د. الصياد، ص: 193.

(2) جامع التواريخ (2/ 62 ـ 63) المغول، للصياد، ص: 194.

6 ـ كيوك خان (644 ـ 647هـ = 1246 ـ 1249 م): على إثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووداي القبجاق وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي، كذلك كان يرغب «كوتان» الابن الثاني لأوكتاي في تولي هذا المنصب بعد أبيه، وكان هناك فريق آخر يرى التقيد بوصية الخان الراحل، واختيار حفيده الطفل «شيرامون» ليكون خاناً أعظم للمغول، ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على رأي معين بخصوص هذه المسألة وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب، وكان من بينهم أوتجكين أخو جنكيز خان، إذ أراد أن يغتصب العرش بالقوة، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القاآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد، فهاج الجند والأتباع، وما إن علمت توراكينا بهذا التدبير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين تعتب عليه في رفق، وتعمل على استمالته إلى جانبها، فنجحت في هذا السبيل، إذ ندم أوتجكين ومهد سبيل الاعتذار، ثم قفل عائداً إلى موطنه.

ولكن توراكينا خاتون لم تأبه بهذه المحاولات، وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب، ولبلوغ الغاية، صارت تبذل قصارى ما في جهدها لمدة تربو على أربع سنوات في سبيل اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى ضمت الأغلبية إلى صفها، وصاروا رهن إشارتها، كذلك سنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة الذين كانوا ضد سياستها وكانت لها حاجبة تدعى «فاطمة» أصلها من مشهد طوس، ثم ألحقت بخدمتها، وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة وموضعاً للثقة التامة، وكاتمة أسرار الخاتون، وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم، فأخذت توراكينا خاتون تعزل بمشورة تلك الحاجبة الأمراء وأركان الدولة ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي وعندما تأكدت «توراكينا خاتون» من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية من جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي التي سوف ينصّب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم[1].

7 ـ لختيار كيوك خان خاناً أعظم للمغول: وفي عام (644هـ/ 1246م) انعقد

(1) المغول، للصياد، ص: 196.

القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول، ولكنه يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه، وفي النهاية قبل أن يتقلد هذا المنصب نزولاً على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وريثاً في سلالته، فوافق الجميع على ذلك، عندئذ خلع الأمراء قلانسهم، وحلوا أحزمتهم، وأجلسوا كيوك على العرش ثم أخذوا الكؤوس، وركعوا أمام عرشه، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاناً للمغول، واستمروا يحتفلون بهذه المناسبة مدة أسبوع، وكان كيوك يقوم بتوزيع الأموال على الأمراء ورؤساء الفرق[1].

كان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قصروا في أداء واجبهم أو ارتكبوا مخالفات في المدة السابقة على توليته، كذلك كلف أمراءه وقواده بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي، وأوفد «إيلجيكتاي» إلى إيران لفتح بقية الممالك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شؤون الروم والكرج والموصل وديار بكر، ونصّب محموداً حاكماً على ممالك الخطا، وولى الأمير مسعود بيك حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند، وقلد السلطان «ركن الدين» سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطوراً للمغول وعزل أخاه الأكبر «عز الدين» وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بابن فيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس[2].

أ ـ **سياسة كيوك خان مع المسيحيين:** كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية، ولهذا عهدت إلى الأمير «قداق» المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر، ولما اعتلى عرش المغول قرب إليه «جينقاي» الذي كان يعمل مستشاراً ووزيراً لأبيه، وكان من قبيلة كرايت، يدين أيضاً بالمسيحية، ولم يكتف كيوك بهذا، بل قلده منصب الوزارة، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي، إذ صار يعطف عطفاً

(1) المغول، للصياد، ص: 196.

(2) تاريخ مختصر الدول، ص: 257، المغول، ص: 198.

شديداً على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس[1]، ويذكر المؤرخ بروان أن الجمعية العامة التي تمّ فيها انتخاب كيوك قد امتازت بوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول، فقد حضرها اثنان من الكهنة بعث بهما البابا بخطابات يرجع تاريخها إلى أغسطس سنة 1245م= 643هـ وقد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال[2]، غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا وأن يقدم إليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا له يمين التبعية، فلما عاد «يوحنا» إلى البابا في نهاية سنة 1247م قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال، وأرفق بها تقريراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح[3]. وخلاصة القول أنه في عصر كيوك خان ارتفع شأن المسيحيين على حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين وذلك بتأثير أمه من جهة وكانت تدين بالمسيحية وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشؤون الطبية في البلاط المغولي، وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية[4].

ب ـ وفاة كيوك خان 647 هـ/ 1249م: اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير «باتو» ملك خانات روسيا ووادي القبجاق، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي[5]، ولم يحضر إلى منغوليا لحضور جلسة القوريلتاي التي نصب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم، وعندما تولى كيوك خان الحكم أخذ على عاتقه أن يخضع «باتو» بسبب الموقف العدائي منه بصفة خاصة ومن أسرة أوكتاي بصفة عامة، ولكنه لم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم في ربيع الثاني سنة647 هـ/ 1249م، أما والدته توراكينا خاتون، فقد توفيت قبله بعدة أشهر[6].

8 ـ اختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي: على إثر وفاة كيوك خان،

---

(1) المغول، للصياد، ص: 199.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) المصدر نفسه، ص: 200.
(4) المصدر نفسه، ص: 201.
(5) المصدر نفسه، ص: 195.
(6) المصدر نفسه، ص: 195.

أراد أوكتاي وأتباعه أن يقيموا «شيرامون» إمبراطوراً للمغول، ولكن لاتخاذ هذه الخطوة، كان لابد من الحصول على موافقة الأمير «باتو» باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً، فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم، وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد، فرد عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه، وفي نفس الوقت وجه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبجاق حيث يقيم، والاشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان، ولكن أبناء أوكتاي وجغتاي عارضوا هذا الاقتراح، وأصروا على أن يعقد القوريلتاي في المقر الأصلي لجنكيز خان جرياً على العادة المتبعة، وعلى هذا امتنعوا على الذهاب إلى القبجاق واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين، وأما منكو وإخوته فقد لبوا دعوة باتو، وأسرعوا إلى القبجاق حيث عقد القوريلتاي ونودي بمنكو إمبراطوراً على المغول وتلقب بلقب «منكو قاآن» وبهذا انتقل الحكم إلى أولاد تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيز خان. ولكن لما لم يكن جميع الأمراء ممثلين في هذا الاجتماع، أتفق على أن يعقد القوريلتاي مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة ويحضره الأمراء والعظماء لإقرار تنصيب «منكّو» خاناً أعظم للمغول بصفة رسمية.

وعقد القوريلتاي مرّة أخرى في شهر ذي الحجة 648هـ/أبريل1260م في منطقة قراقورم، وذلك رغم أنف المعارضين، وفيه أعلن انتخاب منكو رسمياً. ولكن المناوئين لسياسة منكو لم يخضعوا لهذا القرار، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، فعلم بذلك منگو في الوقت المناسب وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم، ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم، وكان منكو قآن ينوي الصفح عنهم إلا أن الأمراء حذروه مغبة التهاون معهم، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم، وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج، فسرد إليه قصة الإسكندر وأرسطو ومؤداها أنه عندما استولى الإسكندر على أكثر ممالك العالم، أراد أن يسير نحو الهند، غير أن أمراء الدولة وأركانها خرجوا على طاعته وتخلفوا عن متابعته، وأخذ كل منهم يعلن الاستقلال والاستبداد، فعجز الإسكندر عن علاج هذه الوضع وأرسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له، وأطلعه على عصيان أمرائه وتمردهم، وسأله عن إيجاد حل لهذه المسألة فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق، وأمر بأن تُجتَثّ الأشجار الكبيرة من جذورها وأن تغرس شجيرات صغيرة، فقال الإسكندر: لقد أجاب، وأنت لم تفهم مقصوده، وأهلك الإسكندر ـ على الفور ـ الأمراء المستبدين، ونصب أبناءهم في أماكنهم، فاستحسن منكوقآن هذا القول وأمر بضرب أعناق الأمراء

المعتقلين ووضع جمعاً آخر في مكانهم.[1]

أ ـ إصلاحات منكوقاآن الداخلية: اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، فنجح في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير، وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة، ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول، فإنه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة ولكثرة اختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة، فقد تأثر نوعاً ما وكان يكره الترف، وينكر المباذل، وليس له هواية سوى الصيد، ومن صفاته أنه كان بالغ النشاط بارعاً في تسيير الإدارة متوقد الذكاء، جندياً باسلاً وسياسياً ماهراً، وبهذه الخصال أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيز خان من نظم ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجعل منها دولة بالغة القوة[2].

ب ـ تسويته بين طوائف الإمبراطورية المغولية: كان لا يفرق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة وكفل الحرية للجميع، إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر ويجادله في المسائل الدينية في حرية تامة، وعلى الرغم أن منكو كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، إذ سلم بوجود إله واحد يعبده كل إنسان حسبما شاء[3]، ومنكو قاآن في هذا يسير على سياسة والدته «سُرقويتي بيكي» التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين، وكانت شديدة العطف عليهم، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات، ولم تقف عند هذا الحد بل إنها أقامت في بخارى مدرسة على نفقتها الخاصة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وولت عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعينت المدرسين، ورعت شؤون الطلبة، وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين، وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات إلى أن توفيت في شهر ذي الحجة سنة 649هـ[4] مارس 1251م[5].

(1) المغول، للصياد، ص: 209 جامع التواريخ 21/ 296 ـ 297.

(2) المغول، ص: 210

(3) المصدر نفسه، ص: 211.

(4) المصدر نفسه، ص: 211.

(5) المصدر نفسه، ص: 211.

جـ ـ مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين: قابل منكوقاآن سفير لويس باحترام وأكرم وفادته وسمح له بأن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حرية تامة، إلا أنه لم يعطه جواباً مقنعاً فيما يتعلق بتكوين اتحاد مع المسيحيين، بل إنه طلب إليه أن يسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته، وقد مكث «روبروق» خمسة أشهر في قراقوم وفي النهاية عاد إلى الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا وقدم إليه الرسالة[1]، كان الخان المغولي الكبير لا يقبل أن يكون سيد في العالم سواه، وكانت سياسته الخارجية بالغة البساطة، إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم، أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له، وكل ما استطاع «وليم روبروق» أن يحصل عليه، هو أنه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم. على أن ملك فرنسا لم يستطع التفاوض على أساس هذه الشروط وغادر «روبروق» قراقوم في أغسطس عام 1254م عائداً إلى بلاط باتو بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية ومنها إلى عكا ولقي «روبروق» في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير، ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد أمدت «وليم روبروق» بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول، ووصف لنا عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية، وغير ذلك مما صادفه في رحلته، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي والتي أخضعها جنكيز خان[2].

د ـ سياسة منكوقاآن الخارجية: في السنة التالية لحكم منكوقاآن، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجه عنايته نحو الغزو والفتح والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل، وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين، نصب أخاه الأصغر «هولاكو» على رأس إحداهما وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي، ونصب أخاه الأوسط «قوبيلاي» على رأس الحملة الأخرى بفتح أقاليم الصين الجنوبية، واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم في هذه البلاد الفسيحة[3].

(1) الدولة الخوارزمية والمغول، ص: 248، المغول، ص: 212، للصياد.

(2) تاريخ مفصل عن إيران، عباس إقبال (1/ 160).

(3) المغول، للصياد، ص: 216.

هـ ـ **وقفة للتحليل:** وصلت حدود دولة التتار في عام 639هـ من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً، وهو اتساع رهيب في وقت قياسي وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

- تولى قيادة التتار بعد «أوكتاي» ابنه «كيوك بن أوكتاي»، وقد كان لهذا الخاقان الجديد الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا يقوى التتار على حفظ النظام فيها، والسيطرة على شعوبها وجيوشها، ومن ثم فقد توقفت الفتوحات التتارية، في عهد هذا الخاقان، وإن ظل التتار يحافظون على أملاكهم الواسعة.

- ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تماماً على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة.

- ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي ـ والذي يبدأ من العراق إلى مصر ـ مفرقاً مشتتاً، لا يكتفي بمشاهدة الجيوش التتارية وهي تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم وازداد تفككهم بصورة كبيرة، كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغربي أفريقيا مفككاً تماماً.

- ذاق الأوروبيون النصارى من ويلات التتار وذبح منهم مئات الآلاف، ودمرت كنائسهم وأحرقت مدنهم، بل هددوا تهديداً حقيقياً أن يصل التتار إلى عقر دار الكاثوليكية النصرانية في روما.

- ومع أن النصارى رؤوا أفعال التتار إلا أن ملوك النصارى في أوروبا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات.. ولذلك كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع التتار[1] ضد المسلمين.

---

(1) قصة التتار، ص: 93.

- أخذت عقائد الجيش التتاري في التغير بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين التتار والصليبيين.
- استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى: بين التتار من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى، ولم يمتنع المسلمون من الصراع فيما بينهم.
- في سنة 640هـ توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه «المستعصم بالله» وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيراً في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال، فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه، وسنأتي بإذن الله تعالى بذكره بالتفصيل.
- لم يبق فاصل بين المغول والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس (غرب إيران الآن)، وهو على قدر من الأهمية وإن كان ضيقاً، إذ كانت تعيش فيه طائفة الإسماعيلية الشيعية الخطرة، وكانوا أهل حرب وقتال، ولهم قلاع وحصون، فضلاً عن طبيعة المكان الجبلية، وكانوا على خلاف دائم مع المذهب السني وكراهية شديدة له، وكانوا يتعاونون مع أعداء الإسلام كثيراً، فمرة يراسلون التتار ومرة الصليبيين، وكان المغول يدركون وجودهم، ومع ذلك فهم لا يطمئنون لهم، وما كانوا يرغبون في بقاء قوة ذات قيمة في أي مكان على ظهر الأرض[1].

رابعاً: هولاكو والقضاء على الإسماعيلية: لم يكن أمام المغول بعد استيلائهم على أملاك الدولة الخوارزمية أي قوة تستطيع اعتراض طريقهم نحو الغرب، وكان الحكام المسلمون يعرفون تمام المعرفة أهمية الدولة الخوارزمية، كحاجز قوي بينهم

(1) قصة التتار، د. راغب السرجاني، ص: 94.

وبين المغول، وعلى كلٍّ فقد حرص منكو خان على إعداد حملة هولاكو إعداداً محكماً يكفل لها النجاح، فقد أرسل المرشدين ليختبروا الطريق الذي سوف تمر منه عساكر هولاكو من قراقورم حتى شاطئ نهر جيحون، فأقاموا الجسور على الأنهار العميقة، وعلى مجاري المياه السريعة[1]. ثم رسم لأخيه الخطة التي كان عليه أن يتبعها حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزيئات، وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون[2].

وخرج هولاكو على رأس جيشه من قراقورم عاصمة المغول في سنة 651هـ/ 1253م وفي طريقه لقي مساعدة كاملة من أمراء المغول الذين أعدوا له المأكل والمشرب في جميع المراحل، وحرصوا على أن ينظفوا الطريق التي تقرر أن يسلكها جيش هولاكو من الحجارة والأشواك، كما أعدوا السفن له لعبور الأنهار الكبيرة، كما قام الأمراء والنبلاء في تلك النواحي بحشد أعداد كبيرة من الجند للانضمام إلى جيش هولاكو[3]، وفي شهر شعبان سنة 653هـ/ 1255م وصل جيش هولاكو إلى سمرقند، وأمضى بها أربعين يوماً ثم توجه إلى مدينة كش، وهناك وصله كافة الأمراء والأكابر في خراسان وقدموا خضوعهم وهداياهم له، وأقام بهذه المدينة قرابة شهر وجه خلالها عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في البلاد المجاورة طلب منهم معاونته في تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بأن يبقيهم على ولايتهم ولا

(1) جامع التواريخ(1/ 235) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 46.

(2) جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص: 47.

(3) المصدر نفسه، ص: 47.

يتعرض لهم بسوء، وهددهم بأن امتناعهم عن مساعدته يجرهم إلى الهلاك وأنه سينزل بهم ما ينزل بالإسماعيلية(1).

1 ـ نشأة قلاع الإسماعيلية: حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية في أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحاً في فارس والعراق، وازداد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح من أصل يمني، نزح أبوه إلى الكوفة، ثم إلى قم، ومن قم، إلى الري، حيث ولد الحسن وعرف أصول الدعوة من عبد الملك بن عطاش ـ داعية المذهب في العراق ـ ومن سنة 471هـ وصل إلى مصر، بعد رحلة مليئة بالأخطار هدفه مقابلة المستنصر ـ الإمام الفاطمي ـ وبقي في مصر أكثر من سنة، لم يحظ خلالها بمقابلة الإمام، وغادر مصر في سفينة مع جماعة من الفرنجة، وأدى هياج البحر إلى اتجاه السفينة إلى حلب، ومنها عاد إلى أصفهان، ومنها إلى قلعة آلموت، وطارده نظام الملك الوزير السلجوقي الكبير مؤسس المدارس النظامية التي تحدثنا عنها في كتابنا السلاجقة، وتمكن أنصاره من السيطرة على آلموت ـ أي عش العقاب ـ واستولى على القلعة سنة 483هـ(2)، ولما استقر الحسن الصباح في آلموت أرسل الدعاة إلى الأطراف، وكان الحسن الصباح يدعو إلى نزار بن الخليفة المستنصر، لأن المستنصر قد خلع ابنه الأكبر نزار من ولاية العهد، وأسندها إلى ابنه المستعلي، ورفض الحسن الصباح خلع الابن الأكبر نزار، لأن ذلك يتنافى مع عقائد المذهب الإسماعيلي، الذي يعطي ولاية العهد للابن الأكبر، وكان الحسن الصباح في مصر أثناء خلع المستنصر للابن الأكبر نزار، ولما رفض هذا الإجراء سجن في مصر، ثم غادرها، ودعا إلى نزار في البلاد التي سيطر عليها(3)، وعمل الحسن ابن الصباح على توسيع رقعة دولته بعد وفاة السلطان ملكشاه، وكانت دولة الحسن الصباح على العقيدة الإسماعيلية الشيعية متطرفة في العقيدة، وانحرفوا عن الإسلام الصحيح، وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية ألف أبو حامد الغزالي كتابه الموسوم بفضائح الباطنية داحضاً لادعاءاتهم(4)، وقد فصلت الحديث عنه في كتابي عن السلاجقة.

---

(1) جامع التواريخ(1/ 240) جهاد المماليك ضد المغول، ص: 47.

(2) الدول المستقلة في المشرق، ص: 191.

(3) تاريخ مصر، ابن ميسر، ص: 26 وما بعدها.

(4) دولة السلاجقة، للصلابي، ص: 130.

2 ـ اقتلاع جذور الدولة الإسماعيلية: في ذي الحجة سنة 653هـ / يناير 1256م، أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون، حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، ونزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ وأمضى هولاكو الشتاء هناك[1]، ثم وصل هولاكو بعد ذلك على رأس الجيش الرئيس إلى قلاع الإسماعيلية الحصينة، واستطاع بالحيلة تارة، وبالقوة تارة أخرى أن يستولى عليها الواحدة تلو الأخرى، حتى انتهى من آخر قلاعهم قلعة آلموت في أواخر سنة 654هـ/ 1257م حيث لم يستطع زعيم الإسماعيلية ركن الدين خوارزمشاه مقاومة هولاكو، فاستسلم له وقبَّل الأرض أمامه، وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الإسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة، والتي اتخذها هؤلاء الإسماعيليون أوكاراً لهم سنين طويلة، ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية في تلك المناطق، بل طلب من ركن الدين خوارزمشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فاستجاب له وراسل مندوبين من قبله إلى بلاد الشام ومعهم رسل هولاكو لدعوة الناس هناك إلى التسليم عندما تصل إليهم الرايات المغولية[2].

خامساً: تحرك الجيوش المغولية نحو بغداد: بعد أن قضى هولاكو على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، الذي رسمه له أخوه منكو خان، وهو الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، التي أدركتها الشيخوخة وظهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار، والواقع أن جذور الضعف والتفكك قد امتدت إلى جسم الخلافة العباسية قبل مجيء المغول بمدة طويلة بسبب عوامل كثيرة ذكرنا بعضها في ما مضى، وسنذكر البعض الآخر بإذن الله تعالى. لقد تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وأطرافها، وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المستعصم بالله(640/ 1242م ـ 656هـ/ 1258م)[3].

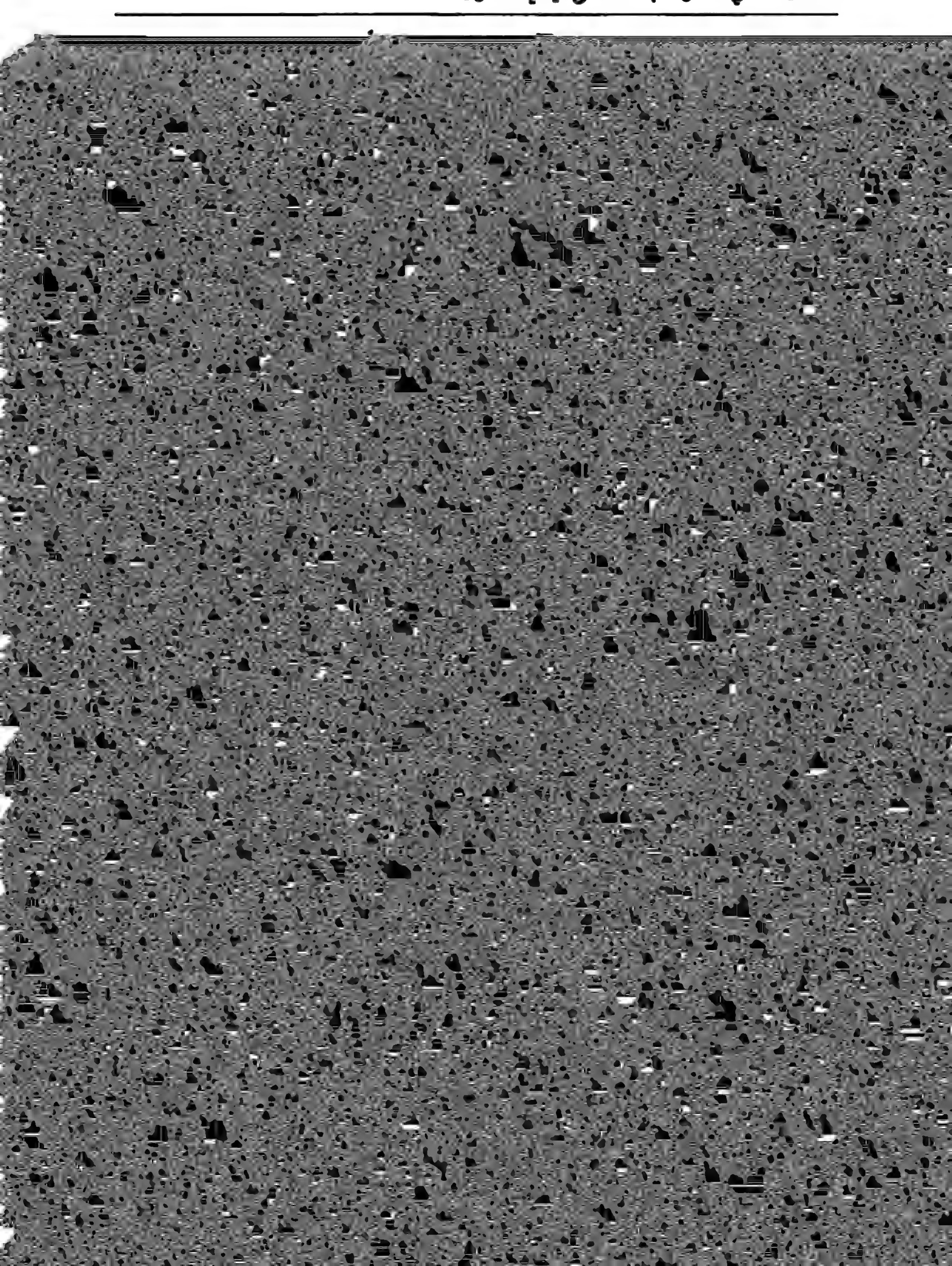
1 ـ سير الحملة إلى بغداد: بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية،

---

(1) جهاد المماليك، للغامدي، ص: 48، نقلاً عن: جامع التواريخ.

(2) المصدر نفسه، ص: 49.

(3) جهاد المماليك، ص: 50.



لي؟ إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب، غير أني لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذائهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان هولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، إذا استقر رأيك على الحرب، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال، وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان[1].

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالة الخليفة، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، غضب غضباً شديداً، وأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، إذ يقول: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم[2]. وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين، فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم «منكوقاآن» فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ويحرص على أن يمنع هولاكو من الإقدام على غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خللاً في نظام الكون، فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر ـ حتى هذه اللحظة ـ على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ستة مصائب كبيرة:

ـ تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود.

ـ لن تطلع الشمس.

---

(1) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة، ص: 347.

(2) جامع التواريخ، نقلاً عن: المغول، للصياد، ص: 256.

- لن ينمو النبات في الأرض.
- لن ينزل المطر.
- تهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل.
- يموت الخان الأعظم في هذا العام[1].

وأما الأمراء فقد قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، وبعد ذلك استدعى هولاكو خان «نصير الدين الطوسي» لاستشارته، ولما كان يكره الخليفة، ويعمل على إسقاطه، فقد نقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول ﷺ ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة وقتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[2].

2 ـ حصار بغداد: وعلى إثر ذلك أصدر هولاكو أمره بأن تتحرك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل متجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية، وتنتظر حتى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقية، أما كيتوبوقا أحسن قواد هولاكو فقد اتجه بالجناح الأيسر إلى العاصمة العباسية عن طريق لورستان، وخوزستان، كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كروستان الحالية، وفي أوائل المحرم سنة 625هـ/ 1257م نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البينكجي[3]، وعلاء الدين عطاء الجويني، وقد استطاع هولاكو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم، كما استطاع أن يضم إليه الكثير من جنود سليمان شاه[4]. وكان بدر الدين

---

(1) المغول، ص: 259.
(2) المصدر نفسه، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) المصدر نفسه، ص: 261.

لؤلؤ صاحب الموصل، والأتابك أبو بكر في إقليم فارس ممن أمدوا هولاكو بالمال والرجال، ولما انتهى حشد القوات المغولية وأقام هولاكو معسكره في ظاهر بغداد من الرق، حاول الجيش الذي أعده الخليفة بقيادة مجاهد الدين آيبك الدويدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول في أماكنهم، فكان نصيبه الهزيمة المنكرة، وقتل عدد كبير من الجنود لقوا حتفهم على يد المغول، فلم يسع مجاهد الدين إلا الحرب مع قليل من أتباعه، وفي يوم الثلاثاء 22 من المحرم 656هـ/ 1258م أحكم الحصار حول مدينة بغداد، واستمر حتى نهاية هذا الشهر، وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة، ويفتحون الأبراج حتى استولوا بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات[1].

3 ـ **مفاوضات النهاية**: ولما رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يهادن المغول ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفتح وذلك بإرسال الرسل والهدايا، ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء[2]، ولجأ الخليفة إلى صديقه مؤيد الدين العلقمي الشيعي وسأله: ماذا يفعل؟ وأشار إليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يجري معه مفاوضات، وذهب الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعاً المفاوضات وبذلك تصبح المفاوضات ـ كما يزعم هولاكو ـ ملزمة للجميع، وجمع الخليفة كبار قومه، وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد، خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه، لقد خرج الخليفة ذليلاً مهيناً، وهو الذي كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التي خرج منها الخليفة الآن، وكان الوفد كبيراً يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيهم بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتاري، ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقون فسيخضعون ـ كما يقول الحرس ـ للتفتيش الدقيق، ودخل الخليفة ومعه رجاله

(1) المغول، للصياد، ص: 262.
(2) المصدر نفسه، ص: 262.

وحجب عنه بقية الوفد، ولكنه لم يخضعوا لتفتيش أو غيره، بل أخذوا جميعاً.. للقتل!! قتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه، قتل كبراء القوم، ووزراء الخليفة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية، ولم يقتل الخليفة لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى، وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله وعرف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة، الآية: 10]. وصدرت الأوامر من هولاكو إلى الخليفة:

أ - على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة، وقد كان ذلك أمراً سهلاً، لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً.

ب - يقيد الخليفة العباسي، ويساق إلى المدينة، يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال[1].

ج - يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينيه، فقتل الولد الأكبر أحمد أبو العباس وكذلك قتل الولد الأوسط عبد الرحمن أبو الفضائل... ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم.

د - أن يستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعاً فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيذبح العالم كما تذبح الشاة، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل، لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس وذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ بن الفرج بن الجوزي، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله، عبد الرحمن، وعبد الكريم، وذبح المجاهد مجاهد الدين آيبك وزميله سليمان شاه اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه صدر الدين علي بن النيار، ثم ذبح بعد

(1) قصة التتار، ص: 149، 150.

هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن، وكل هذا والخليفة حي يشاهد، ورأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً ودياً مع ابن العلقمي الوزير الخائن وأدرك بوضوح العلاقة بينهما وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن بعد فوات الأوان[1].

4 ـ **استباحة بغداد**: بعد أن ألقى أهل المدينة السلاح وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة، أصدر هولاكو أمره الشنيع باستباحة بغداد[2]، وأتوا على كل ما فيها، فخربوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء، وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل[3]، ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بنحو ثمانمائة ألف نسمة[4]، ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط، وإنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن، فإنهن كانوا يأخذونها سبياً[5]، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقد استمرت هذه الغارة أربعين يوماً، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، وأتت على الأخضر واليابس، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة[6]، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة، وجلس في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدق الخليفة قوله، وكان يرتعد فرقاً وخوفاً واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول، لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفائس ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو خان الذي لم يعر

---

(1) قصة التتار، ص: 151.

(2) المصدر نفسه، ص: 151.

(3) المغول، للصياد، ص: 265.

(4) دول الإسلام الذهبي (2 ـ 123)، المغول، للصياد، ص: 265.

(5) قصة التتار، ص: 265.

(6) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير فرنسيس، ص: 292 ـ 293.

تلك الأشياء التفاتاً، ووزعها على أتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهذه تعد غنيمة، فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن، فما هي وأين توجد؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجدوه مملوءاً بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم[1]، وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه قال في تضرع: امنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر، فأمر هولاكو بأن يختار من بينهن مائة من النسوة ممن هن من أقاربه والمحببات إليه، ثم رجع إلى معسكره ليلاً وفي الصباح كلف قائده «سونجاق» بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويخرجها، فجمع هذا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد ادخروه خلال خمسة قرون[2]. وأخيراً بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك، وبعد أن خرب ما خرب، أصدر أمره بالكف عن القتل، وبأن ينصرف كل إلى عمله، يقول ابن كثير: ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، ولقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى[3].

5 ـ **مقتل الخليفة المستعصم بالله:** عامل هولاكو الخليفة معاملة سيئة للغاية، بحيث أنه حرم عليه الطعام، فلما أحس الخليفة بالجوع طلب طعاماً، فقدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالذهب، وأمره أن يأكل، فقال الخليفة: كيف يمكن أكل الذهب؟... فرد عليه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام، وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري؟... فأجاب الخليفة: هكذا كان تقدير الله[4]. فقال هولاكو: وما سوف يجري عليك إنما هو كذلك تقدير الله. وفي رواية أخرى: أن هولاكو عندما وجه هذه الأسئلة إلى الخليفة لزم

---

(1) تاريخ مختصر الدول، ص: 271، المغول، ص: 266.

(2) جامع التواريخ، ص: 300 ـ 302، المغول، للصياد، ص: 266.

(3) المغول، للصياد، ص: 266، البداية والنهاية (13/ 203).

(4) المغول، ص: 267، للصياد.

الصمت ولم يحر جواباً[1]. وأما عن الكيفية التي قتل بها المستعصم، فإنها لازالت مسألة يكتنفها الغموض، إذ تضاربت فيها روايات المؤرخين، ولعل أبا الفداء يمثل لنا اختلاف الروايات بخصوص قتل المستعصم تمثيلاً واضحاً حين قال: ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل: خنق، وقيل: وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل: غرق في دجلة، ويختم عبارته بقوله: والله أعلم بحقيقة ذلك[2]، واشتهرت بين المؤرخين قتل المستعصم في غرارة ثم رفسه إلى أن مات. والسؤال المطروح: لمَ اختار هولاكو هذه الطريقة في قتل المستعصم؟ قيل في تبرير ذلك أمور منها:

أ - شق على مستشاري هولاكو خان من المسلمين أن يراق دم الخليفة وهو أمير المؤمنين وزعيمهم الديني فحذروا الخان المغولي أن يقدم على تلك الفعلة، حتى أنهم ليرون أن أحد المنجمين قال لهولاكو: إذا قتل الخليفة، فإن العالم يصير أسوداً مظلماً وتظهر علامات القيامة[3]، وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الدين الطوسي هذا الادعاء وأيد رأيه ببراهين عملية تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قتلوا ولم يحدث خلل يذكر، فلما صمم هولاكو على قتله، احترز من أن يريق دمه فقتله بالطريقة السالفة الذكر.

ب - قتل هولاكو المستعصم دون أن يريق دمه، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين وإنما جرياً على عادة المغول، كما أشار إلى ذلك النويري إذ يقول: وجيء بالخليفة إلى هولاكو فأمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل، ففعل به ذلك حتى مات، كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً[4]. ويقول ابن خلدون: وقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم[5]. كان جنكيز خان يمارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي ويستعملون طريقة خمد الأنفاس تحت ضغط أقمشة ثقيلة.

---

(1) المغول، للصياد، ، ص: 267.

(2) المختصر في أخبار البشر (3/ 203)، المغول، ص: 268.

(3) مجالس المؤمنين، ص: 400، للششتري، المغول، للصياد، ص: 269.

(4) نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلاً عن: المغول، ص: 269.

(5) العبر وديوان المبتدأ والخبر (5/ 543).

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح، لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم، جروا على سننهم وتقاليدهم، إذ دفنوه في مكان مجهول، لدرجة أن السيوطي ينقل عن الذهبي قوله: وما أظنه دفن، ويقول ابن الغوطي: أمر السلطان ـ أي هولاكو ـ بقتله، فقتل يوم الأربعاء الرابع عشر صفر ولم يهرق دمه، بل جعل في غرارة ورفس حتى مات ودفن وعفي أثر قبره[1]. والمعروف في سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران، ويجعلون قبورهم من الأسرار المخفية، وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان (694 ـ 703هـ) واعتنق الإسلام، فأبطل هذه العادة، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقر دفنه، فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول، يدفن في مقبرة ظاهرة[2].

6 ـ **الخراب الحضاري:** بعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتاري، قتل أهالي بغداد، وهدم عمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، فأمر هولاكو قادته وجيوشه بعد القتل والذبح، نهب بغداد، فعاث جند المغول والتتار فساداً في المدينة التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات إلا بعد أن رأوا أكثر مساكنها وأسواقها أصبحت ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات، وأشعلوا النيران فيها أيضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون وأهالي بغداد من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان، وقساطيط، وسروج الخيل وأفرشة وبسط، «ودام القتل والنهب أربعين يوماً»[3] وبعد هذه الأربعين يوماً من التخريب والتمزيق أصبحت بغداد في حالة من الدمار والخراب لا تصدقها العيون، حدثنا أحد العلماء الذين زاروها بعد تلك الكارثة الكبرى فقال: وافيتها بلدة خالية، وأمة بالية، ودمنة حائلة، ومحنة جائلة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية، وقد رحل عنها سكانها وبات عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل وادٍ، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها باكية، تسفي عليها الرياح السافية، فهل نرى لهم من باقية؟ فوقفت أبكيها، أندب ربوعها ومن كان فيها:

وأنــدب أطــلالــهــا تــارة   وأبـكـي عـلـى فـرقـة الـظـاعـنـيـنـا

---

(1) المغول، للصياد، ص: 270.

(2) المصدر نفسه، ص: 270.

(3) مآثر الإنافة في معالم الخلافة (2/ 91).